المحتويات



المقدمة العامة لموسوعة النبي ﷺ

بقلم أ. د/ محمد ربيع محمد الجوهري

أستاذ العقيدة والعميد الأسبق لكلية أصول الدين

جامعة الأزهر/ القاهرة

حاجة البشرية إلى الرسل والرسالات:

اصطفى الله عز وجل من بين الناس رسلًا؛ ليكونوا نموذجًا للكمال، وعنوانًا للفضل، وحملة لمشعل النور والضياء، وقادة لركب الحضارة الإنسانية على مدى الأزمان وكرِّ الدهور، واصطفاهم المولى - جلَّت حكمته - ليكونوا هداة ومصلحين، فاختارهم بعلمه، وربَّاهم على عينه، وشرَّفهم بأكمل الأوصاف، فجعلهم أئمة الدنيا والدين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)﴾ (الأنبياء).

هؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله هم "الأنبياء والمرسلون" الذين شرَّفهم الله بالنبوة، وأعطاهم الحكمة، ورزقهم قوة العقل، وسداد الرأي، واصطفاهم ليكونوا سفراء بينه وبين خلقه، يبلِّغونهم أوامر الله عز وجل ويحذِّرونهم غضبه وعقابه، ويرشدونهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة[1]، فالإنسان هو صنعة الله تعالى، وهبه الوجود، ومنحه أسباب الحياة، وجعله خليفة في أرضه، ولا بد للصنعة أن تسير وفق إرادة صانعها، فهو أدرى بها، وأعرف بما يصلحها، وأعلم بما هو من خصائصها... فكانت الرسالات الإلهية تحقيقًا للصلة الوثيقة بين الصنعة والصانع، قال تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٣) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤)﴾ (الملك)[2].

لذلك فإن الرسل - عليهم السلام - قد قاموا بأعظم دور في حياة البشرية؛ حيث كانوا هم الصلة بين البشر وبين خالقهم عز وجل، فهم كما يقول المفكر الإسلامي محمد قطب: "أعظم الناس أثرًا في التاريخ الإنساني؛ ذلك لأنهم يحملون معهم الإصلاح الجذري الذي يصلح النفس البشرية ويقوِّمها، ولأنهم هم القدوة الصالحة لكل خير. ويقول في موضع آخر: ونستطيع أن نقول في كل اطمئنان: إن كل ما عرفته البشرية من خير حقيقي مرجعه إلى الوحي الرباني الذي حمله الرسل ودعوا إليه، ووثَّقوا وجوده الواقعي في الأرض بجهادهم، وإن كل ما أصاب البشرية من شرٍّ كان سببه الانحراف عن تعاليم الرسل وعدم الاقتداء بهم، وحين يختلط الحق بالباطل - كما هو اليوم - ويختلط الخير بالشر،

---

١. النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، القاهرة، د. ت، ص١٣.

٢. الرسالة والرسل في العقيدة الإسلامية، د. محمد سيد أحمد المسير، مكتبة الصفا، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٥٢.

يكون ما بقي من الخير في الأرض - أيًّا كان مقداره - راجعًا إلى الأنبياء والرسل، وما فيها من الشر راجعًا إلى الناس"[1].

هل كانت البشرية في حاجة ماسة إلى رسالة محمد ﷺ؟

حالة العالم قبل الرسالة المحمدية:

قبل مبعث النبي ﷺ كانت البشرية كلها قد تردَّت إلى حالة شديدة من السوء، وظلمات لا يبدو فيها بصيص من النور، فلم تكن الجزيرة العربية وحدها هي التي تسودها الجاهلية، وإنما كانت الجاهلية تعمُّ وجه الأرض كلِّها بغير استثناء[2]، فقد عمَّ الفساد أقطار الأرض - كما أفاد التاريخ - وسرى الموت بجميع ضروبه؛ من عقلي وخُلقي، وروحي فيها، وأسدلت الظلمات أستارها، فعميت البصائر، وضلَّت الأعمال حتى أصبحت الوجوه تولِّي شطر الأصنام والأنصاب التي حلَّت محل الهياكل والمعابد.

كما اضطربت الأحوال الاجتماعية والخلقية في العالم اضطرابًا لم يعد له مثيل؛ إذ إن أهل الأديان لم يقتصروا على مجانبتهم الفضيلة، بل انقلبت الرذيلة فضيلة أقبل عليها الناس تقرُّبًا إلى الله، تنزَّه سبحانه عما كانوا يفعلون.

انحطَّت جميع الأمم إلى مهاوي الرذيلة، وأتى أهل الأديان فيها من أنواع المنكرات ما يندَى له الجبين، حقًّا إن الله قد أرسل كثيرًا من الرسل قبل محمد ﷺ، وإن ظهورهم كان حاجة ماسة، غير أن العصور التي بُعثوا فيها - واحدًا بعد الآخر - لم تبلغ من الظلمة ما بلغه العصر الذي أُرسل فيه النبي العربي ﷺ، وكلهم قد لاقى شدائد وأهوالًا، بَيْد أن محمدًا ﷺ قد لقي من صنوف الإيذاء والشدائد ما لم يلقه أحد من إخوانه المرسلين، واضطلع بأعظم الأعباء، واحتمل أكبر التبعات؛ ذلك أن موسى عليه السلام قد أُرسل لتحرير بني إسرائيل، وجلي أن المصريين في عهده كانوا أولي ثقافة وحضارة، ولهم في العلوم والفنون قدم راسخة، وكذلك لما ظهر المسيح عليه السلام كانت الحضارة الرومانية كالحضارة الغربية الآن، وكانوا على جانب عظيم من التقدُّم في صناعة الطب، نعم كان الرومان وثنيين وقوم عيسى عليه السلام - بنو إسرائيل - موحدين، فشا فيهم النفاق والانغماس في الرذائل، ووقفوا عند صور العبادات، فكانت رسالة المسيح عليه السلام لإصلاح ما تأصَّل في النفوس من ضروب الرذائل، واتِّباع ما جاء به الرسل من قبله.

فإذا كانت هذه الأسباب اقتضت ظهور موسى وعيسى - عليهما السلام - فحال القرن السادس للميلاد كانت توجب ظهور كثير من الأنبياء في الأقطار المختلفة، أو ظهور رسول واحد تنتظم عزمته عزماتهم، وتجمع معجزاته أكثر من معجزاتهم؛ ليقيم دين الله في الأرض، ويملأ الأرض عدلًا بعد أن مُلِئت جورًا، ولتكون رسالته الخاتمة قائدة الإنسانية إلى يوم الدين، وقد كان، فبعث الله محمدًا ﷺ النبي الأمي، وجعله الرسول الخاتم، وجعل رسالته رسالة

---

١. انظر: ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص٢٥٢، ص٢٦٣.

٢. المرجع السابق، ص٣١٠.

الإسلام هي الرسالة الخاتمة[1].

انتظار العالم مبعث النبي الخاتم ﷺ:

إن رسم خط عرضي يقسم التاريخ البشري شطرين، قبل وبعد محمد ﷺ كفيل بالتعريف بما أحدثه محمد ﷺ من تغيير في معالم التاريخ طولًا وعرضًا، وسماءً وأرضًا، لقد كان التاريخ قبله مرهونًا به، منتظرًا له، كما أن التاريخ بعده متصل به، مرتهن بعلومه، انطوت بينهما تواريخ البشرية المقبلة ومستقبلها القادم، مطبقة على أن محمدًا ﷺ هو مشتهى جميع الشعوب والأمم والقبائل، بشَّر الله به آدم، كما بشر به عيسى، ومن بينهما رشَّحت رسالة الأنبياء الشفهية والكتابية أوصافه وأحواله وزمانه وصفاته، حتى كأنهم يرونه رَأْيَ العين، فقد اتفقت أحوال العالم على انتظار رسالة، وإلى انتظار مخلِّص على يد رسول من السماء، واتفقت جميع صفات محمد ﷺ على ترشيحه لتلك الرسالة.

كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول ثم لا يظهر ذلك الرسول المنتظر، وكان من الممكن أن يظهر الرسول ثم لا تتهيأ له الصفات التي يتم له بها أداء الرسالة، ولكن الذي اتفق في رسالة محمد ﷺ - كان أعجب أعاجيب الموافقات، بل لقد كان المعجزة التي فاقت كل المعجزات، فهي مع ضخامتها وتعدُّد أجزائها، توافقت تلك الأجزاء جميعها في الزمان والمكان والإنسان، فكأنه كان على موعد معها، وكانت هي على موعد معه، فكان محمد ﷺ مستكملًا لمجموع الصفات التي لا غنى عن شيء منها في القيام بأعباء تلك الرسالة العظمى الخاتمة من بين رسالات التاريخ البشري منذ بداية الخليقة إلى قيام الساعة.

لقد بلغ محمد ﷺ من العظمة منتهاها؛ فاق كل قياس بشري تُقاس به العظمة على مر الحضارات وتعاقب الحقب والأجيال، وما العلم كله إلا صفحات تنبئنا عن مكانة محمد ﷺ كنقطة ارتكاز وإعجاز في التاريخ الإنساني طولًا وعرضًا، سماءً وأرضًا[2].

ولكن، لماذا كل هذا العداء لمحمد ﷺ، وما هي أصوله؟

منذ بداية البشرية وأعداء الرسالات الإلهية في حرب مستمرة مع جميع الأنبياء والرسل، وما جاءوا به من الهدى، فقد جرت سنة الله تعالى في الخلق أن يجعل لكل نبي عدوًّا شياطين الإنس والجن: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ (الأنعام)، وقد خضعت دعوة محمد ﷺ لهذه القاعدة، فردَّ عليه قومه الرسالة، وضيَّقوا عليه سُبل الحركة، وآذوه بكفرهم وعنادهم، فصبر وصابر حتى أخرجه الله من بين أظهرهم إلى المدينة، حيث اجتمع على عداوته فيها اليهود، والمنافقون، ومشركو قريش والعرب، فرابط لهم وأصحابه حتى عمَّ نور الله ربوع شبه الجزيرة، وقابلت الزعامات السياسية والقيادات

---

1. محمد ﷺ المثل الكامل، محمد أحمد جاد المولى، مكتبة دار المحبة، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص٧٤، ٧٥ بتصرف.
2. محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مطابع الوليد، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٥، ٦ بتصرف.

الروحية لعالم ذلك الزمان خروج الإسلام من بلاد العرب بالعدوان، فحاول الملوك توقيف مدِّه بقوة السلاح، فلم يفت ذلك في عضده، واختصَّ الأحبار والرهبان والكهان بمحاولة توقيف مدِّه بسلطة الفكرة وقوة الحجاج، وتوسَّلوا في تحقيق أهدافهم بنشر كل قبيح من القول؛ فاتهموا النبي ﷺ باختلاق الإسلام، ووصموه بكل نقيصة.

ومن الصحيح أن نقول: إن الإسلام قد ووجه بالخصومة من القيادات الدينية لكل الأمم، ولكنها كانت أصرح في حالة اليهود والنصارى الذين أبانوا في حركة ردِّهم على الدين الجديد عن عداوة شديدة، وحقد دفين للإسلام ولنبيه ﷺ[1].

العداء المتوارث للإسلام ولنبيه ﷺ في العصر الحديث:

إنه لمن المؤسف لحال البشرية اليوم مع ما وصلت إليه من التقدُّم المادي في مجالات عديدة من علوم الدنيا، بما تتضمنه من الاكتشافات المبهرة في مختلف الميادين - أن نجد هذه النظرة العدائية من الغرب تجاه الإسلام ونبيه ﷺ كما هي عليه منذ القرن السابع الميلادي لم يتغيَّر منها شيء، فالاتهامات واحدة، والأدلة هي نفسها، وكأن المنصِّرين والمستشرقين قد رضعوا عداءهم للنبي ﷺ في ألبان أمهاتهم، هذا بخلاف غيرهم من أعداء الرسالات الإلهية؛ من الملحدين ودعاة العلمانية وغيرهم، وهم - كما يقول الشيخ محمد الصادق عرجون في كتابه (محمد رسول الله ﷺ) - في هذا العصر المادي الكفور أكثر من أن يحصوا؛ دولًا وشعوبًا، وأفرادًا، وجماعات، وحكامًا وزعماء، وهم أجرأ على الباطل الجحود وأكفر، ولا يزال الإسلام يعاني من تعصُّب بعض المستشرقين المتستِّرين بغلالات العلم والبحث، ومن ورائهم سائر المبشرين بالصليبية الحاقدة على الإسلام والمسلمين، ولهؤلاء وأولئك مريدون وتلاميذ مقلدون، من أبناء جلدتنا يتعالون تعاليًا، ويتهافتون تقليدًا، ينفخون في أبواق مدربيهم، وينشرون سمومهم في أفئدة الشباب المسلم[2].

ونحن في قولنا هذا لا نتجنَّى على أحد، بل لقد شهد بذلك بعض المستشرقين أنفسهم، يقول مونتجمري وات: "جدَّ الباحثون منذ القرن الثاني عشر في تعديل الصورة المشوَّهة التي تولَّدت في أوربا عن الإسلام، وعلى الرغم من الجهد العلمي الذي بُذل في هذا السبيل، فإن آثار هذا الموقف المجافي للحقيقة التي أحدثتها كتابات القرون المتوسطة في أوربا لا تزال قائمة، فالبحوث والدراسات الموضعية لم تقدر بعد على اجتنابها". ويقول برنارد لويس: "ولا تزال آثار التعصُّب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومتسترة - في الغالب - وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية"، وغير ذلك من هذه الشهادات كثير، ولكن يضيق المقام عن ذكرها.

ويضيف د. محمد محمد أبو شهبة: "ومن عجيب أمر المبشِّرين والمستشرقين أنهم في سبيل إرضاء أهوائهم، ونزواتهم الجامحة، وأحقادهم الموروثة يصحِّحون الروايات المكذوبة، والإسرائيليات المدسوسة، مادامت تسعفهم

---

١. نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر، د. لخضر شايب، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ص٦: ١٠.

٢. محمد رسول الله ﷺ، محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق، ج١، ص٣٠٥، ص٣٠٦، نقلا عن: عظمة الرسول ﷺ، محمد بيومي، دار مكة المكرمة، مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٨.

وتساعدهم على باطلهم، على حين نجدهم يحكمون على روايات صحيحة، بل في أعلى درجات الصحة بالوضع والاختلاق؛ لأنها لا تؤيدهم فيما يجترحون من طعون، وتجنٍّ أثيم على مقام النبي ﷺ"[1].

فالحرب إذن ضروس، والعدوان شرس، وكراهية الغرب للنبي ﷺ قديمة، وصورها متعددة؛ فقد تظهر في صورة حرب صليبية تشنُّ على بلاد الإسلام؛ لاستئصال أهله أو إقصائهم عن دينهم، وقد تظهر في صورة أفكار شيطانية، وافتراءات زائفة، وأباطيل كاذبة؛ تشوِّه الواقع، وتقلب حقائق التاريخ وتهدم ولا تبني، وقد تظهر كرسوم مسيئة، مغايرة للحقيقة، بالغة البشاعة، تنمُّ عن فكر مجنون، لا يعنيه الحق في شيء، يدفع العالم إلى أتون الانقسام والعداء والصراع بدلًا من نشر العدل والسلام، واحترام الشرائع السماوية، واحترام الأنبياء والمرسلين.

نعم، إننا لا ننكر أن في الغرب مفكرين يتحدثون عن الإسلام بإنصاف، درسوا حياة النبي ﷺ دراسة عميقة، فأحبه بعضهم، وآمن به بعضهم الآخر، ولكن تضيع أصواتهم داخل صناعة ضخمة تمولها المخططات الصهيونية الصليبية في الغرب، هي صناعة الكراهية والعداء للإسلام ونبيه والمسلمين[2].

سبيل المواجهة:

لا شك أن شخصية النبي ﷺ قد تعرَّضت إلى كم هائل من الافتراءات الظالمة والأكاذيب الباطلة التي اختلقها أعداؤه ظلمًا وزورًا، بل نستطيع أن نقول في ثقة تامة: إنه لا توجد شخصية في التاريخ الإنساني منذ أن خلق الله ﷻ آدم ﷺ إلى اليوم قد أثيرت حولها افتراءات وأكاذيب كما حدث مع شخصية نبي الإسلام محمد ﷺ، ولا دينٌ تعرَّض للتهم الزائفة كما تعرض لها دينه، ولا عجب في هذا، فهذا شأن الأنبياء جميعًا على تفاوت بينهم: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (يس).

ولا شك كذلك أن التعرُّض بالإساءة لشخصية النبي ﷺ يثير حفيظة كل مسلم متدينًا كان أو غير متدين، يلاحظ هذا المسلمون وغيرهم. يقول الأستاذ ولفرد كانتويل سميث (مدرِّس التاريخ الإسلامي بجامعة عليكرة بالهند): "إن الشخصية النبوية هي مدار العقيدة حيث يلتمس المسلم في العصر الحاضر مثلًا أعلى لمسلكه وأدبه وقواعد خلقه، وإن المساس بالنبي ﷺ يثير المسلم أشد من ثورته على من يمسُّ الربوبية، ولا يُقصد بذلك أن مقام النبوة أعظم عنده من مقام الإله، فهذا ممتنع كل الامتناع، ولكنه قد تعوَّد أن يسمع بالملحدين المنكرين لوجود الإله، ولم يتعود أن يواجهه أحد بالقدح في نبيه، ولو لم يكن من المتدينين بدينه" [3].

لذلك فالطعن في شخصية النبي ﷺ يمسُّ أكثر من مليار مسلم، بل يمسُّ كل من يؤمن بالأنبياء والرسالات

---

١. السنة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

٢. الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدِّي، دار الكتاب العربي، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٣ بتصرف.

٣. الإسلام في القرن العشرين: حاضره ومستقبله، عباس محمود العقاد، نهضة مصر، القاهرة، د. ت، ص١٠٦، ١٠٧.

الإلهية، بل كل إنسان يبحث عن الحق لكونه الحق.

لهذا وجب التَّصدِّي لمثل هذه الموجات الظالمة من الشبهات والافتراءات والأباطيل والأكاذيب التي أُثيرت حول شخصية النبي ﷺ وتفنيدها، وإظهار وجه الحق فيها دون تعصُّب أو مجاملة.

دفاع الله ﷻ عن نبيه محمد ﷺ:

أثار المشركون وأهل الكتاب تُهمًا وافتراءات عديدة حول سيدنا محمد ﷺ؛ قصدًا لصرف الناس عنه وعن دعوته، وقد تولَّى الحق سبحانه ردَّ هذه التهم والدفاع عنه ﷺ.

وفيما يلي نعرض بعض النماذج لهذا:

١. قالوا: إنه شاعر: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾ (الأنبياء: ٥).

ورد عليهم الحق: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (يس)، وبقوله: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الصافات)، وبقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (الطور).

٢. وقالوا: إنه كاهن، مع علمهم بأن الرسول يسبُّ الشياطين، فكيف يتعاونون معه، وينزلون عليه شيئًا وهم محجوبون عن ذلك!

ودافع عنه الحق: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (الحاقة)، وقال له الحق: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ (الطور)، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ (الشعراء).

٣. وقالوا: إنه ساحر. وقالوا: إنه مسحور.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ (الذاريات)، وقال تعالى: ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ (الفرقان).

٤. وقالوا: إنه مجنون.

ورد عليهم الحق سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾ (الأعراف)، وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (المؤمنون)، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ (سبأ: ٤٦)، وقوله تعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم).

٥. وتعجبوا من أن تكون الرسالة لمحمد اليتيم الفقير، فالأولى ـ في نظرهم ـ أن تكون لأحد أشراف مكة أو الطائف الأغنياء: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ (الزخرف).

فرد عليهم الحق: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الزخرف).

٦. وينكرون رسالته: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ (الرعد: ٤٣).

ويرد عليهم: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ (الرعد)، ويقول: ﴿يس ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (يس).

٧. ويعترضون على أكله الطعام، ومشيه في الأسواق، وتزوجه بالنساء: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٧).

ويرد عليهم الحق سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٢٠)، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (الرعد: ٣٨)، ويقول تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ (الأحزاب).

أي: ليس عليه حرج فيما أباح له تعالى من الزوجات، فهذه سنة الله في الأنبياء السابقين من التوسعة عليهم في النكاح؛ كداود وسليمان عليهما السلام.

٨. وكان المشركون إذا سمعوا من رسول الله ﷺ الأخبار الماضية والمستقبلية، قالوا: إن محمدًا يتعلمها من جبر الرومي النصراني غلام الفاكه بن المغيرة الذي يجلس مع محمد بعدما أسلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٣).

فرد الله عليهم: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (النحل)، وقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت).

٩. وقال المشركون: لو كان رسولًا لأتى بما نطلبه من الآيات الخارقة، ولجاء بالله والملائكة معه: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾﴾ (الحجر)، ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ (الإسراء).

ويرد عليهم الحق: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ (الإسراء)، ويقول سبحانه: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ

﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (الحجر)، ويقول تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الرعد)، ويقول سبحانه: ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحجر)، ويقول تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ (الأنعام).

١٠. واعترضوا على نزول القرآن مُفرَّقًا، ولم ينزل كاملًا كالكتب السابقة: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (الفرقان: ٣٢).

ويرد عليهم الحق مبينًا حكمة تفريقه: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ (الفرقان)، ويقول: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾ (الإسراء).

١١. واتهمه المنافقون بأنه يسمع كثيرًا، ويصدق كل ما يقال دون تمييز بين الخير وغيره.

دافع عنه الحق، وتوعدهم بالعذاب الأليم، فقال تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ (التوبة).

١٢. ولما مات القاسم ابنه ﷺ قال المشركون: إن محمدًا أبتر لا عقب له؛ أي: لا نسل له، فإذا هلك انقطع ذكره.

فدافع عنه ربه وقال تعالى له: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾ ﴾ (الكوثر).

تعظيم الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ:

أولًا: زكَّى الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ جملة فقال: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾ (النجم)، وزكى كلامه فقال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم)، وزكى مُعلِّمه فقال: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ (النجم)، وزكى قلبه فقال: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ ﴾ (النجم)، وزكى بصره فقال: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ (النجم)، وزكى خلقه فقال له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم)، فزكاه جملة وتفصيلًا، وما فعل ذلك لنبي غيره.

ثانيًا: لم يناده الحق إلا باللقب الدال على تعظيمه؛ مثل قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ (الأنفال: ٦٤)، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ (المائدة: ٤١)، بينما نادى غيره من الرسل والأنبياء بأسمائهم مجردة، مثل: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (البقرة: ٣٥)، ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ (هود: ٤٦)، ﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ﴾ (هود: ٧٦)، ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ (القصص: ٣١)، ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً ﴾ (ص: ٢٦)، ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ﴾ (مريم: ١٢)، ﴿ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ (آل عمران: ٥٥).

ونهى الأمة أن تناديه باسمه كما كانت الأمم تنادي أنبياءهم بأسمائهم: ﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا ﴾ (هود: ٣٢)، ﴿ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ (هود: ٥٣)، ﴿ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾ (الأعراف: ١٣٨)،

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ (هود: ٩١).

فلما ناداه بعض المسلمين باسمه المجرد (يا محمد) أو بكنيته (يا أبا القاسم) نهاهم الحق بقوله: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ ﴾ (النور: ٦٣).

ثالثًا: أخبر تعالى أنه قد شرح له صدره، ووسعه ليشمل علم الأولين والآخرين، ووضع له وزره، بأن خفَّف عليه ثقل أعباء النبوة، ورفع ذِكره، فبشَّر به في الكتب السابقة، وأخذ العهد والميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا به وينصروه إن ظهر في زمانهم، فقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ (آل عمران)، وقرن اسمه باسمه في الشهادتين عند دخول الإسلام، وفي الأذان والإقامة، والتشهد في الصلاة، وفي خطب الجمعة والعيدين، فقال تعالى: ﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴿٤﴾ ﴾ (الشرح).

رابعًا: أخبر تعالى أنه وملائكته يصلون عليه، وأمر المؤمنين بالصلاة عليه، وجعلها قربة يتقربون بها إليه، قال تعالى: ﴿ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الزخرف)، والتعبير بالمضارع (يصلون) يدل على التجدد والاستمرار.

خامسًا: أقسم بحياته ﷺ ولم يقسم بحياة أحد من خلقه، فقال: ﴿ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (الحجر)؛ أي: وحياتك يا محمد إنهم لفي ضلالهم يتحيرون، ولا يرون الرشد والحق، وكما أقسم بحياته أقسم ببلده: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ ﴾ (البلد)، وكما أقسم به وببلده أقسم له: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ ﴾ (الضحى).

سادسًا: نهى عن التقدم بين يديه - ويدخل فيه تقديم الرأي على ما صح من حديثه - ورفع الصوت عليه - ويدخل فيه رفع الصوت على حديثه الذي يقرأ - وحرَّم الجهر بالكلام عند مناجاته، وأوعد من لم يتأدَّب معه ببطلان ثواب عمله ووصفه بعدم العقل.

وهذه التوجيهات عامة تشمل حياته، وعند زيارته بعد موته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (الحجرات).

روى القاضي عياض عن ابن حميد قال: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكًا في مسجد رسول الله ﷺ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدَّب قومًا فقال: ﴿ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ الآية، ومدح قومًا فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ الآية، وذمَّ قومًا فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ ﴾

الآية، وإن حُرمته ميتًا كحرمته حيًّا.

فاستكان لها أبو جعفر وقال: يا أبا عبد الله، أأستقبل القبلة وأدعو، أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولِمَ تصرف وجهك عنه، وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله تعالى يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟﴾ (النساء: ٦٤) الآية[1].

ومعلوم أن هذه الآية عامة، والعام يبقى على عمومه إلى أن يرد دليل التخصيص، ولا مخصص لها.

سابعًا: نفى الإيمان عمن لم يذعن لحكمه ﷺ، ويستسلم لقضائه استسلامًا تامًّا، لا يبقى معه أدنى حرج في نفسه، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ (النساء)، وجعل طاعته ﷺ طاعة لله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء: ٨٠)، وجعل اتباعه طريق محبة الله وغفران الذنوب: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١)، وجعل مبايعته مبايعة لله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ (الفتح: ١٠).

ثامنًا: جعل وجوده بين الناس مانعًا من نزول العذاب بقومه رغم أنهم يستحقونه لكفرهم وعنادهم تكريمًا له ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (الأنفال)، وتكفَّل بحفظه وعصمته: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (الطور: ٤٨)، ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ (الحجر)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (المائدة).

تاسعًا: جعل زوجاته - رضي الله عنهن - مؤمنات، ولسنَ كافرات كما كان لبعض الأنبياء؛ مثل نوح ولوط، وجعلهن أمهات للمؤمنين، فقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ (الأحزاب: ٦)، وفرض عليهن الحجاب صيانة له ولهن، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ (الأحزاب: ٥٣)، ولم يوجب عليه القسم بينهن، وإنما خيَّره فيه، فقال تعالى: ﴿تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ (الأحزاب: ٥١)، وأباح له نكاح النساء بلفظ الهبة دون صداق، ولم يفعله ﷺ، فقال: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأحزاب: ٥٠)، وحرَّم على المسلمين نكاح زوجاته من بعده، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾﴾ (الأحزاب)، وطهَّر ذُرِّيته ﷺ، فقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب).

---

١. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، ٢/ ٣٣.

عاشرًا: جعل أمته أمة وسطًا خيارًا عدولًا، شهودًا على الأمم السابقة أن رسلهم بلغوهم الرسالة، وجعله شهيدًا على هذه الأمة، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾ (البروج)، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الشاهد محمد ﷺ، والمشهود يوم القيامة[1].

نبينا ﷺ أفضل الخلق:

وبعدُ، فهذه عشرة أمور مما جاء في تعظيم الله تعالى لنبيه محمد ﷺ، وقد أجمعت الأمة على أفضليته على كل الأنبياء وجميع المخلوقات، ولا يتعارض ذلك مع قوله ﷺ: "لا تفضلوا بين أنبياء الله"[2] لأمور نذكرها فيما يلي:

الأمر الأول: أن مبدأ التفضيل ثبت بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖ ﴾ (البقرة: ٢٥٣)، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ (الإسراء: ٥٥).

الأمر الثاني: أن المنهي عنه التفضيل الذي تدعو إليه المعصية والهوى، أو الانتقاص من شأن المفضول، أما إذا كان على وجه إظهار الحق ومعرفة القدرة فهو جائز توفيقًا بين النصوص.

تأمَّل ما رواه الإمام مسلم: عن أبي هريرة قال: "بينما يهودي يعرض سلعة له أعطى بها شيئًا كرهه ـ أو لم يرضه ـ قال: لا والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، قال: فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه، قال: تقول: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر ورسول الله ﷺ بين أظهرنا! قال: فذهب اليهودي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا أبا القاسم، إن لي ذِمَّة وعهدًا، وقال: فلان لطم وجهي، فقال رسول الله ﷺ: لِـمَ لطمت وجهه؟ قال: قال يا رسول الله: والذي اصطفى موسى عليه السلام على البشر، وأنت بين أظهرنا، قال: فغضب رسول الله ﷺ حتى عُرِفَ الغضب على وجهه، ثم قال: لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه يُنفخ في الصور، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله، قال: ثم يُنفخ فيه أخرى، فأكون أول من بُعِث ـ أو في أول من بعث ـ فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش، فلا أدري أَحُوسب بصعقته يوم الطور، أو بُعث قبلي، ولا أقول: إن أحدًا أفضل من يونس بن متى عليه السلام"[3].

الأمر الثالث: ما ورد من أحاديث نبوية يُفهم منها تفضيل بعض الأنبياء على سيدنا محمد ﷺ إنما هو من باب تواضعه ﷺ، وذلك مثل ما رواه مسلم عن أنس بن مالك قال: "جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ: ذاك إبراهيم عليه السلام"[4]، فهذا من تواضعه، والتواضع لا يحط من درجة الكبير، بل يزيده رفعة وجلالًا،

---

١. أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير، باب: تفسير سورة البروج، (١٠/ ٣٣٢)، رقم (١١٥٩٩).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾، (٦/ ٥١٩)، رقم (٣٤١٤).

٣. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾، (٦/ ٥١٩)، رقم (٣٤١٤).

٤. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل، (٨/ ٣٤٩٢)، رقم (٦٠٢٣).

وأيضًا من باب الأدب واحترام وتقدير الأبوة.

ومثل ما رواه عن أبي هريرة قال: "قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألوني؟ خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا"[1].

ومثل ما رواه أيضًا عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "نحن أحقُّ بالشك من إبراهيم، إذ قال: ربي أرني كيف تحيي الموتى، قال: أولم تؤمن؟! قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي، ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن طول لبْث يوسف لأجبت الداعي"[2].

فهو ﷺ يرد على الصحابة الذين قالوا عند نزول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠)، قالوا: إن إبراهيم شك ونبينا لم يشك.

وقالوا عند نزول قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ (هود)، قالوا: إن لوطًا تمنى العشيرة التي يعتمد عليها، ونبينا لم يعتمد إلا على الله.

وقالوا: عندما نزل على لسان يوسف: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ (يوسف: ٤٢)؛ أي: مليكك، قالوا: يوسف يسأل الملك، ونبينا لم يسأل إلا الله.

ودفعه تواضعه ﷺ إلى الرد على الصحابة؛ فإبراهيم عليه السلام لم يشك في وقوع البعث، فهو مؤمن به يقينًا، والسؤال بكيف يكون عن حال الشيء الموجود المعتقد صحته الذي يشتاق القلب إلى رؤية كيفيته، والمراد بالشك الخواطر التي تعرض للقلب ولا تدوم، وقال بعض العلماء: إن صيغة أفعل (أحق) تأتي لنفي المعنى عن الشيئين، مثل: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ (الدخان: ٣٧)؛ أي: لا خير فيهما، فقوله ﷺ: "نحن أحق بالشك من إبراهيم"؛ أي: لا شك عندنا ولا عند إبراهيم[3].

ولوط عليه السلام كان يأوي إلى ركن شديد، وهو الله تعالى، تمامًا كما يأوي إليه نبينا ﷺ.

ويوسف عليه السلام لم يكن معتمدًا إلا على الله، بدليل أنه لم يسارع بالخروج من السجن عندما جاءه رسول الملك رغم طول السجن وبؤسه، وإنما كان مثالًا للصبر والرضا بالقضاء، فلم يخرج حتى ثبتت براءته.

وهكذا كان تواضع نبينا ودفاعه عن إخوانه الأنبياء عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

---

١. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، (٦/ ٤٤٦)، رقم (٣٣٥٣).

٢. صحيح البخاري (بشرح فتح الباري)، كتاب: الأنبياء، باب: قوله ﷻ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾، (٦/ ٤٧٣)، رقم (٣٣٧٢).

٣. أي: ليس المراد الشك الاصطلاحي، وعلى فرضه فالمعنى: نحن أحق بالشك من إبراهيم لو أنه شك، لكنه لم يشك، فلسنا أحق بالشك منه، قياس استثنائي اتصالي فيه نفي للتالي فينتفي المتقدم.

الأمر الرابع: ما جاء على لسان نبينا ﷺ من بيان قدره الذي حباه به ربه ليس من الفخر المذموم المنهي عنه، بل هو بعض ما وجب عليه تبليغه لنا من الوحي لنعرف قدره، حيث إنه لا نبي بعده يخبرنا بقدره، فتعين عليه أن يخبرنا به، كما أخبرنا عن منزلة الأنبياء السابقين.

ومثال ذلك قوله ﷺ: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"[1].

وقوله ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مُشفَّع"[2]. وفي رواية للإمام أحمد قال ﷺ: "أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع يوم القيامة ولا فخر"[3].

والسيد: هو الذي يفوق قومه في الخير، ويُفزَع إليه في النوائب والشدائد فيقوم بأمرهم، ويتحمل عنهم مكارههم ويدفعها عنهم.

وتأمل أدب البنوة مع الأبوة في قوله: "سيد ولد آدم"، ولم يقل: سيد آدم وولده، مع أن الله فضله على أبيه آدم، وإنما خُصَّ يوم القيامة مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة؛ لأنه في هذا اليوم تظهر عظمته لكل الخلق، لا ينازعه فيها أحد، بخلاف الدنيا، فقد نازعه فيها ملوك الكفر وزعماء الشرك، وهذا شبيه بقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ (غافر)، مع أن الملك له قبل ذلك.

وجاء هذا العمل (النبي ﷺ في مواجهة الشبهات) ضمن مشروع "**بيان الإسلام: الرد على الافتراءات والشبهات**" للرد على مثل هذه الافتراءات التي تمسُّ أعظم شخصية عرفتها الإنسانية، لا بالنسبة للعظماء من البشر فقط، بل بالنسبة للأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ كذلك، ونحن لا نزعم أن هذا العمل هو الفريد من نوعه في التصدِّي للشبهات المثارة حول شخصية النبي ﷺ بل هو حلقة في سلسلة طويلة من المؤلفات التي تدافع عن النبي ﷺ، وإن كان هذا العمل يتَّسم بالشمول، وجمع الجهود المتناثرة في إطار منهجي يجمعها، وقد اعتمدنا في هذا العمل على القرآن الكريم الذي يحوي بين طياته كثيرًا من الآيات التي تولَّت الرد على ما أُثير من طعون وشبهات حول النبي ﷺ من معاصريه، وكتب التفاسير؛ القديم منها والحديث، وكتب السنة النبوية المطهرة وشروحها، والتي لم نعتمد منها إلا الحديث الصحيح أو على الأقل الحسن، كما اعتمدنا على كتب السيرة النبوية وكتب الشمائل؛ القديم منها والحديث، وكذلك الكتب التي تولَّت الدفاع عن النبي ﷺ، كما اعتمدنا على كتب المنصفين للإسلام ونبيه ﷺ من غير المسلمين، شرقيين كانوا أم غربيين، وغير ذلك من كتب كبار المفكرين المسلمين على اختلاف مشاربهم.

---

١. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفضائل، باب: فضل نسب النبي، (٨/ ٣٤١٠)، رقم (٥٨٢٨).

٢. صحيح مسلم (بشرح النووي)، كتاب: الفضائل، باب: تفضيل نبينا على جميع الخلائق، (٨/ ٣٤١١)، رقم (٥٨٣٠).

٣. أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي سعيد الخدري، رقم (١٠٩٨٧).

هذا، وقد تم إخراج هذا العمل في ثلاثة مجلدات، تشتمل على ستة أجزاء، بالإضافة إلى مجلد للفهارس، رُتِّبت الشبهات فيها ترتيبًا موضوعيًّا، هي:

المجلد الأول: الجزء الأول: شبهات حول حياة النبي ﷺ الخاصة.

الجزء الثاني: شبهات حول أخلاقه ﷺ.

المجلد الثاني: الجزء الثالث: شبهات حول عقيدته ﷺ وعصمته ومعجزاته.

الجزء الرابع: شبهات حول دعوته ﷺ وتبليغه الوحي.

المجلد الثالث: الجزء الخامس: شبهات حول نبوته ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب.

الجزء السادس: شبهات حول تشريعاته ﷺ وسياسته وجهاده.

المجلد الرابع: الجزء السابع: فهارس.

وفي الختام، فإننا لا نملك إلا أن نقول: إن هذا العمل هو أقل ما يمكن أن يقدَّم لنبي الرحمة ورسول الإنسانية محمد ﷺ أعظم خلق الله قاطبة، رحمة الله للعالمين، الذي أخرج به الله ﷻ العالم من براثن الوثنية، وظلمات الجهل إلى عظمة التوحيد ونور العلم، إننا لا يسعنا أن نثني عليه كما ينبغي؛ لأن هذا الأمر ليس بمقدور البشر، وحسبنا ثناء ربه عليه وشهادته له، وكفى بالله شهيدًا في قوله ﷻ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ (الجمعة).



مُقَدِّمَة

لا نعلم رجلًا في التاريخ ـ منذ أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى هذا اليوم ـ قد نُقلت لنا تفاصيل حياته، ودقائق تصرفاته كما نُقلت تفاصيل حياة رسول الله ﷺ، وكذلك لا نعلم سيرة رجل قد نقِّحت وحقِّقت ومحِّصت كما فُعِل بسيرة النبي ﷺ.

فقد انفرد محمد ﷺ من بين الأنبياء والرسل بأن معاصريه قد وقفوا على جميع خِلاله وأخلاقه، الخاصة والعامة، فلم يتركوا حدثًا من أحداث حياته، ولا فعلًا من أفعاله، ولا قولًا من أقواله، دقَّ أو جَلَّ إلا نقلوه عنه، حتى إنهم وصفوا يقظته ونومه، كما وصفوا حديثه وصمته، وقيامه وجلوسه، وجميع شمائله، ثم تناقلها الناس جيلًا بعد جيل، واضحة لا خفاء فيها ولا لبس، وأودعوها بطون الكتب. فمحمد ﷺ هو الرسول التاريخي بالمعنى الصحيح؛ لأن سيرته ﷺ من مولده إلى مماته ثابتة ثبوتًا لا مرية فيه، فجميع أعماله مدوَّنة، وكل أحاديثه مسطورة، شاملة لما يحتاج إليه بنو البشر في معاشهم ومعادهم، وأعماله مصدقة لأقواله، لا تناقض فيها ولا تضارب، وهي فوق ذلك نبراس لبني الإنسان يستضيئون به على مر الدهور والأزمان.

وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن محمدًا ﷺ رسول الله حقًّا، فما كان لمدَّعٍ أن تلقَى حياته كل هذا الحب والتعظيم والاهتمام والعناية، كما يدلُّ على أن رسالته ﷺ خاتمة الرسالات وأحقها بالخلود، وأبقاها على الزمان.

والمتأمل في حياة النبي ﷺ ـ الخاصة والعامة ـ يجدها قد جرت على قوانين الكون المعتادة، فلم تخرج في جملتها عن هذه السنن القائمة الدائمة، فهو ـ من حيث إنه بشر ـ يجوع ويشبع، ويصحُّ ويمرض، ويتعب ويستريح، ويحزن ويُسرُّ.

لقد كان ﷺ خير مثال للكمال الإنساني، يقول الشيخ محمد الغزالي: "ما كان محمد ﷺ رجل خيال يتيه في مذاهبه ثم يبني حياته ودعوته على الخرافة، بل كان رجل حقائق يبصر بعيدها كما يبصر قريبها، فإذا أراد شيئًا هيَّأ له أسبابه، وبذل في تهيئتها ـ على ضوء الواقع ـ أقصى ما في طاقته من حذر وجهد، وما فكر قطُّ أن السماء تسعى له حيث يقعد، أو تنشط له حيث يكسل، أو تحتاط له حيث يفرِّط، بل تعب ﷺ أكثر من غيره، وتحمل في سبيل دعوته المغارم الباهظة".

ولا شك أن كل هذا كان بأمر الله تعالى وقدره، لأنه ﷻ قد شاء أن يكون محمد ﷺ هو القدوة للبشرية كلها، وأن تكون سيرته دينًا يلتزم به المؤمنون، يقول ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب: ٢١).

لكن على الرغم من وضوح هذه الحقائق التي ذكرناها آنفًا عن حياته ﷺ والتي لا ينكرها منصف؛ مسلمًا كان أو غير مسلم، وجدنا أن أحداث حياة النبي ﷺ لم تسلم من الهجمات المغرضة والحملات الظالمة من الأباطيل والافتراءات التي يسنُّ أصحابها أقلامهم المسمومة للطعن في كل صورة مشرقة من حياته ﷺ لطمس معالمها، فذهبوا إلى التشكيك في كل ما هو ثابت متواتر من أحداث حياته ﷺ قبل البعثة وبعدها، واتخذوا من زواجه ﷺ مطيَّة للقول بشهوانيته، وميله الجامح نحو النساء.

وهم في تشكيكهم هذا لا يبغون سوى صد الناس عن دعوته، وإبعاد المسلمين بكل الطرق، وشتى الوسائل عن هدي نبيهم ﷺ، لتحقيق أهدافهم في السيطرة على هذه الأمة.

ومن ثم جاء هذا الجزء للرد على ما أُثير من شبهات حول حياة النبي ﷺ الخاصة، وقد تم تقسيم هذه الشبهات إلى محورين:

الأول: شبهات تدور حول نسبه ومولده ونشأته ﷺ مثل: إنكار انتسابه ﷺ لإسماعيل عليه السلام، ودعوى أنه ﷺ كان مجهول النسب، والتشكيك في تاريخ ميلاده وأحداث حياته قبل البعثة، وإنكار حادثه شق صدره الشريف ﷺ... إلخ.

الآخر: شبهات تدور حول زواجه ﷺ مثل: الزعم أنه كان مزواجًا شديد الميل للنساء، واستنكار زواجه من السيدة عائشة وهي صغيرة السن، واستنكار زواجه من السيدة زينب بنت عمته، مطلقة من كان ابنه بالتبني - زيد بن حارثة - .... إلخ.

هذا وقد أكدنا من خلال معالجة هذه الشبهات وكشف زيفها على عدة حقائق منها:

- لقد حَبَى الله تعالى نبيه ﷺ بأشرف نسب وأذكاه وأخلصه من الشوائب، فقد كان من سلالة آباء كرام كلهم سادة وقادة، ولهم مكان مكين، ومقام عظيم بين العرب، ويكفيه أن نسبه ينتهي إلى الذبيح إسماعيل، وإبراهيم خليل الرحمن - عليهما السلام.
- حياة النبي ﷺ من مولده حتى بعثته معروفة التفاصيل، وقد نقلها الرواة وكتّاب السِّيَر بطرق صحيحة.
- لقد كانت حياة النبي ﷺ قبل البعثة حياة فاضلة شريفة، لم تُعرف له فيها هفوة، ولم تحصَ عليه زلة، وهذا دليل على عناية الله به وحفظه له.
- كذلك كانت نظرة النبي ﷺ للمرأة تقوم على أساس من احترام آدميتها والبر بها، وجبر خاطرها وصيانتها عن الامتهان والضياع؛ لهذا ظلل ﷺ بجناح رحمته إحدى عشرة زوجة، ما كان دافعه إلى الارتباط بهن إلا لأغراض إنسانية سامية وحكم تشريعية نبيلة، وليس بدافع من إشباع شهوة كما يزعمون.
- لقد ضرب لنا ﷺ المثل في جوانب الحياة الأسرية كافة؛ فاكتملت في شخصه ﷺ كل صور القدوة، فقد تزوج الثيب والبكر، والأرملة والمطلقة، والحرة والأمة المعتقة، والصغيرة والكبيرة، لقد كان ﷺ خير قدوة زوجًا وأبًا، قولًا وعملًا.

وختامًا؛ فإن الحديث عن حياة النبي ﷺ الخاصة هو في حقيقته حديث عن منهج حياة للفرد والمجتمع المسلم، وعن معين رائق لفهم الإسلام، وعن نموذج حي لتطبيق تعاليمه إنها أفضل حياة شهدتها البشرية، إنها حياة أفضل خلق الله ﷺ وخاتم رسله - عليهم السلام.



الشبهة الأولى

ادعاء أن محمدًا ﷺ كان أسطورة خرافية لا شخصية حقيقية (*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض الأدعياء وجود شخصية النبي محمد ﷺ، زاعمين أنه خرافة اختلقها خيال طائفة من كُتَّاب السِّير؛ أما التاريخ العام فلا يعرف رسولًا اسمه محمد.

هادفين من وراء ذلك إلى إنكار وجوده ﷺ بوصفه حقيقة تاريخية ثابتة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إن الأدلة على وجود محمد ﷺ ثابتة في التوراة والإنجيل فقد أخبرتا بصفاته الخُلُقية والخِلْقية، كما بشرتا بمولده ووقت مبعثه، وصفة بلده وقومه، وقد عرف هذه الصفات طائفة من ملوك وعلماء أهل الكتاب فأقرَّت بنبوته بعد تيقنهم أنها لا تنطبق على أحد غيره.

٢) يمثِّل القرآن الكريم الذي بُعِث به رسول الله ﷺ إلى جانب غيره من معجزاته ﷺ الأخرى دليلًا حسيًّا ليس على وجوده فحسب، بل على صدق نبوته وبعثته كذلك.

٣) السيرة النبوية التي دُوِّنت فيها تفصيلات حياته ﷺ على وجه لم يُعهد عند أحد من عظماء التاريخ تُعدُّ دليلًا حسِّيًّا - أيضًا - على وجود صاحبها.

التفصيل:

أولا. شهادة الملوك والأحبار والرهبان بنبوته ﷺ وذكره في التوراة والإنجيل بصفاته الخِلقية والخُلقية دليل وجوده ﷺ:

لقد أخبر الله ﷻ في القرآن الكريم أنه بشَّر بالنبي محمد ﷺ في كتبه السماوية، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ (البقرة). وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ (البقرة).

يقول الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار: "إنهم يعرفون النبي ﷺ لما في كتبهم من البشارة به، ومن نعوته وصفاته التي لا تنطبق على غيره، وبما ظهر من آياته وآثار هدايته، كما يعرفون أبناءهم الذين يتولُّون تربيتهم، حتى لا يفوتهم من أمرهم شيء"[1].

ثم إن الذين اطلعوا على التوراة يعترفون بأن صفة رسول الله ﷺ ثابتة فيها، وأنها تنطبق عليه تمامًا، لذا سارعوا للدخول في الإسلام، كأمثال: عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار وغيرهما كثير.

ويُروَى أن عمر ﷺ سأل عبد الله بن سلام عن رسول الله ﷺ فقال: أنا أعلم به مني بابني، قال: ولِـمَ؟ قال: لأني لست أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي، فلعل أمه خانت، فقبَّل عمر رأسه، وذلك مصداقًا

(*) افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

١. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ط٢، ج٢، ص٢٠.

لقوله ﷻ: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (الأعراف: ١٥٧). وهذا يؤكد أن صفات النبي محمد ﷺ ثابتة في التوراة والإنجيل. ولنتأمل بعض الأدلة على وجوده والتبشير به ﷺ في التوراة والإنجيل.

١. محمد ﷺ في التوراة:

لقد تنبأ موسى عليه السلام ببعث الرسول الكريم في عدة مواضع من التوراة، ففي سفر التثنية: "يقيم الرب إلهك نبيًّا من وسطك من إخوتك مثلي، له تسمعون. قال لي الرب: قد أحسنوا فيما تكلموا. أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به". (التثنية ١٨: ١٥ـ ١٨).

ويشاء الله أن يجعل الأمر لبني إسرائيل طلسمًا حتى لا يحرِّفوا الكلم عن مواضعه، فيظهر الحق، ويزهق الباطل، ويحرصوا على حماية وجود البشارة بنبينا محمد ﷺ وهم لا يدرون، وينتظروا الرسول الكريم ﷺ، ولكنهم كانوا يظنون أنه سُيبعث من بني إسرائيل، فلما بُعث محمد ﷺ من العرب خاب رجاؤهم وقابلوه بعدوان، كأنه اغتصب منهم النبوة والكتاب والملك[1].

ويبيِّن النص أن الله ﷻ سيبعث نبيًّا من وسط إخوة بني إسرائيل، لا من بني إسرائيل أنفسهم؛ لأنه لو كان المراد أنه سيبعث من بني إسرائيل لقال: "منهم" بدلًا من قوله: "من وسط إخوتهم"، إذن فالنبي الذي سيبعث من إخوة بني إسرائيل هو من بني إسماعيل، تحقيقًا لوعد الله إبراهيم عليه السلام بالبركة في نسل إسماعيل عليه السلام، ومعلوم أن نبينا من نسل قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم، ويبين النص أن النبي المبعوث مثل موسى عليه السلام في قوله "مثلك"، ومعلوم أن النبي محمد ﷺ مماثل لموسى عليه السلام في كثير من الأمور، من أهمها: أنه أتى بشريعة ذات أحكام وفرائض، وأنه مأمور بالجهاد وبالطهارة للصلاة، قال ﷻ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) ﴾ (المزمل)، ويبين النص أيضًا أن النبي المبعوث أمي يحفظ ما يسمع لقوله: "أجعل كلامي في فمه"، ومعلوم أن النبي محمدًا ﷺ كان كذلك[2]، وذلك مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾ (القيامة)، "أي: إذا قرأه عليك جبريل عليه السلام، فأنصت لاستماعه، فإن علينا أن نجمعه في صدرك يا محمد، وأن تحفظه، وأن نُبيِّنَهُ بلسانك"[3].

وورد في سفر إشعياء: "لأنه يولد لنا ولد ونُعْطَى ابنًا وتكون الرياسة على كتفه ويُدْعَى اسمه عجيبًا". (إشعياء ٩: ٦). وفي نسخة قديمة: "على كتفه علامة النبوة"، يشير هذا النص إلى أخص الصفات الخاصة بنبينا محمد ﷺ وهي الشامة التي خلقها الله على كتفه كعلامة واضحة على نبوته، فهذه بشارة واضحة بالنبي محمد ﷺ الذي وُجد على كتفه خاتم النبوة ورآه الكثير

---

١. محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد، دار المنار، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٦٧، ٦٨ بتصرف.

٢. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٥٦، ٥٧ بتصرف.

٣. صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، د. ت، ج٣، ص١٦٥١.

من الصحابة، ولم يُنقل عن أحد من الأنبياء مثل ذلك، لا سليمان ولا عيسى. جاء عن السائب بن يزيد قال: "ذهبت بي خالتي إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن ابن أختي وَجِعٌ، فمسح رأسي ودعا لي بالبركة، ثم توضأ فشربت من وضوئه، ثم قمت خلف ظهره، فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه مثل زرِّ الحَجَلَة"[1][2]؛ وقوله "يدعى اسمه عجيبًا" أي: لم يعهده بنو إسرائيل، فإن قومه أصابهم العجب عندما سَمَّاه جده محمدًا؛ لأنه لم يكن مألوفًا عندهم أيضًا[3].

٢. محمد ﷺ في الإنجيل:

جاء في إنجيل متى: "قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب: الحجر الذي رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية، من قِبَل الرب كان هذا. وهو عجيب في أعيننا، لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله يُنزع منكم، ويُعطى لأمة تعمل أثماره". (متى ٢١: ٤٢، ٤٣) وقد قال النبي محمد ﷺ: "مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بَنَى دارًا فأتمها وأكملها، إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولا موضع اللبنة"، قال رسول الله ﷺ: "فأنا موضع اللبنة، جئت فختمت الأنبياء"[4].

صدق رسول الله ﷺ الذي يؤيده القدير بقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (الحاقة)[5]، وبالتالي فالمقصود بالحجر الرسول ﷺ، وهو مجاز عنه ﷺ، فهو خاتم النبيين وآخر المرسلين.

ومن خلال نصوص الكتب المقدسة نستطيع أن نضع صورة كاملة لنبينا محمد ﷺ، ذلك النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، هذا الرسول بدا شامخًا بشيمه الشمَّاء وهي من شقين:

- **أنه الرسول النبي الخاتم ولا نبي بعده.**
- **أنه رسول الله للعالمين كافة للأسباب الآتية:**
  - لأنه متمكن ورحيم.
  - لأنه مؤسس لأمة على الحق والبر.
  - لأنه بفضل الله نور للأمم.
  - لأنه وثيق الصلة بسلالة قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام.
  - لأنه يتلقى الوحي من الله ﷻ[6].

هذه النصوص المذكورة في التوراة والإنجيل ناطقة برسالة محمد ﷺ، وتدلل على وجوده، وأنه لم يكن وهمًا أو خيالًا كما يزعمون.

٣. شهادة الرهبان والأحبار والملوك بنبوته:

تواترت الأخبار بأن كثيرًا من الرهبان شهدوا للرسول ﷺ أنه النبي المنتظر المنعوت في كتبهم قبل أن يُبعث، ومن أمثال ذلك: بحيرا الراهب الذي رآه وهو صغير مع أبي طالب، وقد كان متبحرًا في النصرانية،

---

١. الحَجَلَة: بيت كالقُبَّة يكون له أزرار كِبار.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب استعمال فضل وضوء الناس (١٨٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات خاتم النبوة وصفته ومحله من جسده (٦٢٣٣).

٣. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٦٨، ٦٩ بتصرف.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٣٣٤١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين (٦١٠٣)، واللفظ له.

٥. محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل، مرجع سابق، ص٧٣، ٧٤ بتصرف.

٦. المرجع السابق، ص٦١ بتصرف.

وقد عرف النبي ﷺ وأخبره برسالته مما اطلع عليه في الكتب المقدسة، ففيها أوصافه ﷺ وشيء من إرهاصاته[1] ومعجزاته[2]، وأخبر بحيرا أبا طالب بما رأى من علامات النبوة البادية على ابن أخيه ﷺ، وأمره بالحفاظ عليه وحذَّره من اليهود؛ لأنهم أعداء له.

ومنهم أيضًا نسطورا الراهب الذي أخبر ميسرة الغلام المرافق للرسول ﷺ في تجارة للسيدة خديجة - رضي الله عنها - أنه نبي بما عرف من صفاته. ومنذ بزوغ فجر الدعوة وإشراق شمسها شهد له ﷺ عالم من علماء النصرانية أنه النبي الموصوف في الإنجيل، ذلك العالم هو ورقة بن نوفل حينما ذهبت السيدة خديجة برسول الله إليه بعد نزول الوحي عليه[3].

ولما أخبره النبي ﷺ بما رأى من الوحي قال له ورقة: "هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا[4]، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك"، فقال رسول الله ﷺ: "أَوَمخرجيَّ هم"؟ قال: "نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودِي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزَّرًا"[5][6][7].

وقد أخبر أحبار اليهود جهارًا نهارًا عن قرب مبعث النبي ﷺ وانتظروه وذكروا اسمه صراحة، وحددوا الجهة التي سيبعث منها مما دفع من سمع ذلك منهم إلى الإيمان برسول الله ﷺ واتباعه[8].

وقال هرقل ملك الروم عندما استلم رسالة النبي ﷺ: "وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم"[9][10].

ويقصُّ لنا المغيرة بن شعبة خبر إسلامه وقد فرَّ من دعوة الحق، ويأبى الله عليه إلا أن يشرح صدره للإيمان بما يسمع من ملوك النصارى ورهبانهم وشهادتهم له أنه نبي صادق بشَّرت به كتبهم، قال له المقوقس ملك مصر في أمر نبينا ﷺ: هو نبي مرسل إلى الناس كافة ولو أصاب القبط والروم تبعوه، وقد أمرهم بذلك عيسى ابن مريم عليه السلام، وهذا الذي تصفون منه بُعث به الأنبياء من قبله، وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد، ويظهر دينه إلى منتهَى الخفِّ والحافر، ومنقطع البحور، ويوشك قومه يدافعونه بالرماح[11].

وقد شهد له النجاشي بأنه رسول رب العالمين، فكتب إليه قائلًا: "بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي أَصْحَمة، سلام عليك يا نبي الله

1. الإرهاص: الأمر الخارق للعادة يظهر للنبي قبل بعثته.
2. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص٤٨.
3. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٢٢ بتصرف يسير.
4. الجَذَع: الشاب القوي.
5. المؤزَّر: الشديد القوي.
6. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله (٤٢٢).
7. محمد رسول الله، محمد رضا، مرجع سابق، ص٦٠، ٦١.
8. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٣٩.
9. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).
10. تنزيه سيد الأنبياء عن مطاعن السفهاء، د. ياسر عبد القوي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٦م، ص٩٨ بتصرف.
11. الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، مرجع سابق، ص٤٤، ٤٥ بتصرف.

من الله وبركات الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد.. فقد بلغني كتابك فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تُفْرُوقًا[1]، إنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بُعثت به إلينا، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدَّقًا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين"[2].

أيعقل بعد كل هذه الشهادات والبشارات أن يكون النبي ﷺ أسطورة أو خرافة؟! لقد شهد الملوك والرهبان والأحبار بوجوده، وبأنه رسول الله وخاتم المرسلين، وأنه نبي آخر الزمان الذي بشَّرت به الكتب السماوية، والذي بشر به موسى وعيسى – عليهما السلام – وغيرهما من الأنبياء، وأمروهم باتباعه ونصرته. فكيف يدَّعي هؤلاء أن النبي ﷺ شخصية خرافية®؟!

ثانيًا. معجزة القرآن شاهدة على وجوده ﷺ:

إن وجود القرآن الكريم اليوم بين أيدينا لدليل قاطع على أن محمدًا ﷺ حقيقة وواقع، وعلى أنه كان موجودًا، وقد بلَّغ هذا القرآن للبشر عن رب العزة، ولا نعلم أحدًا على وجه البسيطة قام بهذا العمل إلا النبي ﷺ؛ وإن كان النبي ﷺ له معجزات كثيرة تشهد بأنه رسول من عند الله، إلا أن القرآن هو معجزته الخالدة.

قال رسول الله ﷺ: "ما من الأنبياء من نبي إلا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيت وحيًا أوحى الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة"[3].

قال الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث: "أي: إن معجزتي التي تحديت بها هي الوحي الذي أُنزِل عليَّ؛ لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، وليس المراد حصر المعجزات فيه، ولا أنه لم يؤتَ من المعجزات ما أُوتي مَنْ تَقَدَّمَه، بل المراد أنه المعجزة العظمى الخالدة التي اخْتُص بها دون غيره؛ ولأن كل نبي أُعطي معجزة خاصة به لم يعطها بعينها غيره تحدى بها قومه، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة لحال قومه، كما كان السحر فاشيًا عند فرعون، فجاء موسى عليه السلام بالعصا على صورة ما يصنع السحرة، ولكنها تلقفت ما صنعوا، وكذلك إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص؛ لكون الأطباء والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور، فأتاهم من جنس عملهم بما لم تصل قدرتهم إليه، ولهذا لمَّا كان العرب الذين بُعث فيهم نبينا ﷺ في الغاية من البلاغة جاءهم بالقرآن، الذي تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله، فلم يقدروا على ذلك"[4].

فالقرآن ليس له مثل لا صورة ولا حقيقة، بخلاف غيره من المعجزات فإنها لا تخلو عن مثل.

---

١. التُّفْرُوق: علامة تكون بين النواة والتمرة.

٢. أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير الجزري، دار الفكر، بيروت، د. ت، ج١، ص٧٦.

® في **"البشارة بالنبي ﷺ في التوراة والإنجيل"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الأولى، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي). والوجه الرابع، من الشبهة الأولى، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (٤٦٩٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس (٤٠٢)، واللفظ له.

٤. فتح الباري، ابن حجر، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٨، ص٦٢٣.

وقد جمع بعضهم إعجاز القرآن في أربعة أشياء:

أحدها: حسن تأليفه والتئام كلمه مع الإيجاز والبلاغة.

ثانيها: صورة سياقه وأسلوبه المخالف لأساليب كلام أهل البلاغة من العرب نظمًا ونثرًا، حتى حارت فيه عقولهم، ولم يهتدوا إلى الإتيان بشيء مثله.

ثالثها: ما اشتمل عليه من الإخبار عما مضى من أحوال الأمم السالفة والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه بعضه إلا النادر من أهل الكتاب.

رابعها: الإخبار بما سيأتي من الكوائن التي وقع بعضها في العصر النبوي وبعضها بعده. ومن غير هذه الأربعة آيات وردت بتعجيز قوم في قضايا أنهم لا يفعلونها فعجزوا عنها مع توفر دواعيهم على تكذيبه، كَتَمَنِّي اليهود الموت، ومنها الروعة التي تحصل لسامعه، ومنها أن قارئه لا يمل من ترداده، وسامعه لا يمجُّه، ولا يزداد بكثرة التكرار إلا طراوة ولذاذة، ومنها جمعه لعلوم ومعارف لا تنقضي عجائبها، ولا تنتهي فوائدها[1].

فهل يمكن أن تكون هذه المعجزة العظيمة التي جاء بها محمد ﷺ، وهي موجودة بين أيدينا شاهدة على وجوده أن تكون أسطورة، أو أن صاحبها لا وجود له؟ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ (الكهف).

القرآن يسجل وجوده ﷺ:

إن القرآن الكريم شاهد على وجود النبي ﷺ، وأنه لم يكن وهمًا أو خيالًا كما يدَّعون وذلك يمكن إثباته في الآتي:

- محمد ﷺ مذكور باسمه وصفته في القرآن الكريم، وذلك في عدة آيات، فقال الله ﷻ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الفتح). تبدأ هذه الآية بإثبات صفة محمد ﷺ تلك الصفة التي ينكرونها وهي: "محمد رسول الله". إنها صورة وضيئة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، فنجد صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات تلك الجماعة المختارة التي صاحبت رسول الله ﷺ، وتلك الصورة الوضيئة ثابتة لهم في التوراة: "ذلك مثلهم في التوراة" وتلك صفتهم فيها، ثم أورد الله ﷻ صفتهم كما في الإنجيل في بشارة عيسى عليه السلام بمحمد ومن معه[2]، وهذا دليل على أنه ﷺ وأصحابه موصوفون في الإنجيل، وقد بشر عيسى عليه السلام بمحمد ﷺ وأصحابه.

قال الله ﷻ في سورة الأحزاب ذاكرًا اسم نبينا محمد ﷺ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (الأحزاب)، ففي هذه الآية يذكر الله ﷻ اسم نبينا عندما عالج ﷻ قضية التبني في الإسلام، حيث يؤكد رب

---

١. تنزيه سيد الأنبياء عن مطاعن السفهاء، د. ياسر عبد القوي، مرجع سابق، ص٩٨: ١٠٠ بتصرف.

٢. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٦، ص٣٣٣١، ٣٣٣٢ بتصرف.

العزة أنه رسول رب العالمين، وخاتم النبيين، قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢)﴾ (محمد)، وهذه الآية توضح أن المؤمنين لم يخالفوا نبينا محمدًا ﷺ في شيء مما جاء به وصدقوه، كما أن وجود أتباعه من المسلمين الذين يزدادون يومًا بعد يوم على مر العصور يعتبر دليلًا على وجوده، فكيف تتبعه كل هذه الأمة من المسلمين حتى وقتنا هذا، وهو غير موجود؟

هناك آيات أخرى ذكر فيها اسمه ﷺ كقوله ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤)﴾ (آل عمران)، وكأن الله لم يتكفل بحفظ القرآن الكريم وآياته فقط، بل تكفل بحفظ الدليل على وجود نبيه محمد ﷺ من خلال تلك الآيات التي يذكر فيها المولى ﷻ اسمه، ويؤكد صفته، وكما أن المولى ﷻ قد أفرد سورة كاملة من سور القرآن الكريم وسماها باسمه، وهي "سورة محمد" رقم (٤٧) من سور القرآن الكريم - حسب ترتيب المصحف - وهذه السورة تدل على تكريم الله لنبيه محمد ﷺ، فكان ذلك تخليدًا لذكرى نبينا وتكريمًا له من ربه وهو دليل آخر على وجوده ﷺ.

إن القرآن الكريم خير شاهد على وجود النبي ﷺ، وقد سجل لنا طرفًا من حياته ووقائعه، حيث قال ﷻ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦)﴾ (الضحى)، وخاطبه عند نزول الوحي عليه أول مرة على لسان جبريل فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١)﴾ (العلق)، وعندما كذبه قومه واتهموه بأنه شاعر، وأنه كاهن قال ﷻ ردًّا عليهم: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣)﴾ (الحاقة)، وقال ﷻ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩)﴾ (يس)، ثم سجل القرآن جهاده ضد الكفار والمنافقين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣)﴾ (التوبة)، وسجل القرآن الكريم بعض معجزاته، ومنها معجزة انشقاق القمر، يقول الله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١)﴾ (القمر).

إن القرآن الكريم خير مصدر لمعرفة شخصية الرسول ﷺ وسيرته الشريفة معرفة واضحة دقيقة، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، فالقرآن الكريم هو الباعث لتشخيص شخصية رسول الله ﷺ وسيرته منذ البعثة وما بعدها[1].

ثالثًا. لو سلمنا جدلا أن النبي ﷺ كان أسطورة، فمن أين جاءت السيرة النبوية، وإلى من ننسبها؟!

إن التاريخ يثبت وجود محمد ﷺ منذ ولادته وحتى وفاته ﷺ، وذلك من خلال كتب التاريخ والسير، والأحاديث الصحيحة، كما أن الدولة الإسلامية وحضارتها تشهد بوجوده، فقد أسس لها منذ هجرته للمدينة، وإقامة دعائم هذه الدولة التي قامت على أسسها الحضارة الإسلامية التي شهد العالم كله بتقدمها، ورقيها دليل على وجوده ﷺ، فإذا أنكروا وجود نبينا محمد ﷺ، فهل يستطيعون إنكار التاريخ

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مطابع دار الصحيفة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٤٦٢.

بأسره؟!

لقد استطاع النبي ﷺ أن يحدث تغييرًا ملحوظًا في عصره، سجله التاريخ، فقد "وُلد ﷺ يتيمًا في عصر اتفقت كلمة المؤرخين والرواة على أنه من أخبث العصور وأكثرها انحطاطًا من جميع النواحي الخلقية والعقلية والدينية والحكومية، عصر هو في الحق عصر الظلم والظلمات، وُلد في أمة تائهة في الضلال والجهل، تائهة في الشرك والكفر، تائهة في الفرقة والاستبداد، تائهة في القساوة والعنف، وكل معاني الغضب والسخط"[1]، فأخرجها إلى النور والهداية، وكانت أمة تعبد ما تصنع بأيديها من أحجار، وأصنام، وغير ذلك، فاستطاع أن يقضي على كل هذا الجهل والتخلُّف والظلام حتى أصبحت هذه الأمة بعد إسلامها من أرقى الأمم حضارة وخُلقًا، فاستطاع ﷺ بالإسلام أن يخرجها من الظلمات إلى النور، قال ﷻ: ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ (الطلاق: ١١).

فهل يعقل بعد كل هذا التغيير الذي أحدثه النبي ﷺ في مجتمعه ـ وكان التاريخ شاهدًا له على هذا التغيير ـ أن يكون النبي ﷺ شخصية خرافية؟

على أن السيرة النبوية العطرة ما هي إلا ترجمة حية للقرآن الكريم، كما أن كُتَّاب السيرة النبوية وعلماءها لم تكن وظيفتهم بصدد أحداث السيرة إلا تثبيت ما هو ثابت منها، بمقياس علمي يتمثل في قواعد مصطلح الحديث المتعلقة بكل من السند والمتن، وعلم الجرح والتعديل المتعلق بالرواة وتراجمهم، فإن انتهت بهم هذه القواعد العلمية الدقيقة إلى أخبار ووقائع، وقفوا عندها ودوَّنوها، دون أن يقحموا تصوراتهم الفكرية، أو انطباعاتهم النفسية، أو مألوفاتهم البيئية إلى شيء من تلك الوقائع بأي تلاعب أو تحوير.

كما يرون أن الحادثة التاريخية التي يتم الوصول إلى معرفتها بالقواعد العلمية التي تتسم بمنتهى الدقة حقيقة مقدسة، يجب أن تُجلَّى أمام الأبصار والبصائر كما هي ضمن هذه الوقاية من القواعد العلمية، وعلى ذلك الأساس من النظرة الموضوعية للتاريخ، وصلت إلينا سيرة المعصوم ﷺ بدءًا من نسبه وولادته، إلى طفولته فصباه اليافع، إلى الإرهاصات الخارقة التي صاحبت مراحل طفولته وشبابه إلى بعثته، وظاهرة الوحي التي تجلت في حياته، إلى أخلاقه وصدقه وأمانته، إلى الخوارق والمعجزات التي أجراها الله تعالى على يده، إلى مراحل الدعوة التي سار فيها لتلبية أمر ربه، من سلم، فدفاع، فجهاد مطلق، حيثما طاف بالدعوة إلى الله ﷻ تحت أي تهديد، إلى الأحكام والمبادئ الشرعية التي أُوحِي بها إليه، قرآنًا معجزًا يُتلَى وأحاديث نبوية تُشرح وتُبين.

فهل يمكن بعد كل هذه الدقة العلمية في تدوين السيرة النبوية أن نصَدِّق ادعاءهم بعدم وجود شخصية النبي محمد ﷺ ؟! فإذا كان غير موجود كما يدعون، فمن أين أتت هذه السيرة النبوية العظيمة؟! وليس للإمام البخاري وغيره من أئمة السنة الشريفة، من أصحاب المصنفات الحديثية والتاريخية، ليس لكتَّاب السيرة وعلمائها جميعًا أن يرسموا شخصية النبي

---

١. نقد كتاب "حياة محمد"، عبد الله بن علي القصيمي، المطبعة الرحمانية، مصر، ط١، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، ص١.

محمد ﷺ كما يدعون؛ لأن دورهم كما سبق هو تسجيل تلك التراجم الحية التي اشتمل عليها القرآن الكريم، من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق وحدود وغزوات، وأحوال شخصية... إلخ.

إن التأكد من ثبوت السيرة النبوية الواردة في السنة المطهرة سهل ميسور من خلال دراسة السند والمتن، وهذا ما قام به أئمة أعلام من سلفنا الصالح، وأسفرت نتيجة جهودهم إلى صحة أصول السيرة النبوية التي اشتملت عليها صحاح كتب السنة، وعلى رأسها الصحيحان للبخاري ومسلم، وهذان المصدران: القرآن والسنة النبوية الصحيحة، أهم مصادر السيرة وأوثقها.

وإذا كان القرآن الكريم أوثق كتاب على وجه الأرض، وكان من الثبوت المتواتر بما لا يفكر إنسان عاقل في التشكيك في نصوصه وثبوتها التاريخي، وإذا كانت السنة الشريفة نقلت لنا سيرة رسول الله ﷺ بالسند الصحيح المتصل بما يجب أن تقبله كحقيقة تاريخية لا يخالجنا الشك فيها.

فإنك تجد نفسك في النهاية أمام أصح سيرة وأقواها ثبوتًا متواترًا، هي سيرة المعصوم سيدنا محمد ﷺ[1].

فإذا كانت سيرته من أصح السير وأقواها، فمن أين جاءوا بادعائهم هذا أنه غير موجود؟! إن سيرته الشريفة والقرآن العظيم، وما تركه من أحكام وتشريعات وسُنة، كل هذا يشهد بوجوده، فكيف يكون كل ذلك بين أيدينا، وهم يدعون أنه أسطورة ووهم وخيال؟!

ويمكن تتبع بعض الأحداث من سيرته التي سجلها التاريخ، وهي موثقة بالتاريخ الهجري، وما يقابله من التاريخ الميلادي ومنها:

- **مولده: ٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠ م:**

ولد النبي ﷺ في فجر يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول في عام الفيل، ورُوِي أنه عند ولادته ارتجَّ إيوان كِسرى ارتجاجًا شديدًا، وسقط منه أربع عشرة شرفة من شرفاته، وذلك إشارة إلى أنه لم يبق من ملوكهم المستبدين بالملك إلا أربعة عشر ملكًا فهلك عشرة في أربع سنين، وهلك أربعة إلى زمن عثمان ﷺ، كما خمدت نار فارس، وكان على ما يقال لها ألف عام لم تخمد كما رواه البيهقي وأبو نعيم وابن عساكر[2].

- **تكليفه بالرسالة:**

في السادس من أغسطس سنة ٦١٠م، يوم الإثنين لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده، فيكون عمره إذ ذاك أربعين سنة قمرية وستة أشهر وثمانية أيام، جاءه جبريل بالنبوة وهو في غار حراء، فقال له: اقرأ، وكان أول ما أنزل عليه من الوحي قوله ﷻ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (العلق)[3].

- **جهاد النبي ﷺ وغزواته:**

في ١٧ رمضان في السنة الثانية من الهجرة يناير سنة

---

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٤٦٢: ٤٦٥ بتصرف.

٢. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص١٩، ٢٠ بتصرف.

٣. المرجع السابق، ص٥٩، ٦٠ بتصرف.

٦٢٤م كانت غزوة بدر الكبرى، ورغم قلة عدد المسلمين في ذلك الوقت، وكانوا ٣١٣ مقاتلًا، وكثرة من خرج من قريش، وكانوا نحو ١٠٠٠ مقاتل - إلا أن الله كتب لهم النصر على كفار قريش.

بعد ذلك توالت الغزوات ومنها: غزوة أحد ٣ هـ/ ٦٢٥م، وغزوة ذات الرقاع ٤ هـ/ ٦٢٦م، وغزوة الخندق ٥هـ/ ٦٢٧م، وغزوة خيبر ٧ هـ/ ٦٢٨م، وغزوة فتح مكة ٨هـ/ ٦٣٠م[1]، وغير ذلك من الغزوات.

فإذا كان النبي ﷺ شخصية أسطورية ـ كما يدعي هؤلاء ـ فإلى من ننسب هذه الوقائع والأحداث المسطَّرة على صفحات التاريخ؟! وإلى من ننسب وجود أكثر من ألف مليون مسلم على وجه الأرض؟ إن وجود المسلمين دليل على وجود النبي ﷺ كما أن وجود المسيحيين دليل على وجود السيد المسيح، ووجود اليهود دليل على وجود موسى عليه السلام.

فمن أنكر وجود نبي الإسلام فعليه أن ينكر وجود المسلمين اليوم، وهذا محال عقلًا.

كما أن من أنكر وجود النبي ﷺ فعليه أن ينكر وجود موسى وعيسى ـ عليهما السلام ـ، وهذا ما لا يرتضيه أحد من هؤلاء بأي حال من الأحوال.

وليس أدل على حقيقة شخصية النبي ﷺ مما تركه رسول الله ﷺ من مبادئ وتعاليم سواء كانت في العقيدة، أم في الأخلاق، أم في التشريع، وقد كانت هذه التشريعات والعقيدة والأخلاق ـ ولا تزال ـ صالحة لكل مكان وزمان، وقد أقام بها المسلمون الأوائل دولتهم العظمى وحضارتهم الشامخة التي فرضت نفسها على حضارتي الفرس والروم.

وبهذا يتبين لنا أن النبي ﷺ شخصية حقيقة لا مراء في ذلك، والدلائل والشواهد على ذلك كثيرة لا تُحصَى، فقد أرسله الله ﷻ إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وختم به الرسالات السماوية، فلا نبي بعده ولا رسول، وقد دلَّ على وجوده ﷺ وجود القرآن الكريم معجزته الخالدة إلى يوم الدين، وكذلك سنته وسيرته الطاهرة التي شغلت معظم كُتَّاب التاريخ والسير حتى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكذلك وجود أتباعه من المسلمين المؤمنين برسالته، حيث يزداد عددهم يومًا بعد يوم مما يدل على إيمانهم الكامل بنبوته ورسالته ﷺ.

الخلاصة:

إن الأدلة على وجود شخصية النبي ﷺ كثيرة ومتنوعة، ولا يمكن حصرها، وهي تقود الإنسان في النهاية إلى الإيمان به نبيًّا ورسولًا من الله تعالى، ومن هذه الأدلة:

- أن الأحبار والرهبان والملوك كانوا على معرفة بنبوته ﷺ ووقت مبعثه وصفة بلده وقومه، وأنهم شهدوا بذلك قبل بعثته وبعدها.
- أن التوراة والإنجيل قد بشرتا برسول الله ﷺ، وبالرغم من تحريفهما إلا أنه لا يزال فيهما إشارات وإيماءات يُفهم منها البشارة برسول الله ﷺ، مع العلم أن ما نقله علماء سلفنا الصالح أمثال الإمام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم من بشارات التوراة والإنجيل أشد

---

١. محمد ﷺ المثل الكامل، محمد أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص٤٣٢، ٤٣٣ بتصرف.

صراحة مما نجده الآن فيها، مما يدل على أنها قد دخلها تحريف جديد من زمنهم إلى يومنا هذا، وقد شهد القرآن بهذه البشارات كما شهد بتحريف التوراة والإنجيل.

- أن القرآن الكريم معجزة النبي ﷺ الخالدة إلى يوم القيامة شاهدة على وجوده ﷺ، فقد اختص الله ﷻ النبي ﷺ بهذه المعجزة لتكون دليلًا على صدقه، وصدق ما جاء به، إذ هي من جنس ما برع فيه قومه من البلاغة وحسن التأليف، وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، فلم يستطيعوا.

- أن التاريخ صدَّق ما جاء به القرآن الكريم، والسيرة النبوية الشريفة من وقائع وأحداث عن النبي ﷺ، فكان هذان المصدران خير شاهد ودليل على وجوده ﷺ.

- أن ما تركه رسول الله ﷺ من مبادئ وتعاليم سواء كانت في العقيدة، أم الأخلاق، أم التشريع يدل دلالة واضحة على أنه كان شخصية حقيقية، ولم يكن وهمًا أو خيالًا كما يدعون.

- أن صحة السيرة النبوية ثابتة بالأدلة العلمية والتواريخ، إذ إن كُتاب السيرة وعلماءها لم تكن وظيفتهم بصدد أحداث السيرة إلا تدوين ما هو ثابت منها، بمقياس علمي دقيق، يتمثل في قواعد مصطلح الحديث المتعلقة بكل من السند والمتن، وعلم الجرح والتعديل، وقد اعترف كل من له باع من العلم والمنهج الموضوعي في البحث حتى من المستشرقين أنفسهم أن منهج علماء المسلمين من المحدثين في نقد الروايات لم يسبق له مثيل، حتى قال مرجليوث: "ليفخر المسلمون ما شاءوا بعلم حديثهم". وعليه فلا وجه للقول بأن النبي ﷺ كان شخصية أسطورية أو خرافية.

الشبهة الثانية

إنكار انتساب النبي ﷺ لإسماعيل عليه السلام بالتشكيك في زواج إسماعيل من قبيلة جُرْهُم العربية(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المغالطين انتساب النبي ﷺ لنبي الله إسماعيل بن الخليل إبراهيم، ويشككون في زواج إسماعيل من قبيلة جرهم العربية، مستدلين على ذلك:

- بعدم وجود علاقة بين إسماعيل والعرب؛ فقد كان العرب في شبه الجزيرة العربية، وإسماعيل -كما ذكرت التوراة- كان مقيمًا في بلاد "فاران"، وهي -على حد زعمهم- بلادٌ بين مصر وبلاد ثمود.

- وبأن إسماعيل كان عبدًا ابن أَمَة؛ فأمه هاجر كانت جارية عند ملك مصر، والعرب يأنفون من زواج العبد بالحُرَّة.

- وبأن جد زوجة إسماعيل الجرهمية -كما ذكر أحد مؤرخي المسلمين- كان اسمه: عبد المسيح، والمسيح عليه السلام أتى بعده بألفي سنة؛ فكيف يتأتى قرانهما؟!

- وبقوله تبارك وتعالى مخاطبًا الرسول ﷺ: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ

(*) السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

﴿قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (القصص)، فلو كان إسماعيل صهرًا للعرب كما يزعم المسلمون؛ لثبت تبليغه ودعوته لهم.

ويرون أن ما ادَّعاه العرب من انتسابهم لنبي الله إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - كان محض خدعة زيَّنها اليهود لهم؛ تقربًا إليهم، واستجلابًا لنصرتهم، واستغلالا لجهلهم بالأنساب. ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في نسب النبي ﷺ.

وجوه إبطال الشبهة:

١) من الثابت تاريخيًّا أن إسماعيل عليه السلام سكن مكة مع أمه، وعاش بها طيلة حياته، وتزوج امرأة من قبيلة جرهم العربية وأنجب منها أولادًا، فصار بذلك أبًا للعرب، وهذا ما تشهد به روايات الكتاب المقدس، وكذلك المنصفون من الباحثين الغربيين.

٢) ليس صحيحًا أن إسماعيل عليه السلام كان عبدًا ابن أَمَة؛ لأن الأَمَة إذا ولدت من سيدها صارت حرة - كما هو مقرَّر عند اليهود - فبمجرد أن وضعت هاجر إسماعيل أصبحت حرة، ذلك فضلًا عن كون أصلها من أبناء الملوك، فأُسرت، ثم أُهديَت لإبراهيم، فتزوجها وأنجبت له إسماعيل، ومن ثم فإسماعيل من الأحرار حرٌّ ابنُ حرٍّ وابنُ حُرَّة.

٣) إن قول بعض المؤرخين: إن اسم جد زوجة إسماعيل الجرهمية "عبد المسيح"، ليس بحجة ولا يرقى لأن يكون دليلًا للطعن في نسب النبي ﷺ؛ ففيه نظر وإن صح ذلك فالمسيح في الأصل اللغوي معناه: المبارَك، أو الممسوح بالزيت الذي باركه الله، وليس المقصود به المسيح ابن مريم خاصة، وقد أُطلق هذا الاسم على كثير من أنبياء بني إسرائيل، ومنهم طالوت.

٤) لم يكن العرب بحاجة إلى أن يتعلموا أنسابهم من اليهود؛ لأنهم كانوا أعلم الناس بالأنساب، فقد كانوا يعلمون أنساب خيولهم وإبلهم، فكيف لا يعلمون نسبهم، وبه مفاخرتهم ومكاثرتهم؟! وقد كانوا يقولون لليهود بعد الإسلام: "إن أبانا وأباكم واحد، ونحن على دينه فكونوا أنتم كذلك".

٥) المقصودون بالإنذار في قوله ﷻ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ (السجدة: ٣) هم قوم محمد ﷺ المخالطون له من قريش وغيرهم.

٦) لقد أجمع النسابون وعلماء التاريخ والسير على أن نسب النبي ﷺ ينتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - ولا خلاف بينهم في ذلك.

التفصيل:

أولا. من الثابت تاريخيًّا أن إسماعيل عليه السلام عاش بمكة وصاهر قبيلة جرهم، فصار أبًا للعرب بذلك:

لقد سكن إسماعيل عليه السلام مكة منذ نعومة أظفاره مع أمه هاجر، حينما أسكنهما إبراهيم الخليل عليه السلام هذا المكان بأمر من الله ﷻ داعيًا إياه بما حكاه القرآن على لسانه في قوله ﷻ: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (إبراهيم)، ولقد درج المؤرخون على أن إسماعيل عليه السلام قد سكن مكة منذ صغره، وأقام بها طيلة حياته، ومات فيها.

أما ما قيل من أن التوراة قد ذكرت أن إسماعيل كان

يقيم بفاران ـ وهي بلاد بين مصر وبلاد ثمود ـ وليست مكة، فزعم باطل؛ إذ إن ما نجده من الاختلاف في النسخة الواحدة من التوراة في الواقعة الواحدة يرفع الثقة بها، ويمنع الاستدلال بنصوصها، فالدعوى باقية بحالها.

أما نحن فلدينا دلائل صحيحة وشواهد من نصوص التوراة وكتابات الغربيين تؤكد صحة ما ذهبنا إليه؛ منها:

- قول جرجيس صال: وقد قام الدليل ـ يعني التواتر على الأقل ـ على أن العرب أولاد إسماعيل، فبالضرورة يكون المسكن واحدًا، والموطن واحدًا. وفي التوراة نصوص كثيرة على نسبة العرب لإسماعيل.
- وقال أيضًا: إن التسمية بمكة لا تجهلها العرب، وظني أنه مأخوذ من اسم واحد من أولاد إسماعيل.
- ذُكر في التوراة في سفر التثنية: "جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران، وأتى من ربوات القدس، وعن يمينه نار شريعة لهم". (التثنية ٣٣: ٢)، وتوضيح هذا أن مجيء الرب من سيناء كناية عن إعطائه التوراة لموسى، وإشراقه من سعير كناية عن إعطائه الإنجيل لعيسى، وتلألؤه من فاران كناية عن إنزاله القرآن على سيدنا محمد ﷺ؛ لأن فاران جبل من جبال مكة، فهي المرادة بقول التوراة: "سكن إسماعيل في برية فاران"؛ لأن تلألأ الله بالقرآن لم يكن إلا بمكة وما جاورها.
- وقال جرجيس أيضًا: ليس لذرية إسماعيل وجه في دعواهم أنهم عرب خُلَّص؛ لأن جدهم إسماعيل كان عبرانيًّا مولدًا، وإنما صاهر جُرْهُمًا، إذ تزوج بابنة مضاض ـ أحد ملوكهم ـ فاختلطت ذريته بهم، وصاروا أمة واحدة، ومن المعلوم أن جرهمًا كانت في مكة، فهذا دليل سكناه ومصاهرته جرهمًا[1].

ويجدر بنا هنا أن نذكر أيضًا ما ورد في معجم "سميث" للكتاب المقدس "***SMITH'S BIBLE DICTIONARY***": "نعرف القليل عن حياة إسماعيل المتأخرة، لقد حضر مع أخيه إسحاق لدفن أبيهما إبراهيم، ومات وقد بلغ ١٣٧ عامًا، وسكن أبناؤه شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية مكونين البذرة الأولى ـ العنصر الأساسي ـ للأمة العربية، قبائل البدو الرحل، إنهم الآن معظم أتباع محمد الذين ينظرون إلى إسماعيل على أنه الأب الروحي لهم ـ كما ينظر اليهود لأبيهم إبراهيم ـ، ولغتهم التي انتشرت لتكون المجتمع العربي قد اعتمدت ببعض الاستثناءات البسيطة في الجزيرة العربية"[2].

ويقول القس المنصِّر جورج بوش: "وثمة دليل آخر نسوقه للتدليل على انتساب العرب لإسماعيل ؈، وهو أنهم يمارسون منذ زمن قديم غير محدد طقس الختان، وقد ذكر يوسيفوس فقرة مهمة جدًّا فيما يتعلق بأصل هذه الشعيرة ـ الختان ـ بين اليهود والعرب، فذكر في البداية ختان إسحاق، ثم ختان إسماعيل، ويقرر يوسيفوس أن اليهود والعرب مشهورون بهذه العادة منذ زمن قديم لا نستطيع تحديد بداياته، ويمارس اليهود والعرب هذا الأمر اقتداء بأسلافهم الموقرين،

---

١. المرجع السابق، ص٦٣، ٦٤ بتصرف.

٢. محمد رسول الله ﷺ في الكتب المقدسة، سامي عامري، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٧١.

وهاك ما قاله: "الآن عندما بلغت سارة التسعين وبلغ إبراهيم المائة أنجبا إسحاق، فختناه في اليوم الثامن من ميلاده، ومن هنا أخذ اليهود عادة ختن أولادهم في اليوم الثامن من ميلادهم.

ولكن العرب يمارسون الختان في سن الثالثة عشر؛ لأن إسماعيل مؤسس أمتهم - وهو ابن إبراهيم من جاريته - قد اختتن في هذا العمر". وهناك شهادة شبيهة عن أصل العرب كُتبت في القرن الثالث للميلاد، يقول الكاتب: "أهل يهوذا يختِنُون بشكل عام أنجالَهم في اليوم الثامن من ميلادهم، أما نسل إسماعيل في بلاد العرب فيمارسون الختان في سن الثالثة عشر". وقد عاش هذا الكاتب - مثله مثل يوسيفوس - قريبًا من المنطقة، وكانت لديه أفضل الفرص للحصول على المعلومات الصحيحة عن العرب.

وعليه فمن الواضح أن نسبة العرب لإسماعيل بن إبراهيم نسبة تاريخية مؤكدة وليست مجرد مرويات.

هذا الشاهد المباشر على أصل العرب الإسماعيلي الذي أكده أقدم سفر من أسفار العهدين - وهو سفر التكوين - وأكدته - كما رأينا - مصادر أجنبية، يتفق بشكل مدهش مع ما أكده الأنبياء بعد ذلك، ومن خلال المسيرة الطويلة لتاريخ الكتابات الدينية والنبوات نلتقي مرارًا وتكرارًا بإشارات إلى قبائل تعيش في بلاد العرب - أرابيا - منحدرة من إسماعيل حاملة أسماء أبنائه وأبرزهم نبايوت - أو نبايوط - وقيدار"[1].

وبعد.. فحسبنا ما سقناه من الأدلة الثابتة عندهم في كتبهم، وعلى ألسنة مُنصِفيهم للبرهنة على نسبة العرب لإسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام -، وأمَّا الأدلة على سُكنَى إسماعيل بمكة من القرآن والسنة النبوية عندنا - نحن المسلمين - فمعلومة متواترة بالكثرة التي تُغنِي الإشارة إليها عن ذكرها، ويكفينا قوله ﷺ مخاطبًا العرب: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ (الحج: ٧٨)[2].

ثانيًا. لم يكن إسماعيل عليه السلام عبدًا بل كان حرًّا، وهذا ما تؤكده حقيقة تزويج العرب له، وتدعمه نصوص الكتاب المقدس:

ليس صحيحًا ما توهموه من أن إسماعيل عليه السلام كان عبدًا ابن أمة؛ لأن إسماعيل حر تابع لأبيه الحر إبراهيم، وأمه هاجر حرَّة أيضًا؛ طبقًا للنصوص التوراتية التي تقضي بأن الأَمَة تصير حرة بمجرد إنجابها من سيدها، ذلك فضلًا عن أن هاجر تنتمي في نسبها إلى الملوك، وشاء الله أن تقع أسيرة، فهي ليست من سلالات الرقيق كما يزعمون.

ثم إنه لم يكن فقيرًا، بل كان موسرًا غنيًّا؛ وذلك أن جرهمًا لما أرادت السُّكنَى بجوار هاجر من أجل ماء زمزم، ورأوا عدم رغبتها، قالوا لها: نسكن بجوارك، ولابنك الحق - متى كبر - في إبقائنا أو إجلائنا، وله الشطْرُ من أموالنا، فأجابتهم هاجر لذلك على أن يفوا بعهدهم الذي عاهدوا، فلما ترعرع الغلام، ووجدوه

١. محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، جورج بوش، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دار المريخ، الرياض، ط٢، ٢٠٠٤م، ص١٢٦.

٢. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، مرجع سابق، ص٦٤.

أفصحهم لسانًا وأكملهم عقلًا، قاسموه أموالهم؛ وفاءً بالشرط، فصار أكثرهم مالًا. فكيف يأنفون من مصاهرته عليه السلام وهو بيده أن يبقيهم أو يجليهم من مكة[1]؟

يقول جورج بوش: "وعندما نعود بأصول الأمة العربية إلى مؤسسيها الأوائل، فإن سفر التكوين في العهد القديم يُعدُّ وثيقة لا تقدر بثمن، فهؤلاء الذين لا يترددون في قبول ما ورد في سفر التكوين وغيره من أسفار الكتاب المقدس باعتبارها مستندات جازمة لإقرار الحقائق التاريخية، لن يترددوا في اعتبار العرب من نسل إسماعيل بن إبراهيم"[2].

وفي هذا دلالة واضحة على تزوُّج إسماعيل عليه السلام من قبيلة جرهم العربية، والتي كان من نسلها الجنس العربي العدناني.

ثالثًا. قول بعض المؤرخين: إن اسم جد زوجة إسماعيل الجرهمية عبد المسيح، قول محل نظر، ولا يقوم دليلا للطعن في نسب النبي ﷺ:

فالقول بأن جد هذه الزوجة الجرهمية اسمه عبد المسيح، مع أن إسماعيل عاش قبل المسيح عليه السلام بألفي سنة، جوابه: أن ما كتبه المؤرخ لا يكون صحيحًا حتمًا، ولو سلمنا بصحة ما قيل فإنه لا يدل على أن المراد بالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام خاصة؛ وذلك لأن المسيح في الأصل اللغوي معناه المبارَك، أو الممسوح بالزيت الذي بارك الله فيه، وهو وصف يصح أن يتصف به كل نبي يُمسح بهذا الزيت، بل ويتصف به غير الأنبياء أيضًا، فقد كان طالوت ملك بني إسرائيل يُدْعى مسيحًا، ثم غلب هذا الوصف على المسيح عيسى عليه السلام، ولذلك لا يذكر لفظ المسيح في القرآن إلا مقرونًا به ما يعيِّنه من ذكر الاسم أو النسبة للأم يقول الله عز وجل: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (آل عمران)، وعليه فإننا إذا قلنا بصحة هذا الرأي التاريخي؛ فالمراد بالمسيح - الذي هو من جدود زوجة إسماعيل - مسيح آخر نُسب ذلك الجد إليه، على حد قولهم: عبد مناف، وعبد الكعبة[3].

رابعًا. لم يكن العرب بحاجة إلى أن يتعلموا أنسابهم من اليهود؛ لأنهم كانوا أعلم الناس بالأنساب:

فقد كانوا يعلمون أنساب خيولهم وإبلهم، فكيف لا يعلمون نسبهم، وبه مفاخرتهم ومكاثرتهم، فمن علم حالة العرب لم يجوِّز عليهم الجهل بالنسب حتى يتعرفوه من اليهود، كيف وهم أعلم الناس بالأنساب، وهم الذين كانوا يتكاثرون ويتفاخرون بها في أشعارهم، وقد رُوي أن حسان بن ثابت استأذن النبي ﷺ في أن يهجو المشركين، فقال له النبي ﷺ: "كيف بنسبي"؟ فقال حسان: لأَسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشعرةُ من العجين[4].

وقد كان العرب يعرفون الأنساب ويحرصون عليها؛ كسبًا لقلوب من تربطهم به مصاهرة أو

---

1. المرجع السابق، ص٦٤، ٦٥.
2. محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، جورج بوش، مرجع سابق، ص١٢٣.
3. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق، ص٦٥.
4. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب من أحب ألا يُسبَّ نسبُه (٣٣٣٨).

قُربَى، وإن بعدت، ولأن نسب الفرد إلى القبيلة كإثبات الجنسية في العصر الحديث، فلا بد من حفظ النسب ليُعرف مَن في القبيلة وتَعْدادهم ومن ليس فيهم؛ حتى تكون غاراتهم طبقًا لمعرفة تعدادهم وإن لم يكن للتعداد إحصاء مكتوب، وكذلك لأن معرفة الأنساب ضرورة عند المصاهرة، والتقدم لخطبة أي فتاة طبقًا لقانون الكفاءة الزوجية عند النكاح؛ لذا فقد شهد الجميع للعرب بالصدارة في علم الأنساب.

أما اليهود فإنهم لم يخالطوا العرب بمكة، وإنما خالطوهم عندما هاجروا إلى المدينة، وكان المسلمون يقولون لهم: إن أبانا وأباكم واحد - إبراهيم - ونحن على دينه، فكونوا معنا إخوة في الدين كما نحن إخوة في النسب، ويتلون عليهم قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ (البقرة)[1].

ومن ثم فلا مجال للقول بأن اليهود هم الذين أشاعوا كون العرب من نسل إبراهيم؛ لأن الحقيقة التي لا يماري فيها أحد أن العرب هم أبناء إسماعيل بن إبراهيم بالفعل، وقد كانوا يعلمون ذلك ويفتخرون به.

خامسًا. المقصود بقوله ﷻ: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ (السجدة: ٣) فهم قوم النبي ﷺ المخالطون له من قريش ومن حولها:

ذكر الشيخ ابن عاشور في تفسير الآية أن القوم: هم قريش والعرب، فهم المخاطَبون ابتداء بالدين، وكلهم لم يأتهم نذير قبل محمد ﷺ، وأما إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فكانا نذيرين حين لم تكن قبيلة قريش موجودة يومئذ ولا قبائل العرب العدنانية، وأما القحطانية فلم يُرسَل إليهم إبراهيم عليه السلام؛ لأن اشتقاق نسب قريش كان من عدنان، وعدنان بينه وبين إسماعيل قرون كثيرة.

وإنما اقتصر على قريش أو على العرب دون سائر الأمم التي بعث إليها النبي ﷺ؛ لأن المِنة عليهم أوفَى؛ إذ لم تسبق لهم شريعة من قبل، فكان نظامهم مختلًّا غير مشوب بأثارة من شريعة معصومة، فكانوا في ضرورة إلى إرسال نذير، وللتعريض بكفرانهم هذه النعمة، وليس في الكلام ما يقتضي تخصيص النذارة بهم ولا ما يقتضي أن غيرهم ممن أنذرهم محمد ﷺ لم يأتهم من قبله نذير، مثل اليهود والنصارى وأهل مدين[2].

وعلى هذا فالمقصود بالقوم في الآية هم المخالطون للرسول ﷺ وثبت يقينًا أنهم لم يأتهم غير محمد ﷺ في زمانه. ومن ثَمَّ لا يحق لأحد أن يشكك في علاقة إسماعيل عليه السلام بقبيلة جرهم العربية، وزواجه منها، وكونه أبًا للعرب، ومنهم سيد الخلق محمد ﷺ.

سادسًا. أجمع النَّسابون وعلماء التاريخ على أن النبي ﷺ من نسل إسماعيل عليه السلام:

تجدر الإشارة هنا إلى ذكر نسب النبي ﷺ: ذَكَر البخاري - رحمه الله - نسب النبي ﷺ فقال: "هو أبو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مَناف بن قُصَي بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن

١. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق، ص٦٦.

٢. التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت، مج ١٠، ج ٢٠، ص ١٣٤.

لُؤَي بن غالب بن فِهْر بن مالك بن النضر بن كِنانة بن خُزَيمة بن مدركة بن إلياس بن مُضر بن نِزار بن مَعد بن عدنان"[1].

وقال البغوي في شرح السنة بعد ذكر النسب إلى عدنان: "ولا يصح حفظ النسب فوق عدنان".

وقد أجمع النسابون ــ العدنانية، القحطانية، والأعاجم ـ على أن إبراهيم خليل الرحمن من ولد سام بن نوح، وأن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ فانتهاء النسب إلى إسماعيل ذي النسل العديد، وذي النبوة العظمى، والملك الشديد، متفق عليه كمال الاتفاق[2].

وأولى الأنبياء الكرام بكل فضيلة خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ، وقد ورد في شرف نسبه أحاديث كثيرة؛ منها ما جاء عن واثلة بن الأسقع ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله ﷻ اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"[3][4].

وقال ابن كثير: "وذلك أنه ـ أي إبراهيم ؑ ـ وُلِدَ له لِصُلْبِهِ وَلَدَان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر، ثم إسحاق من سارة، ووُلِد له يعقوب ـ أي من إسحاق ـ ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ۝٧١﴾ (هود)، وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه سائر أسباطهم، فكانت فيهم النبوة وكثروا جدًّا، بحيث لا يعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصَّهم بالرسالة والنبوة، حتى خُتِموا بعيسى ابن مريم من بني إسرائيل.

وأما إسماعيل ؑ فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها، ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الإطلاق وسيدهم وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي ﷺ فلم يوجد من هذا الفرع الشريف، والغصن المنيف، سوى هذه الجوهرة الباهرة، والدرة الزاهرة، وواسطة العقد الفاخرة، وهو السيد الذي يفتخر به أهل الجمع، ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة"[5].

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن شرف النبوة والرسالة يعلو كل شرف، وقد ختم الله ﷻ رسالاته بمحمد ﷺ وجعله شهيدًا على جميع الأمم، وآتاه ما لم يؤت نبيًّا من أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

الخلاصة:

- إن من الثابت لدى المؤرخين أن إسماعيل ؑ قد سكن مكة منذ صغره، وأقام بها طيلة حياته، وتزوج من العرب فصار أبًا لأجيالهم التالية، وقد شهد بذلك القرآن الكريم والسنة المطهرة، كما شهدت بذلك نصوص التوراة؛ ومنها: "سكن إسماعيل في برِّية فاران"، والمعروف أن فاران اسم جبل من جبال مكة.
- ادِّعاء أن قبيلة جرهم أَنِفَتْ أن تصاهر

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مبعث النبي ﷺ.

٢. نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، رفاعة رافع الطهطاوي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٢٠.

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه (٦٠٧٧).

٤. وقفات تربوية مع السيرة النبوية، أحمد فريد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢١.

٥. المرجع السابق، ص٢٢.

إسماعيل عليه السلام؛ لأنه كان عبدًا هجينًا وفقيرًا، ادِّعاء لا أساس له من الصحة؛ لأن المقرر عند اليهود أن الأَمَة تصير حرة إذا استولدها سيدها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد كانت هاجر من أبناء الملوك، ثم أُسِرَت في الحرب، وأُهديت لسارة التي وهبتها لإبراهيم عليه السلام، فهي إذن ليست من نسل الرقيق، ومن ثم يكون إسماعيل عليه السلام حرًّا ابنَ حرٍّ و ابنَ حرة، كما كان غنيًّا موسرًا، فقد قاسمته جرهم مالها مقابل إقامتهم معه في مكة بجوار زمزم، وقد كانت إقامتهم بمكة مرهونة بإرادته، إن شاء أبقاهم، وإن شاء أجلاهم، فكيف يأنفون بعد ذلك من مصاهرته؟!

- إن القول بأن أحد أجداد زوجة إسماعيل عليه السلام الجرهمية كان يُدْعى "عبد المسيح" - هو مجرد رأي لأحد المؤرخين، ولا يُعدُّ حجة ملزمة، ولو افترضنا صحته جدلًا، فلا مانع من ذلك؛ لأن المسيح لفظ بمعنى: المبارَك، أو الممسوح بالزيت الذي باركه الله، وهو وصف يصح أن يتصف به كل نبي يُمسح بهذا الزيت، بل ويتصف به غير الأنبياء أيضًا، فقد كان طالوت ملك بني إسرائيل يُدْعى مسيحًا.

- لقد كان العرب أعلم الناس بالأنساب، فقد كانوا يعلمون حتى أنساب خيولهم وإبلهم، فليس من المعقول أن يجهلوا أنسابهم، وقد كانت هي مدار فخرهم ومادة أشعارهم، وقد كانوا على علم تام بأنهم من نسل إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - ولم يكونوا بحاجة إلى أن يعلموا ذلك من اليهود، بل كان المسلمون يقولون لليهود: إن أبانا وأباكم إبراهيم، ونحن على دينه، فكونوا معنا إخوة في الدين كما نحن إخوة في النسب، وقد ورد في معجم "سميث" للكتاب المقدس أن أبناء إسماعيل قد سكنوا شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية مكوِّنين البذرة الأولى للأمة العربية، والمتأمل يجد أن عادة الختان قد عُرفت لدى العرب من قديم الزمان، وهي من السنن التي سَنَّها إبراهيم عليه السلام، وظلت في أبنائه العرب أولاد إسماعيل، واليهود أبناء إسحاق.

- المقصودون بالإنذار في قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ كما يقول المفسرون: هم قوم النبي ﷺ المخالطون له من قريش وما حولها من قبائل العرب، وهؤلاء لم يكن لهم وجود أيام إسماعيل عليه السلام؛ لأن قريشًا وغيرها من العرب العدنانية إنما هم من أحفاد إسماعيل عليه السلام، فلا علاقة لنذارتهم بإسماعيل ولا بأبيه إبراهيم - عليهما السلام - لبعد الفاصل الزمني.

- لقد أجمعت كتب السيرة وعلماء التاريخ والنسابون على أن محمدًا ﷺ من ولد عدنان، وأنعدنان ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم - عليهما اسلام -، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: "إن الله تبارك وتعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"، وبذلك لا يحق لأحد أن يطعن في انتسابه ﷺ إلى إسماعيل عليه السلام.

الشبهة الثالثة

دعوى أنه ﷺ كان مجهول النسب(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشككين أن النبي ﷺ مجهول النسب؛ ويستدلون على ذلك بأن العرب كانت تطلق كنية "ابن عبد الله" على مَنْ لا يُعرف له نسب، وهو ما كان يُدعَى به النبي ﷺ. مستدلين على هذا بأنه ﷺ لم يخبر بشيء عن مولده، ولا عن نسبه الشريف فيما أُثر عنه من أقوال، وأن مولده ﷺ ونشأته الأولى قد أحاطتهما هالةٌ من الغموض.

وجوه إبطال الشبهة:

١) عبد الله هو اسم والد النبي ﷺ وليس كنيةً تُطلق عليه بوصفه مجهول النسب؛ إذ لم يُعرف عن العرب - أصلًا - أنهم أضافوا اسم "عبد الله" إلى مجهول النسب، وإنما كانوا يطلقون على مجهول النسب: الأبهم أو البهيم.

٢) لقد أخبر النبي ﷺ عن نسبه الشريف مرات عديدة، ولم يعترض عليه أحد من المشركين خاصةً النسّابين وهم أعلم الناس بالأنساب، ناهيك أنهم شهدوا بكرم مَحْتِدِه (عرقه وأصله) وبشرف نسبه.

٣) إن نسبه ﷺ معلومٌ غير مجهول، وقد اتفق عليه النسَّابون العرب، وكل كُتَّاب السِّير، وفي أجداده خير شاهد على علوّ أصله من لدن "معد" مرورًا "بنزار" و"مضر" و"إلياس" و"فهر" و"قُصَي" وانتهاء بـ "عبد المطلب"؛ فكلهم كانوا سادة ذوي همم عالية وأيادٍ بيضاء سابغة على من حولهم، وإليهم الرأي، وبهم المشورة.

التفصيل:

أولا. عبد الله هو اسم والد النبي ﷺ، وليس كنية تُطلق على مجهول النسب:

لقد حرص العرب - حَضَرًا وبدْوًا - على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، اعتزازًا بالدم العربي أن يختلط بغيره، حتى إن النعمان بن المنذر أَبَى أن يزوّج إحدى بناته من كسرى ملك الفرس، وتحمَّل في سبيل ذلك ما تحمَّل، وقد بالغ العرب في التفاخر بالأنساب والأحساب حتى أضاعوا وقتهم فيه، فكان نقد القرآن لهم في هذا الجانب صريحًا في قوله تعالى: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ ﴾ (التكاثر).

ومن فرط محافظتهم على الأنساب حافظوا على أنساب خيولهم الأصيلة، وإبلهم الكريمة، وهو مظهر من مظاهر الاعتزاز بالأنساب[1]، ومن ثم فلا عجب أن نجد بين العرب من اشتهر بمعرفته أنساب العرب، وقبائلها وبطونها وأفخاذها، وهم الذين أُطلق عليهم اسم "النسابون"، وخاصة في الفترة التي سبقت بعثة النبي ﷺ.

وإن من نباهة العرب - على الرغم من أميَّتهم - أن يلاحظوا أثر النسب الحسن في الإنسان، فيحترموا

(*) الفكر الاستشراقي: تاريخه وتقويمه، د. محمد الدسوقي، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٩٩٥م. المستشرقون والإسلام، محمد قطب، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ص٨٦، ٨٧ بتصرف.

صاحب النسب الشريف[1]. على أن قدرًا كبيرًا من هذا التقدير وذاك الاحترام حَظِي به النبي ﷺ بين وجهاء قومه قبل البعثة وبعدها.

وإن من نافلة القول أن نُثْبتَ أن عبد الله هو اسم والد النبي ﷺ وليس كنية تُطلق على مجهول كما زعموا، حيث لم يُعرف عن العرب أنهم أضافوا اسم عبد الله إلى مجهول النسب.

أما ما أثاره المشككون حول نسبة النبي ﷺ إلى عبد الله بن عبد المطلب، وأن اسم عبد الله يضاف إلى مجهول النسب، فهذه دعوى لا تقوم على دليلٍ؛ إذ لم يعرف أحد عن العرب أنهم كانوا يطلقون على مجهول النسب "ابن عبد الله"، وهذه أخبار العرب وتاريخهم وسيرتهم بين أيدينا، ولو كان الأمر كما يزعم هؤلاء لوجدنا الآلاف من مجهولي النسب من العرب أُطلِق عليهم هذا الاسم، وهذا ما لم يكن. نقول هذا على الرغم من تسليمنا بطهارة نسب النبي ﷺ الذي تَنقَّل من أصلاب طيبة إلى أرحام طاهرة من لدن آدم إلى والديه، وهذا بشهادة العرب جميعهم.

أما الاسم الذي كانت تطلقه العرب على مجهول النسب فهو "الأبهم" أو "البهيم"، قال الخطابي: البُهُم بالضم جمع البهيم، وهو المجهول الذي لا يُعرف نسبه، وكانت تطلق على العبيد ومجهولي النسب، ولم تُطْلَق هذه اللفظة على سيد الخلق محمد ﷺ وأوسط العرب نسبًا وحسبًا، وحاشا الرسول ﷺ أن يُطلق عليه مثل ذلك.

ومما يؤكد أن عبد الله هو اسم والد النبي ﷺ الحقيقي وليس كنية تُطلق على مجهول النسب قصة زواج عبد الله من آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ، فقد كانت قصة زواج عبد الله من آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ معلومة لدى العرب وقد تناقلتها كتب التاريخ والسير، ونذكر منها أن عبد الله كان أحسن رجل رُئي في قريش، وكان ذا عفة وسماحة، وكانت ولادته نحو سنة ٥٤٥م، ولقد خرج عبد المطلب بعبد الله يريد تزويجه، حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة، وهو يومئذ سيد بني زهرة سنًّا وشرفًا، فزوَّجه ابنته آمنة بنت وهب، وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسبًا وموضعًا، فحملت برسول الله ﷺ.

وبعد زواج عبد الله بقليل خرج من مكة قاصدًا الشام في تجارة، وبعد رجوعه منها نزل بالمدينة وهو مريض، وبها أخواله من بني النجار، فأقام عندهم شهرًا وهو مريض وتُوفِّي لشهرين من حَمْل زوجته بابنه محمد ﷺ، ودُفن في دار النابغة (رجل من بني عدي بن النجار) وله خمس وعشرون سنة - وهذا هو المشهور - وقيل: ثمان وعشرون سنة، وترك عبد الله جاريته أم أيمن بركة الحبشية، وخمسة جمال وقطعة من غنم، وقد رثته آمنة بهذه الأبيات:

دَعَتْهُ المنَايَا دَعْوةً فأجابها

وجاوَرَ لَحْدًا خارجًا في الغماغم[2]

عَشِيَّةَ راحوا يحملون سريرَه

تَعَاوَرَه[3] أصحابُه في التزاحُم

---

١. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، د. حنان اللحام، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص١٩.

٢. الغماغم: الأغطية.

٣. تَعاوَر: تداول.

فـإن يَـكُ غـالَته[1] المنايـا ورَيبُهـا
فقـد كـان مِـعطاءً كثـيرَ الـتراحُم

إن آمنة وعبد الله لم يلدا غير رسول الله ﷺ ولم يتزوج عبد الله غير آمنة، ولم تتزوج آمنة غيره[2].

من خلال ما سبق يتضح لنا بطلان الزعم أن النبي ﷺ كان مجهول النسب كما يدعي هؤلاء®.

ثانيًا. لقد أخبر رسول الله ﷺ عن نسبه الشريف غير مرة ولم يعترض عليه أحد من أعدائه المشركين.

إذا تذكَّرنا ما كان من اهتمام العرب بالأنساب واعتزازهم بها وافتخارهم بذلك، وإذا تذكرنا ما كان للنبي ﷺ في هذا الشأن، قلنا: إنما أُعْطي النبي ﷺ هذا الامتياز في النسب؛ لأن هذا ما كان يناسب قومه وعصره، إذ إنه وُلِدَ في قوم هم أكثر الناس اهتمامًا بالأنساب، غير أن أحدًا من هؤلاء لم يفكر في أن يطعن في نسبه ﷺ، ولو وجدوا مَغْمَزًا في نسبه ما تورَّعوا عن فضحه وإظهاره.

فعن المطلب بن أبي وداعة قال: جاء العباس إلى رسول الله ﷺ فكأنه سمع شيئًا، فقام النبي ﷺ على المنبر فقال: "من أنا"؟ فقالوا: أنت رسول الله ﷺ، قال: "أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم، ثم جعلهم فرقتين، فجعلني في خير فرقة، ثم جعلهم قبائل، فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتًا، فجعلني في خيرهم بيتًا، فأنا خيرهم نفسًا وخيرهم بيتًا"[3].

وليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشككون من أن النبي ﷺ لم يتحدث عن نسبه قط؛ فالأحاديث التي تكلم فيها النبي ﷺ عن نسبه ـ خلاف ما سبق ـ كثيرة ومتواترة نذكر منها ما يأتي:

- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "بُعِثت من خير بني آدم قرنًا فقرنًا، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه"[4].
- وعن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"[5][6].

ومعلوم أن للنبي ﷺ من طهارة الأصل ورفعة النسب، وسُمُوِّ الحسب ما يتسامى به من مفاخر آبائه من الكرم والمال والشجاعة؛ فلم يكن أحد من أصوله ﷺ مُتَّهمًا بارتكاب فاحشة أو الوقوع في نقيصة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128)﴾ (التوبة)، أي: نسبًا وصهرًا وحسبًا،

---

1. الغِيلَة: الغفلة.
2. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص16.

® في "اهتمام العرب بمعرفة أنسابهم" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثانية، من هذا الجزء.

3. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الشاميين، حديث عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ﷺ (17552)، والترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب (97)، رقم (3532)، وصححه الألباني في المشكاة (5757).
4. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (3364).
5. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه (6077).
6. الجامع لأوصاف الرسول ﷺ، ابن العاقولي، المكتب الثقافي، القاهرة، ط1، 1423هـ/ 2002م، ص18: 21.

وقُرِئَ: "مِن أنْفَسِكُم"، أي: أشرَفِكم وأطهَرِكم وأعَفِّكم عن الفاحشة والزنا[1].

وكما أخبر النبي ﷺ عن عراقة نسبه الشريف ولم يعترض عليه أحد من المشركين، ولم يردُّوا عليه قوله، أخبر النبي ﷺ كذلك بأن أصوله كلها طاهرة؛ حيث وُلِدَ ﷺ من نكاحٍ صحيح من لدن آدم عليه السلام، ولم يعرف أحد من أجداده السفاحَ، ولم يزل الله ينقله من الأصلاب الطاهرة الحسيبة إلى الأرحام العفيفة النظيفة، وما تسلّل شيء من أدران الجاهلية إلى شيء من نسبه. يقول رسول الله ﷺ: "خرجت من نكاح ولم أُخرج من سِفَاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي لم يُصبني من سفاح الجاهلية شيء" [2].

على أن أبرز هذه المواقف ما كان من النبي ﷺ يوم حنين؛ فقد وقف النبي ﷺ يومها معلنًا: "أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب" [3]. وعلى الرغم من هذا لم يردّ قوله أحدٌ من المشركين ولم يطعنوا في نسبه الشريف؛ لأنهم يعرفون جيدًا عراقة نسبه الشريف، وهي علامة من علامات نبوته ﷺ، فمن علامات النبوة أن يكون الأنبياء ذوي أحساب في قومهم، وأَولَى الأنبياء الكرام بكل فضيلة خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ، وقد أعلن النبي ﷺ هذا النسب مرات عديدة ـ كما قلنا ـ فلا مجال لقائل يدَّعي أن النبي ﷺ لم يتحدث عن نسبه.

ولم يكن إقرار المشركين له عفويًّا، فإن عراقة هذا النسب وأصالته وشرفه لم تكن عنهم ببعيد، وأدل شاهد على هذا شهادة بعض أعدائه من مشركي قريش، ومعلوم أنهم شهدوا بشرف نسبه ﷺ جميعًا حتى أشد الناس عداوة له في ذلك الوقت ـ وهو أبو سفيان بن حرب قبل أن يسلم ـ عندما سأله هرقل ـ ملك الروم ـ عن نسب النبي ﷺ فقال: كيف نسبه فيكم؟ قال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب، ثم قال هرقل: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها[4][5].

والذي ساقه الله على ألسنة أعدائه فيه خير شاهد وأوضح دليل على طهارة نسبه ﷺ، وصدق الشاعر إذ يقول:

وشَمَائِل شَهِدَ العَدوُّ بِفَضْلِها

والفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الأَعْدَاءُ®

ثالثًا. إن نسب النبي ﷺ معلوم غير مجهول، وقد اتفق عليه نسابو العرب قاطبة:

إذا نظرنا إلى نسب النبي ﷺ نجده من أرفع العرب نسبًا، ومن أشراف قومه، فقد كان ﷺ من سلالة آباء

---

1. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٧، ١٨ بتصرف يسير.
2. حسن: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الفضائل، باب ما أعطى الله تعالى محمدًا ﷺ (٣١٦٤١)، والطبراني في المعجم الأوسط، الجزء الخامس، من اسمه عبد الرحمن (٤٧٢٨)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٢٢٥).
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب (٢٧٠٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (٤٧١٥).
4. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).
5. وقفات تربوية مع السيرة النبوية، أحمد فريد، مرجع سابق، ص٢١ بتصرف.

® في **"انحدار نسب النبي ﷺ من أصل عريق"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة السابعة، من هذا الجزء.

كرام، كلهم سادة وقادة، ولهم مكان مكين ومقام بين العرب عظيم، وقد اشتُهِروا بالحكمة والشجاعة والإقدام والكرم.

وقد أجمع نسَّابو العرب وعلماء الحديث على أن نسب النبي ﷺ من أشرف الأنساب؛ فهو "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مُرَّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فِهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدْركة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن مَعد بن عدنان".

إن نسب محمد ﷺ لا يختلف النسَّابون فيه - كما هو مذكور ها هنا - إلى معد بن عدنان، وإنما اختلافهم من عدنان إلى إسماعيل ، لكنهم أجمعوا على أنه ينتهي إلى إسماعيل.

فعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"[1][2].

"وهذا الحديث يصف لنا كيف أُعِدَّ النبي ﷺ وكيف كُرِّرَ اصطفاؤه - مرارًا - في النسب والخُلُق، وتم تكرير الاصطفاء عبر مراحل، حتى كان محمد ﷺ صفوة الصفوة من عباد الله خَلْقًا وخُلُقًا" [3].

هذا وقد كان أجداد النبي ﷺ كلهم من السادة والقادة، ولهم مكان ومقام بين العرب عظيم، وقد كانت مناقبهم وأخبارهم معلومة لكل العرب لم يطعن فيها أحد:

- فقد كان "مَعد" صاحب حروب وغارات على بني إسماعيل، ولم يحارب أحدًا إلا رجع بالنصر، وهو أبو العرب.
- وكان "نزار" أجمل أهل زمانه وأرجحهم عقلًا.
- وكان "مُضر" جميلًا كذلك، لم يره أحد إلا أحبه، ومن حكمه المأثورة: "خير الخير أعجله، فاحملوا أنفسكم على مكروهها، واصرفوها عن هواها فيما أفسدها، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فُوَاق"[4]. ومضر أول من حَدَا للإبل، وكان من أحسن الناس صوتًا.
- وكان "إلياس" في العرب مثل لقمان الحكيم في قومه، ومن حكمه: "من يزرع خيرًا يحصد غِبْطَة[5]، ومن يزرع شرًّا يحصد ندامة".
- وأما "فهر" فإليه جماع قريش، ومن كان فوق فهر فلا يقال له: قرشي، بل يقال له: كناني، واسمه قريش، وكان "فهر" كريمًا يفتش عن حاجة المحتاج فيسدُّها بماله.
- و"كعب" وهو الجد الثامن لعمر بن الخطاب ، كان يجمع قومه يوم العَروبة - وهو يوم الجمعة - فيعِظُهُم ويذكِّرهم بمبعث النبي ﷺ وينبئهم بأنه سيكون من ولده ويأمرهم باتباعه.
- و"مُرّة" هو الجد السادس لرسول الله ﷺ، ولأبي

---

1. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي وتسليم الحجر عليه (٦٠٧٧).
2. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص١١.
3. هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، د. حنان اللحام، مرجع سابق، ص١٩.
4. الفُواق: ما بين الحَلْبَتين.
5. الغِبْطة: حُسن الحال والسعادة.

بكر الصديق ﷺ، وفي "مُرة" أيضًا يجتمع نسب الإمام مالك بنسب الرسول ﷺ.

- و"كلاب" اسمه حكيم، وقيل عروة، ولقِّب بكلاب لأنه كان يكثر الصيد بالكلاب، وهو الجد الثالث لآمنة أم النبي ﷺ، فهو ملتقَى نسب أبيه بنسب أمه، وقيل: إنه أول من سمَّى الأشهر العربية المستعملة الآن.

- و"قُصي" ولد حوالي سنة ٤٠٠م اسمه زيد، ويقال له "مُجمِّع"، وبه جمع الله تعالى القبائل من قريش في مكة بعد تفرقها فأنزلهم أبطح مكة، وكان بعضهم في الشِّعاب ورءوس الجبال بمكة، فقسَّم منازلهم، فسُمِّي مُجمِّعًا، وهذا عمل جليل وفضل عظيم لا يتم إلا على يد ذوي النفوس الأبيّة، والهمم العالية، و"قصي" أول من أوقد نار المزدلفة وكانت تُوقَد حتى يراها من دُفِعَ من عرفة، وهو أول من جدّد بناء الكعبة من قريش بعد الخليل إبراهيم ﷺ، وقيل: إنما لقِّب قصيًّا؛ لأنه أُبعد عن أهله ووطنه مع أمه بعد وفاة أبيه، فإنها تزوجت ربيعة بن حَرَام فرحل بها إلى الشام. وفيه يقول حُذافة بن غانم:

أبوكم قُصَي كان يُدعَى مُجمِّعًا

به جَمَعَ الله القبائل من فِهرِ

وكان إلى "قصي" في الجاهلية حجابة البيت، وسقاية الحاج، وإطعامه المسمَّى بالرِّفادة، والندوة ـ وهي الشورى ـ وكان لا يتم أمر إلا في بيته، ولا يُعقد عقد نكاح إلا في داره، ولا يُعقد لواء حرب إلا فيها، فكان بيته عبارة عن ناد للعرب، بل هو ملجؤهم في جميع المشكلات، سواء كانت المشكلات قومية أو شخصية أو أية مشكلات أخرى.

ولما حضرته الوفاة نهى بنيه عن الخمر، ولا بد أنه أدرك مضرَّتها فنهى أحب الناس إليه عن شربها، وتوفي قصي عام ٤٨٠م عن ثمانين عامًا.

ومن كلامه الدال على تجاربه ورجاحة عقله: "من أكرم لئيمًا شاركه في لؤمه، ومن استحسن قبيحًا تُرك إلى قبحه، ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان".

وإذا كنا نحكم على الإنسان بكلامه، فهذا يدل على أن قصيًّا كان يبغض اللؤم والقبح بغضًا شديدًا، وكان شجاعًا كارهًا للغرور والحسد.

- و"عبد مناف" اسمه "المغيرة"، وكان يقال له: "قمر البطحاء" لحسنه وجماله، وكانت قريش تسميه "الفيّاض"؛ لكرمه، وهو الجد الرابع لعثمان بن عفان والجد التاسع للإمام الشافعي.

- و"هاشم" اسمه "عمرو بن عبد مناف"، ويقال له: "عمرو العلا"، لعلو رتبته، وهو أخو عبد شمس، وقد ساد قومه بعد أبيه عبد مناف، وقد وقعت مجاعة شديدة بسبب جدب شديد حصل لهم، فخرج هاشم إلى الشام فاشترى دقيقًا وكعكًا، وقدم به في الموسم فهشَّم الخبز والكعك ونحر جُزُرًا، وجعل ذلك ثريدًا وأطعم الناس حتى أشبعهم فسُمِّي بذلك "هاشمًا"، وكان يقال له: "أبو البطحاء" و"سيد البطحاء"، ولم تزل مائدته منصوبة في السرّاء والضرّاء، وكان موسرًا يؤدي الحق ويؤمّن الخائف، وهو أول من سنَّ الرحلتين لقريش ـ رحلتا الشتاء والصيف ـ؛ فكان يرحل في الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة، وفي الصيف إلى الشام.

قال الشاعر:

عمرو الذي هَشَم الثَّرِيدَ[1] لقومه
ورجالُ مكة مُسْنِتُون[2] عِجاف
سُنَّتْ إليه الرِّحلتانِ كلاهما
سَفَرُ الشتاء ورحلةُ الأصياف

وقد جاء ذكر الرحلتين في القرآن الكريم في سورة قريش، قال ﷻ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ (قريش)، ومات هاشم بغزة من أرض الشام تاجرًا سنة ٥١٠م.

- و"عبد المطلب" أمه سلمَى بنت زيد النجارية، واسم عبد المطلب "شيبة الحمد"؛ لأنه ولد وله شيبة، مع رجاء حمد الناس له، وكان عبد المطلب مجاب الدعوة، وكان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رءوس الجبال، وهذا إحساس لطيف ورفق بالحيوان الأعجم؛ ولذا كان يقال له: "مُطعِمُ الطير". ويقال له: "الفيَّاض"، وكان مَفْزَع قريش في النوائب، وملجأهم في الأمور، وشريفهم وسيدهم كمالًا وفعالًا، وهو أول من تحنَّث ـ تعبد ـ بحراء، كان إذا دخل شهر رمضان صعد حراءً وأطعم المساكين، وعاش مائة وعشرين سنة أو أكثر، وقد انتهت إليه الرياسة بعد عمه المطلب، وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيَّات الأمور.

وقال دغفل النسَّابة: إن "عبد المطلب" كان أبيض، مديد القامة، حسن الوجه، في جبينه نور النبوة وعز الملك، يُطيف به عشرة من بنيه كأنهم أُسْدُ غاب.

وهو الذي كشف عن زمزم ـ بئر إسماعيل ـ وأقام سقايتها للحجاج؛ فكانت له فخرًا وعزًّا على قريش، وعلى سائر العرب، وكان يكرم النبي ﷺ ويعظمه وهو صغير ويقول: "إن لابني هذا لشأنًا عظيمًا"؛ وذلك مما كان يسمعه من الكهان والرهبان قبل مولده وبعده، وكانت كنية عبد المطلب أبا الحارث.

ويؤثر عن عبد المطلب سنن جاء القرآن والسنة بها، منها: الوفاء بالنذر، والمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموءودة، وتحريم الخمر والزنا والحد عليهما، وألَّا يطوف بالبيت عُريان، وتعظيم الأشهر الحرم، وهو أول من سنَّ دِية النفس مائة من الإبل فَجَرَتْ في قريش، ثم نشأت في العرب وأقرها رسول الله ﷺ.

كانت هذه إلمامة سريعة ببعض أخبار جدود النبي ﷺ ومناقبهم، وهي كافية لإثبات عظيم قدره وعراقة أصله وكريم نسبه ﷺ؛ وتتمة للفائدة نختم بطرف من إحصاء بعدد أعمامه وعماته وأسماء كل منهم من أولاد جده عبد المطلب.

فأولاد عبد المطلب عشرة ذكور: عبد الله ـ أبو النبي محمد ﷺ ـ وأبو طالب ـ واسمه عبد مناف ـ والزبير (أمهم فاطمة بنت عمرو المخزومية)، والعباس ـ جد الخلفاء العباسيين ـ وضرار (أمهما نتيلة العمرية)، وحمزة والمقوم (أمهما هالة بنت وهب)، وأبو لهب ـ وهو

---

١. الثَّرِيد: الطعام الذي يُصنع بخلط اللحم والخُبز المفتَّت مع المَرَق، وأحيانًا يكون من غير اللحم.

٢. مُسْنِتُون: أصابهم القحط وقلة الخير.

عبد العُزَّى - (أمه لُبنَى الخُزاعية)، والحارث (أمه صفية من بني عامر بن صعصعة)، والغيداق - واسمه حجل - (أمه ممنعة).

وست نسوة وهن: صفية وأم حكيم البيضاء، وعاتكة وأميمة وأروَى وبرة.

أما عبد الله فهو أبو الرسول الله ﷺ، ويُكنَّى: أبا قثم. وقيل: أبا محمد. وقيل: أبا أحمد، وهو أصغر أولاد عبد المطلب.

وأمرُ عبد الله لا يُنكر، وقصته قد اشتهرت لدى العرب قاطبة، فهو الذبيح الثاني بعد الذبيح الأول وهو إسماعيل ﷺ، وقد روى قصته ابن إسحاق والطبري وابن الأثير وابن سعد؛ حيث نذر أبوه عبد المطلب أحد أبنائه للذبح إذا بلغ عددهم عشرة، حين لقي من قريش العَنَتَ[1] في حفر بئر زمزم، ولما بلغ عدد أولاد عبد المطلب عشرة وعرف أنهم سيمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه، فضرب القداح على أبنائه فوقع الاختيار على عبد الله أكثر من مرة، فلما همَّ بذبحه أشار عليه بعض العرب أن يفديه بالإبل، حتى وصل فداؤه مائة من الإبل، فَنُحِرَت ولم يُصدَّ عنها إنسانٌ ولا سبعٌ[2].

هذا هو نسب النبي من قِبَل أبيه وأجداده، لم يجهله أحد، أما نسبه من ناحية أمه: فهي آمنة بنت وهب بن مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر، قال ابن هشام بعد أن ذكر هذا النسب: "فرسول الله ﷺ أشرف ولد آدم حسبًا، وأفضلهم نسبًا من قِبَل أبيه وأمه ﷺ"[3].

ومن ثم فلا يحق لأحد أن يطعن في أصل النبي ﷺ، أو يشكك في عراقة نسبه الشريف، وقد أجمع على هذا النسب النسَّابون وعلماء الحديث والسير، وذكروا للنبي ﷺ عشرين جدًّا متفقًا عليهم جميعًا.

الخلاصة:

- لم يُعرَف عن العرب أنهم أضافوا اسم عبد الله إلى مجهول النسب، ولو كان الأمر كذلك لوجدنا الآلاف ممن أُطلق عليهم هذا الاسم، ولكنهم كانوا يطلقون على مجهول النسب اسم: "الأبهم" أو "البهيم" وهو الذي لا يُعرف نسبُه.
- لقد ولد النبي ﷺ في بيئة تقيم للنسب شأنًا عظيمًا؛ ولهذا فقد أخبر ﷺ عن نسبه مرات كثيرة ولم يعترض عليه أحد من أعدائه المشركين وبخاصة النسابين منهم، بل شهدوا له بعراقة نسبه وأصالته.
- لقد انحدر النبي محمد ﷺ من نسل أشراف كرام بدءًا بجده "عدنان" ومرورًا بـ "معد" و"مضر" وانتهاءً بـ "عبد المطلب"، على أن هؤلاء مع ما لهم من النسب الشريف واليد السابغة والرأي السديد والمشورة الصائبة في زمانهم وبين معاصريهم، قد ازدادوا شرفًا بانحدار النبي الكريم القرشي من أصلابهم، وصدق ابن الرومي إذ قال:

وَكَم أبٍ قد عَلَا بابنٍ ذُرا شَرَفٍ
كما عَلَا برسولِ الله عَدْنانُ

---

١. العَنَت: المشقَّة والشدة.

٢. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق ص١١: ١٥ بتصرف.

٣. السيرة النبوية: دراسة تحليلية، محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، الأردن، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص١٠٠.

الشبهة الرابعة

التشكيك في تاريخ ميلاد النبي ﷺ وأحداث حياته قبل البعثة(*)

مضمون الشبهة:

يشكك بعض الطاعنين في تاريخ مولد النبي ﷺ، ومعالم حياته قبل البعثة، ويستدلون على هذا بأن القرآن الكريم لم يسجل حدث مولده ﷺ، ولم يُشرْ إليه، كما يزعمون أن اعتقاد المسلمين أن عام ٥٧٠م (سنة ميلاده ﷺ) هو عامُ الفيل ليس صحيحًا تاريخيًّا؛ لأن أبرهة الحبشي على حد علمهم كان مشغولًا عامئذٍ بقتال الفرس الذين غزوا اليمن في هذا العام. ويواصلون تشكيكهم بأن حياة النبي ﷺ قبل البعثة كانت غامضة التفاصيل، ومما يؤكد هذا في ظنهم أن القرآن الكريم قد اقتصر منها على الإخبار فقط بيُتْمِه وفقره.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لم يسجل القرآن تاريخ ميلاد النبي ﷺ وتفاصيل حياته قبل البعثة؛ لأن القرآن ليسسجلًا لرصد بيانات الأحوال الشخصية، ثُمَّ إن أقدار الرجال تُقاس بإنجازاتهم وآثارهم لا بتواريخ ميلادهم، فضلًا عن أن الاختلاف في تاريخ ميلاده ﷺ يُعَدُّ ظاهرة طبيعية في معظم أحداث العالم القديم، وقد وقعت لغيره من الأنبياء كعيسى عليه السلام.

٢) ولادة النبي ﷺ في عام الفيل ثابتة تاريخيًّا، ومُجْمعٌ عليها، ولم يكن آنئذ قتال بين الفرس والأحباش، وإنما قضى الفرس على الأحباش عام ٥٧٥م.

٣) حياة النبي ﷺ قبل البعثة معروفة التفاصيل، وقد نقلها الرواة وكُتَّاب السِّير بطرق صحيحة ومتواترة.

التفصيل:

أولا. القرآن ليس كتاب تاريخ لحياة النبي ﷺ ولا سجلا لرصد الأحوال الشخصية:

لم يسجل القرآن تاريخ ميلاد النبي ﷺ وتفاصيل حياته قبل البعثة؛ لأن القرآن ليس سجلًّا لرَصْد بيانات الأحوال الشخصية، كما أن أقدار الرجال لا تقاس بتواريخ ميلادهم، وإنما تُقاس بإنجازاتهم وآثارهم، وكذلك فإن هذا الاختلاف في تاريخ الميلاد النبوي ظاهرة طبيعية في ذلك الزمان وقد وقعت لغيره من الأنبياء كعيسى عليه السلام.

ويخطئ من يظن أن القرآن لا بد أن يحتوي على كافة المعلومات التاريخية مهما كانت بعيدة عن موضوعه وهدفه، فالقول بأن القرآن الكريم قد أغفل ذكر تاريخ مولد النبي ﷺ، وحالة أسرته، وحياته قبل البعثة ـ اللهم إلا ما ذكره من أنه كان يتيمًا وأن الله عصمه من الخطأ، وأنه أغناه بعد فقره ـ قول يدعو إلى العجب؛ لأن القرآن الكريم أُنزل إلى الناس باعتبار أنه كتاب جامع لتعاليم الإسلام وجوانبه المتعددة، لا باعتبار أنه كتاب تاريخ لحياة محمد ﷺ.

إن الذي حدا بهؤلاء أن يرتكبوا هذا الشطط، هو مُضِيُّهم مع عقيدتهم الموروثة، تلك العقيدة التي تزعم

(*) مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. موجز دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة مستشرقين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات العربية المتحدة، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٨م.

أن محمدًا ﷺ كان مدَّعيًا للنبوة، وأنه لم يكن نبيًّا يُوحَى إليه، وأن محمدًا كتب القرآن بيده؛ ولهذا يُعاب عليه أن يغفل مثل هذه الإشارات عن حياته.

ولو حكَّم هؤلاء المتوهمون العقل؛ لعلموا أن هذا دليل على أن هذا الكتاب ليس من صنع البشر، ولكنه كلام رب البشر.

وإذا كان هؤلاء يعيبون على القرآن أنه لم يذكر تفاصيل حياة محمد ﷺ ويتَّخذون هذا ذريعة للتشكيك فيها، فهل ذكرت التوراة تفاصيل حياة موسى عليه السلام وتاريخه، غير ما كتبه خلفاؤه بعد وفاته؟ وهل ذكر الإنجيل تفاصيل حياة عيسى عليه السلام في كل ما قاله؟ وهل يستطيع أحد هؤلاء أن يأتينا بكتاب ديني واحد يذكر حياة الرسول الذي جاء به بكل تفاصيلها؟!

غاية ما في الأمر: إن اعْتُبِرَت هذه الإغفالات عيوبًا فهي كذلك بالنسبة لكتاب وضعه صاحبه لبيان تاريخه الشخصي، ولكنها لا تعيب كتابًا وُضِعَ للناس كافةً ليخرجهم من الظلمات إلى النور إلى يوم الدين[1].

الاختلاف في تاريخ ميلاد النبي ﷺ ظاهرة طبيعية في ذلك الزمان:

ثم إن تاريخ الميلاد - في ذاته - ليس شيئًا جليلًا بقدر جلالة الميلاد نفسه، لقد ولد الهدى، وأَذِنَ الله للنور أن يغمر الدنيا، ولا يضرّنا بعدُ أن يكون الهدى وليد أمس، أو قبل أمس.

ثم إن الاختلاف في أعوام وأشْهُر الميلاد والوفاة أمر معترف به بين علماء التاريخ، وكان ذلك شأنًا لكل الأحداث في العالم القديم، وهذا الاختلاف نجده في سنة ميلاد عيسى عليه السلام، فبينما يحدِّده متَّى في زمن هيردوس الكبير - أي قبل سنة ٤ ق. م -، يحدده لُوْقَا في زمن كيرينيوس والي سوريا - أي ليس قبل سنة ٦م أو ٧م، أي أن هناك ١٠ سنوات - تقريبًا - فرقًا في تحديد زمن الميلاد.

ولنا أن نتساءل: ماذا تقولون في قول متَّى: إن يسوع انحدر من سليمان بن داود، وقول لوقا: إنه من ناتان بن داود الأخ الشقيق لسليمان؟ وماذا تقولون في اسم خطيب أم الإله - كما تزعمون - الذي سمَّاه متى: يوسف بن يعقوب، وسمَّاه لوقا: يوسف بن هالي؟

وعليه فكيف يُطلب من قوم بيننا وبينهم أكثر من ألف وأربعمائة عام - ولا يعرفون القراءة والكتابة - سجلٌّ بالأحداث التاريخية، وإن كان ما أتوا به أقصى ما يُطْلب منهم؛ إذ إننا - مع كوننا في عصر الحاسوب والسجلات وغيرهما - إذا مضى على تاريخ وفاة شخص منّا عشرة أعوام اندثرت آثاره وكأنه لم يكن؟!

إن المؤرخين يعلمون أن العرب كانت تؤرِّخ للسنين بالأحداث العظيمة، فكانت تؤرخ بموت قُصِي بن كلاب لجلالته، فلما كان عام الفيل أرَّخت به لأهميته؛ إذ لو تغلب أبرهة على قريش، وتم له هدم الكعبة؛ لدخلت الديانة المسيحية مكة وأُرْغِمَت العرب على اعتناقها، ومن ثَمَّ فلا توجد أي غضاضة في أن يختلف المؤرخون في تحديد تاريخ مولده ﷺ بدقة متناهية؛ لأن هذه الدقة المتناهية لا يمكن أن يوصف بها أي حدث في ذلك الوقت من الزمان، وحسبنا أن يكون الاختلاف

---

١. مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، مرجع سابق، ص٧٠: ٧٣ بتصرف.

حول مولده ﷺ لا يتجاوز أيامًا فحسب، لا في شهور وأعوام كغيره من الحوادث.

ثانيًا. ولادة النبي ﷺ في عام الفيل ثابتة تاريخيًا، ولم يكن آنئذ قتال بين الفرس والأحباش، وإنما قضى الفرس على الأحباش سنة ٥٧٥م:

لا خلافٌ بين العلماء والمؤرخين في أن النبي ﷺ وُلِدَ عام الفيل الذي وقعت فيه تلك المعجزة الباهرة التي كانت إرهاصًا بميلاد النبي ﷺ. وقبل الحديث عن إجماع المؤرخين وعلماء السِّير على أن مولد النبي ﷺ كان في عام الفيل، لا بد أن نشير إلى هذا الحدث العظيم كما رَوَتْه كتب السيرة، وهذه خلاصته:

لما ملكت الحبشة اليمن وصار المُلك إلى أبرهة، بَنَى كنيسة عظيمة بصنعاء يقال لها "القُلَّيْس"، وقصد أن يَصْرِف حج العرب إليها ويُبطِل الكعبة، فلما تحدَّث العرب بذلك غضب رجل من النُّسْأَة[1].

فخرج حتى أتى القُلَّيْس وتغوَّط[2] فيها ليلًا، ثم خرج فَلَحِق بأرضه، فلما أُخبر بذلك أبرهة غضب، وحلف ليسيرنَّ إلى البيت الحرام حتى يهدمه، وسُمِّي هذا العام بـ "عام الفيل"، وأرسل أبرهة أحد أتباعه إلى مكة، وقال له: سَلْ عن سيد أهل هذا البلد وشريفهم، فسأل فقيل له: عبد المطلب، فقال له: إن الملك يقول: إني لم آتِ لحربكم، وإنما جئت لهدم هذا البيت. فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربًا، ولا لنا بذلك طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم، فإن لم يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يُخَلِّ بينك وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه، ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة، والتحرُّز بالجبال والشِّعَاب تخوّفًا عليهم من جيش أبرهة، وقد كانوا أكثر من قريش عددًا.

فلما تهيَّأ أبرهة لدخول مكة، وهيَّأ فيله الأعظم "محمودًا"، وهو مجمع على هدم البيت، فكانوا كلما وجهوا الفيل إلى مكة برك ولم يبرح، وإذا وجَّهوه إلى سائر الجهات قام يُهَرْوِل، وبينما هم كذلك أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل من البحر، مع كل طائر ثلاثة أحجار، واحد في منقاره واثنان في رجليه فتقذفهم بها، لا تصيب أحدًا منهم إلا هلك، وأُصيب أبرهة بتساقط أعضائه، ثم قدموا به صنعاء، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه.

ونظرًا لأهمية هذا الحادث صار العرب يؤرخون به؛ إذ لو تغلب أبرهة على قريش، وتم له هدم الكعبة لأدخلت الديانة المسيحية مكة، وأُرْغِم العرب على اعتناقها، وكانت قريش تُؤرِّخ السنين بموت قُصَي بن كلاب لجلالة قصي، فلما كان عام الفيل أرَّخت به[1].

إجماع الرواة وعلماء السِّير على ميلاد النبي ﷺ في عام الفيل:

هناك العديد من الروايات التي تُثبت ميلاد النبي ﷺ في عام الفيل نذكر منها ما يأتي:

- عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: وُلد

---

١. النُّسْأة: من يقومون بتأخير الشهر الحرام عن موعده في الموسم في مكة.

٢. تغوَّط: أحدث؛ أي: قضى حاجته.

١. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص١٧، ١٨ بتصرف.

النبي ﷺ عام الفيل[1].

- قال ابن إسحاق: وكان مولده ﷺ عام الفيل، وهذا هو المشهور عند الجمهور، وقال إبراهيم بن المنذر الحزامي: وهو الذي لا يشك فيه أحد من علمائنا، وقال خليفة بن خياط: والمُجْمَع عليه أنه ﷺ وُلد عام الفيل[2].

- وعن أبي الحويرث قال: سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقُباث بن أشيَم: يا قباث، أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ قال: رسول الله ﷺ أكبر مني، وأنا أسنُّ منه، ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، ووقَفت بي أمِّي على روث الفيل محيلًا أعقله.

- وعن محمد بن جبير بن مطعم قال: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل؛ وكانت عُكَاظ بعد الفيل بخمس عشرة سنة، وبُنِي البيت على رأس خمس وعشرين سنة من الفيل، وتنبَّأ رسول الله ﷺ على رأس أربعين من الفيل[3].

ومن ثم فلا خلاف حول مولد النبي ﷺ في عام الفيل، إذ اتفقت السُّنَّة المتواترة على ذلك، وقد شهد بذلك غير المسلمين، فقد ذكر مونتجمري وات في كتابه "محمد في مكة" ما نصُّه: "وُلِد محمد ﷺ في عام الفيل عام حملة أبرهة غير الناجحة على مكة، وكان ذلك في حوالي سنة ٥٧٠م تقريبًا"[4].

وليس من قبيل المصادفة أن يولد النبي ﷺ في عام الفيل، بل إن ميلاده في هذا العام قدر محتوم، وفي هذا العام الذي ولد فيه النبي ﷺ من الإرهاصات التي تبشر بنبوته ما لا يستطيع أحد أن ينكرها، فالنبي ﷺ سيأتي إلى هذا العالم بما يُصْلحه، ويخبر الناس أن ذلك وحيٌ يُوحَى إليه من الله ﷻ، ولما كان الإنسان أكثر شيء جدلًا، فإنه لن يقبل بسهولة ما يأتيه به النبي ﷺ من الأمور التي من شأنها أن تصلحه، وإنما تأخذه اللجاجة[5] إلى حد أنه يطلب على ذلك دليلًا يعرف به صدق هذا النبي في مدَّعاه، ولن يكون هذا الدليل إلا أمرًا خارقًا للعادة، متأبيًا على النواميس التي من شأنها أن تربط بين الأشياء برباط سببي[6].

وليس في هذا العام من حدث نعلمه سوى ميلاد هذا النبي العظيم ﷺ الذي سيوصف بأنه خاتم النبيين، وستكون دعوته تلك مؤيَّدة بمثل هذا النوع من خوارق العادات.

ومن ثم فإننا نقول: إن النبي ﷺ قد ولد في عام الفيل بيقين، ليكون هذا الحدث تمهيدًا لنبوته ﷺ، وهو إرهاص قد شهده - على مرأى العين - شيوخ وفتيان

١. صحيح: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باب العين، أحاديث عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف (١٢٤٣٢)، والحاكم في مستدركه، كتاب تواريخ المتقدمين من الأنبياء والمرسلين، ذكر أخبار سيد المرسلين وخاتم النبيين (٤١٤٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٥٢).

٢. السيرة النبوية، ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣م، ج١، ص٢٠١: ٢٠٣ بتصرف.

٣. دلائل النبوة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، علَّق عليه: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٧٥: ٧٨ باختصار.

٤. محمد في مكة، مونتجمري وات، ترجمة: عبد الرحمن الشيخ، حسين عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠٠٢م، ص٩٣.

٥. اللجاجة: شدة الخصومة.

٦. وُلد الهدى، د. طه حبيشي، مكتب الزهراء، مصر، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٧.

وصبيان، وكثير منهم سيعيش ليشهد نبوة هذا النبي العظيم، وما يظهر على يديه من معجزات حسية ومعنوية تؤكد صدق ما ادعاه، فلننظر إلى هذا المولد باعتباره حدثًا عظيمًا في عام متميز، بل في زمان متميز[1].

وعليه فلا مجال للتشكيك أو الطعن في مولد النبي ﷺ في هذا العام، الذي عظمته العرب وسمَّته عام الفيل، الموافق لعام ٥٧٠ من ميلاد المسيح عليه السلام. أو عام ٥٧١ على ما رجحه العلَّامتان محمد سليمان المنصور فوري، ومحمود الفلكي باشا[2].

وإلى جانب هذا نجد المدة الفاصلة بين حملة أبرهة على الكعبة، وغزو الفرس لليمن كبيرة؛ إذ لم يُقْض تمامًا على الأحباش إلا عام ٥٧٥م، أي: بعد عام الفيل بخمسة أعوام، فكانت حملة الأحباش على مكة في وقت متقدم عن صدامهم مع الفرس.

وهنا لا بد أن نشير إلى حقيقة هامة تتعلق بتأريخ الأحداث في العالم القديم، إذ قد يختلف تأريخ بعض الأحداث، كأحداث الميلاد والوفاة والحروب، وهذا الاختلاف معتَرف به بين علماء التأريخ العرب وغيرهم من المؤرخين.

والمتأمل في المدة التي كانت بين عام الفيل الذي كانت فيه حملة أبرهة على الكعبة، وغزو الفرس لليمن، ومساعدة سيف بن ذي يزن في القضاء على الأحباش، يجدها مدة كافية للاستعداد لقتال الفرس ومواجهتهم، فبعد عودة أبرهة مُثْقلًا بجراحه إلى اليمن - بعد الذي أصاب جيشه من الطير الأبابيل في مكة حتى صاروا بين قتيل وجريح - ظل عدة أيام يعاني جراحه، ثم مات من الجراح.

وقد تولَّى المُلك بعده ابنه يكسوم، الذي كان يُكنَّى به أبرهة، وبعد موت يكسوم - الذي لم تطل مدة حكمه - تولى الملك أخوه مسروق بن أبرهة، الذي تولى قتله "وهرز" قائد الفرس في غزوه لليمن، وبمقتل مسروق بن أبرهة سقط ملك الأحباش في اليمن.

وعن مدة ملك الأحباش لليمن يقول ابن إسحاق: "وكان ملك الحبشة باليمن - فيما بين أن دخلها أرْياط إلى أن قتلت الفرس مسروق بن أبرهة وأخرجت الحبشة - اثنتين وسبعين سنة، توارث ذلك منهم أربعة: أرياط، ثم أبرهة، ثم يَكْسُوم بن أبرهة، ثم مسروق بن أبرهة"[3].

ومن ثم فإن القول بأن المدة بين حملة أبرهة على الكعبة وبين غزو الفرس لليمن غير كافية لحكم أولاد أبرهة الذين قاتلهم الفرس، هو قول لا يفتقد إلى الدليل فحسب، بل إن الأدلة التاريخية الموجودة - والتي سبق ذكرها - خلافه.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الملوك هم مثل سائر البشر، ينتهي ملكهم بموتهم، وهذا أمر يتفاوت بين القصر والطول، فلا عجب أن نجد بعضهم قد ظل ملكه عشرات السنين، وبعضهم لم يَدُم ملكُه إلا

---

١. المرجع السابق، ص٢٠، ٢١ بتصرف.

٢. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٥٤. ويُلاحظ هنا أن الخلاف الحاصل إنما هو في السنة الشمسية التي تقابل عام الفيل، لا في وقوع مولد النبي ﷺ عامَ الفيل.

٣. الروض الأنف، السهيلي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ج١، ص٨٧ بتصرف.

عدة أشهر.

بل لا نبالغ إذا قلنا إن بعض الملوك لم يدم ملكه إلا بضعة أيام، ومن ثم فلا مجال للطعن في كون النبي ﷺ قد وُلِدَ في عام الفيل، إذ لم يُقْضَ على الحبشة قضاءً تامًّا إلا عام ٥٧٥م، أي بعد عام الفيل بخمسة أعوام[١]، وهي مدة كافية لحكم أولاد أبرهة.

ثالثًا. حياة النبي ﷺ قبل البعثة معروفة التفاصيل، وقد نقلها الرواة وكتّاب السِّير بطرق صحيحة متواترة[٢]:

لقد أفاضت كتب السيرة في الحديث عن النبي ﷺ قبل بعثته[٣]، واعتمدت على سيل من الأخبار الصحيحة المتواترة، ومن ذلك:

أن السيدة آمنة حين وضعته ﷺ خرج منها نور أضاءت له قصور بُصْرَى بالشام، وقد اهتز لميلاده إيوان كسرى وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت النار التي يعبدها المجوس، وانهدمت الكنائس حول بحيرة ساوة، وقد ولد ﷺ جاثيًا على ركبتيه معتمدًا على يديه، رافعًا رأسه إلى السماء، ثم أخذ قبضة من التراب فقبضها، وكانت ولادته في دار أبي طالب بِشِعْب بني هاشم.

وكانت أُوْلَى من أرضعنه ﷺ هي أمه، ثم أرضعته ثُوَيْبَة جارية عمه أبي لهب، ثم أرضعته حليمة السعدية - وهي من قبيلة بني سعد - وقد مكث عندها سنتين، ثم عادت به كي تراه أمُّه، فما أن رأته وملأت عينيها منه حتى احتضنته وقبَّلته، وسرَّها ما رأته عليه من علامات الصحة، والنضارة، والنمو، وتوسلت حليمة إلى أمه أن ترجعه معها حتى يكبر، فإنها تخشى عليه وباء مكة، وما زالت بها حتى قَبِلَت، ثم عادت به بعد سنتين، وهي بادية القلق، شديدة التخوّف عليه، حتى أحسَّت ذلك منها السيدة آمنة، فسألتها عن سبب ذلك، فأنكرت أن يكون هناك شيء، ثم لم تلبث أن أخبرتها بقصة الملكين اللذين جاءا إليه، وهو في غنم لهم مع أخيه السعدي، فشقًّا صدره، فطمأنتها أمّه أنه لا سبيل للشيطان عليه، وأنه سيكون له شأن، وقالت لها: دعيه عنك، وانطلقي راشدة.

وكانت الشيماء أخته من الرضاعة تقول:

يَا رَبَّنَا أَبْقِ لَنَا مُحَمَّدَا
حَتَّى أَرَاهُ يَافِعًا وَأَمْرَدَا
ثُمَّ أَرَاهُ سَيِّدًا مُسَوَّدَا
وَاكْبِتْ أَعَادِيْهِ مَعًا والحُسَّدَا
وَأَعْطِهِ عِزًّا يَدُومُ أَبَدَا

ولما بلغ النبي السادسة من عمره ارتَأَتْ أمُّه أن

---

١. انظر: الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٢٥.

٢. عن صحة أسانيد السيرة النبوية وقوة طرق نقلها وتميز توثيقها وتفصيل وقائعها وأحداثها، انظر: السيرة النبوية: دروس وعبر، د. مصطفى السباعي، دار الوراق، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص١٥ وما بعدها.

٣. انظر مثلا: السيرة النبوية، ابن كثير، مرجع سابق، ج١، ص٢٠٤ وما بعدها. السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: الشيخ محمد بيومي، دار المحرم للتراث، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ج١، ص١٠١ وما بعدها. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، مرجع سابق، ص٥٤ وما بعدها. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص١٧٣ وما بعدها. السيرة النبوية، د. محمد عبد القادر أبو فارس، مرجع سابق، ص٩٩ وما بعدها. السيرة النبوية: دروس وعبر، د. مصطفى السباعي، مرجع سابق، ص٣٥ وما بعدها.

تذهب به إلى أخوال جده عبد المطلب بالمدينة من بني النجار، ليرى هؤلاء الأخوال الكرام، وليزور قبر أبيه الذي لم يره، وفي طريق العودة بين المدينة ومكة مرضت الأم، ووافتها المنية، ودفنت بقرية "الأَبْوَاء"، وجلس الابن يذرف الدمع سخينًا على فراق أمه، التي كان يجد في كنفها الحب والحنان، والسلوى والعزاء عن فَقْد الأب، وهكذا شاء الله ﷻ للنبي ﷺ ـ ولما يجاوز السادسة ـ أن يذوق مرارة فَقْد الأبوين.

وبعد موت أم النبي ﷺ كفله جده عبد المطلب وضمَّه إليه، ورقَّ عليه رقّة لم يرقَّها على ولده، ثم بعد وفاة جده كفله عمه أبو طالب، وقد أحب أبو طالب ابن أخيه محمدًا حبًّا شديدًا، فكان لا ينام إلا إلى جنبه، ويخرج فيخرج معه.

وقد اشتغل النبي ﷺ في صباه برَعْي الغنم، فرعاها لأهله، ورعاها لبعض أهل مكة.

ولما بلغت سنه ﷺ الثانية عشرة خرج عمه أبو طالب في تجارة له إلى الشام، فتعلقت نفس ابن أخيه به، ورغب في مصاحبته، فرقَّ له عمه واستصحبه معه حتى وصل الركب إلى بُصْرَى من بلاد الشام، وكان بها راهب يقال له "بَحِيرا" عنده علم بالكتب السماوية السابقة، وقد علم منها أنه نبي آخر الزمان وأنه من العرب.

ولما بلغ النبي ﷺ أربع عشرة سنة شهد حرب الفِجَار، وكانت بين قريش وغيرها من قبائل كنانة وأحلافها، وبين قيس وأحلافها، وقد حضر النبي ﷺ هذه الحرب مع أعمامه، قيل: كان يرمي معهم، وقيل: كان يَنْبُل لهم.

ولما ناهز النبي ﷺ الخامسة والعشرين من عمره أرسلت إليه السيدة خديجة، فلما جاء إليها قالت له: دعاني إلى طلبك ما بلغني من صدق حديثك، وعِظَم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أُعطِي رجلًا من قومك، فذكر ذلك لعمه أبي طالب، فقال له: إن هذا لرزقٌ ساقه الله إليك، ثم خرج النبي ﷺ بتجارة خديجة إلى الشام، وباع النبي ﷺ التجارة وابتاع، وعاد بربح وفير.

ولما رأت السيدة خديجة بنت خويلد ربحها الوفير سُرَّت من النبي ﷺ، وأرسلت إليه تخطبه لنفسها وكانت سنها نحو الأربعين، وهي من أوسط قريش حسبًا وأوسعهم مالًا، فقام ﷺ مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها منه بواسطة عمه أبي طالب فزوجها عمها.

وعاش النبي هذه الفترة من حياته قبل النبوة، وهو في طمأنينة وراحة نفسية، بفضل السيدة الودود الولود خديجة ـ رضي الله عنها ـ، ورزقه الله منها البنين والبنات، وقد مات ولداه: القاسم، وعبد الله وهما لا يزالان في المهد.

وكانت حياته ﷺ قبل البعثة حياة فاضلة شريفة، لم تُعرف له فيها هفوة، ولم تُحْصَ عليه فيها زلَّة، لقد شبَّ رسول الله يحوطه الله تبارك وتعالى بعنايته، ويحفظه من أقذار الجاهلية؛ لما يريد له من كرامته ورسالته، حتى صار أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزّهًا وتكرّمًا حتى

صار معروفًا بالأمين[1].

ومن ثَمَّ فلم تكن حياة النبي ﷺ في طفولته وشبابه قبل البعثة غامضة لا يعرفها أحد كما يزعمون.

الخلاصة:

- لم يسجل القرآن تاريخ ميلاد النبي ﷺ وتفاصيل حياته قبل البعثة؛ لأن الله أنزله - أي القرآن - هداية للناس، وتفصيلًا لأحكام الإسلام وتعاليمه، ولم يُنَزِّله كتاب سيرة ذاتية لمحمد ﷺ، ثم إن تسجيل مثل تلك التفاصيل لا فائدة منه كبيرة؛ إذ إن أقدار الرجال لا تقاس بتواريخ ميلادهم، وإنما بإنجازاتهم وآثارهم، ثم إن الاختلاف حول يوم مولد النبي ﷺ اختلاف طبيعي في كافة الأحداث القديمة، وهو أمر وارد عند علماء التاريخ، وقد وقع اختلاف أكبر في تواريخ ميلاد بعض الأنبياء كعيسى عليه السلام وغيره.

- ولادة النبي ﷺ في عام الفيل ثابتة تاريخيًّا، بل هي من الأمور المجمع عليها بين أصحاب السِّيَر، ولم يكن آنئذ قتال بين الفرس والأحباش، بل وقع القتال بعد موت أبرهة، وفي ولاية ابنه الثاني مسروق؛ حيث أخرج الفرسُ الأحباشَ من اليمن وقضوا على ملكهم سنة ٥٧٥م.

- إن الخلاف الحاصل - إن جاز أن نسميه خلافًا - إنما هو اختلاف في تحديد السنة الشمسية التي تُقابل عام الفيل، هل هي ٥٧٠م أو ٥٧١م، ولا ينبغي أن يتصوره واهم على أنه في وقوع مولد النبي ﷺ في عام الفيل أو لا، فهذا ما لم نسمع أحدًا يشكك فيه قبل هؤلاء!!

- حياة النبي ﷺ معروفة التفاصيل، وقد نقلها الرواة وكتَّاب السِّير بطرق صحيحة ومتواترة، بداية من إرهاصات مولده ﷺ وحتى إرهاصات بعثته ونزول الوحي عليه، وهذا الجزء من سيرته ﷺ يحتلُّ دائمًا مكانًا ثابتًا في كتب السير كلها، فلا مجال للقول بغموض تفاصيل تلك الفترة من حياته ﷺ.

الشبهة الخامسة

إنكار حادثة شق صدر النبي ﷺ في صغره(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين حادثةَ شقِّ صدر النبي ﷺ في صغره، ويستدلون على ذلك بأن شقَّ الصدر يتنافى مع الطبيعة البشرية، كما أنه أمرٌ خيالي غير معقول، ويدخل في باب تبديل سنن الله في خلقه، إن ثَبَتت صحته. وهُم بذلك ينفون إخراج حظِّ الشيطان من قلبه ﷺ؛ بُغْيَةَ إنزاله منزلة عوام الناس، ونفي إرهاصات النبوة عنه في نشأته الأولى.

وجوه إبطال الشبهة:

١) إنَّ حادثة شقّ صَدْر النبي ﷺ في صِغَره من جُمْلة ما كان من إرهاصات النبوّات، شأنه ﷺ في ذلك شأن إبراهيم وموسى وعيسى - عليهم السلام - وغيرهم من الأنبياء والرُّسل، وليس محمد ﷺ بِدْعًا في هذا؛ إذْ لا فرق في ذلك بين زمن وزمن، ولا نبي ونبي.

---

١. انظر: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص١٧٣: ٢٣٥.

(*) نقد كتاب "حياة محمد"، عبد الله بن علي النجدي القصيمي، مرجع سابق.

٢) إن رواية شقّ الصدر ثابتة مُتَواترة تواتُرًا لا يدع مجالا للشكّ فيها، وفيها من الحِكَمِ كتطهير قلبه ﷺ، وتصفية نيته وسريرته، والتبشير بنبوّته ما لم يدركه بعضهم؛ فراح يشكك في ثبوتها عن جهل بمقاصدها وحِكَمها.

٣) إن في عُزوف النبي ﷺ عن ملذّات الشباب ونَزَوات الصِّبا كسائر أقرانه من المجتمع المكّي - ما يؤكِّد أن ثمّة شيئًا اخْتُصَّ به هذا الشابُّ (محمد ﷺ)، فخلُص به من حظِّ الشيطان، وهذا الشيء الذي اختُصَّ به النبي ﷺ هو ما كان من شقّ صدره ﷺ.

التفصيل:

أولا. لكل نبي من الأنبياء معجزاته، وشق صدر النبي ﷺ أحد هذه المعجزات:

إن قوانين المنطق - وإن تكن لها علوم تدرس - يشترك في فهمها جميع العقلاء، حتى البدوي في خيمته، والزارع في حقله، والذين ينكرون حادثة شقِّ صدر النبي ﷺ ينكرونها لأسباب ثلاثة؛ أولها: أنها تتنافى مع الطبيعة البشرية، وثانيها: أنها لا تدخل في معروف **العقل**، وثالثها: أنها تبديل لسنة الله.

أما عن كونها لا تتناسب والطبيعة البشرية، فلنا أن نتساءل:

هل من الطبيعة البشرية **أن** يتكلَّم سيدنا عيسى عليه السلام وهو مازال في المهد صبيًّا؟! وهل من الطبيعة الإنسانية المألوفة إحياء الموتى وإبراء الأبرص والأكمه؟! فهؤلاء المشكّكو**ن** يؤمنون بأن عيسى عليه السلام إنسان وأن حياته حياة إنسانية، وفي الوقت نفسه يؤمنون بأن عيسى تكلم في المهد، وكان يُحيي الموتى ويُبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله تبارك وتعالى.

وهل من الطبيعة البشرية أن يُلقَى الإنسان في النار فلا تصيبه بسوء، وإذا هي عليه برد وسلام؟! وهم أيضًا يؤمنون بأن إبراهيم عليه السلام أُلقي في النار وخرج منها سالمًا، وهو إنسان، وحياته حياة إنسانية! وقد أعطى الله لموسى عليه السلام تسع آيات: (العصا، واليد، والدم، الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضّفادع، والطمس، والبحر)، وألانَ الله الحديد لداود، وسخر معه الجبال والطير، فكانت تُسَبِّح بالعشِيِّ والإشراق إلى آخر هذه النماذج.

وإذا كان الأمر على نحو ما أسلفنا، فكيف يؤمنون بهذه المعجزات، ويكفرون بتلك ؟! ثم كيف يتنافى شقُّ الصدر مع الطبيعة البشرية الإنسانية المألوفة ونحن نرى الطب الآن يشق ما يشاء لا من الصدور فحسب، بل يشق ما يشاء من جسم الإنسان ؟! وإذا كان هذا ثابتًا في حق المخلوق؛ فهو في حق الخالق من باب أولى، فله سبحانه أن يشق صدور من شاء من عباده، ويخصّه بما يشاء من المعجزات.

أمّا القول بأنها لا تدخل في معروف العقل - بمعنى أن **العقل** لا يُجيزها - بل يراها طائفةً من المستحيلات، فَعَنْه نقول: إذا جاز لهؤلاء القدامى أن يعجبوا من ذاك الحادث ويخرجوا به عن مُدْرَكات العقل فإن شيئًا من هذا ليس سائغًا لنا أبناء العصر الحديث؛ فليس لنا أن نشك في شق صدره ﷺ ونحن في زمن تقدُّمِ الجراحة وتفَوُّق الجرّاحين.

ومثلُ عملية شق الصدر يقعُ كُلَّ يوم، ولو أن العقل يأبى شق الصدر، ويأبى جوازه لكان إباؤه لسائر

معجزات الأنبياء، والعقل في حُكْمِه على الأشياء بالاستحالة والجواز، لا يفرق بين نبي ونبي، فلا يفرق بين عيسى ومحمد كما لا يفرق بين محمد وموسى.

فإذا كان من المعروف للعقل معجزات موسى وعيسى وغيرهما، لم يكن من المجهول بالنسبة له مسألة شق الصدر يقينًا؛ إذ لو عرف العقل تلك الخوارق للأنبياء، ولم يعرفها لخاتمهم محمد ﷺ؛ لم يكن عقلًا، بل لكان وهمًا زائلًا، وعاطفة غير مضبوطة، فلا بد للعقل أن يعرف هذه الخوارق فيؤمن بها كلها، أو يجهلها فينكرها، أما أن يعرِفَها لجميع الأنبياء ويُنكرها لمحمد ﷺ خاصة، فشيء لا نعرفه ولا نرضاه من العقل، بل لا يرضاه العقل لنفسه ومعلوم أن هذه كَتِلْك!

وأمّا القول بأن هذه القصة تبديل لسنة الله، والله يقول: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾ (الأحزاب)، فنحن نعلم أن هذه القصة لا تخالف سنة الله، ولا تبدِّلها؛ إذ إن هذه القصة ثابتة لرسول الله ﷺ من حيث كونه رسولًا لا من حيث هو إنسان فقط، فإن كانت سنة الله ألا يخلُق الخوارق على أيدي الأنبياء الذين سبقوا محمدًا، لأمكن أن يقال عنها إنها تأبى أن يخلق خارقة لمحمد ﷺ خاصة، وأمكن لهؤلاء أن يقولوا إن سنة الله التي لا تُبدَّل تأبى شق الصدر، وأما إذا كانت سنة الله بخلق الخوارق جاريةً على أيدي الأنبياء السابقين، باعتراف هؤلاء واعتراف كل مؤمن بالأنبياء والكتب المقدسة؛ فإنها لم تكن لِتحجب ذلك عن خاتمهم، ولم تكن لتبخل بها على أفضلهم.

وإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك بالفعل - وَجَب أن يُقال: إن سنة الله تقضي بأن تُقَدِّم لمحمد ﷺ ألوانًا من هذه المعجزات، فتمنحه نصيبًا كبيرًا من هذه المنحة التي تفضَّل الله بها على سائر الأنبياء؛ عيسى، وموسى، وإبراهيم وغيرهم من الأنبياء كثير، وغير شقِّ الصدر من البِشارات والمعجزات أكثر.

وأمّا لو قلنا إن سنة الله وَهَبَت هذه المنحة كل الأنبياء قبل محمد، وقسَّمت عليهم من ذلك ما شاء الله، فلما أن جاءت عند خاتمهم وأعمهم دينًا ودعوة حَرَمَتْه ذلك الفضل حرمانًا باتًّا؛ لكنا بذلك مخالفين لسنة الله مخصِّصين إياها، ولم نتركها على نمط واحد[1]. وهذا هو عين تبديل سنة الله، لكن شيئًا من هذا لم يحدث، وحاشاه أن يحدث، بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾.

ولعل ما أثاره هؤلاء حديثًا كان له وجه من القبول أو المسوِّغات لو أثير قديمًا، أما في هذه الأيام فلا، ومعلوم - كما يقول د. عبد المعطي قلعجي - أنه "قد تقدَّم العلم، والطب، والجراحة، والتخدير، والعمليات الجراحية صارت تُجرى في غرف معقَّمة، وبوسائل مختلفة، وتقنية جدّ ماهرة، فأمكن للجراحين اليوم إجراء مختلف أنواع العمليات الجراحية في كل موضع من الجسم؛ بهدف استئصال الدَّاء وطرحه حيث لم تعُد تنفع الوسائل الطبية، حتى أمكن الآن استخراج القلب، وليس فقط معالجته، وأن يُستبدل قلب تالف بآخر صحيح من إنسان مات حديثًا، أو حتى بقلب صناعي، ثم تُخاط طبقات الجسم، وتعاد، فلا يموت المريض!

1. المرجع السابق، ص٣٥: ٣٨ بتصرف.

كل هذا أصبح في استطاعة الإنسان، أفَمَا يكون في استطاعة الإنسان المخلوق لا يستطيعه الله الخالق الذي يقول للشيء: كن فيكون" [1] ®؟!

ثانيًا. إن رواية شقِّ صدر النبي ﷺ ثابتة صحيحة، رُويت في مصادر عِدّة بطرق متواترة، ولها العديد من الحكم:

يَحْسُنُ بنا هنا أن نقف وقفة قصيرة عند الأخبار الواردة في شق صدره ﷺ؛ فقد رُوِيَت في ذلك أخبار بعضها في خبر قصير، وبعضها الآخر في خبر طويل، ولا تخلو من زيادة في بعضها ونقص في الآخر، وإن كان المعنى الأصلي متفقًا في الجميع، ولنذكر واحدًا منها: فعن ثابت عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه وصرعه، فشقَّ عن قلبه فاستخرج القلبَ، فاستخرج منه عَلَقَةً[2]، فقال: "هذا حظ الشيطان منك"، ثم غسله في طِسْتٍ من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَهُ[3]، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ ظِئْرِه[4] ـ فقالوا: إن محمدًا قد قُتِل، فاستقبلوه، وهو منتقِع[5] اللون، قال أنس: وكنت أرى أثر ذلك المِخْيَط[6] في صدره[7][8].

"وكان أول ما شُقَّ صدره ﷺ في السنة الثالثة من عمره وقيل في الرابعة، وذلك لتطهيره، وإخراج حظ الشيطان منه" [9].

ولقد رَوَت كتب السنة بالأسانيد الصحيحة، وروت كتب السيرة ـ كذلك ـ هذه الحادثة التي تُوجِّه النظر إلى عناية الله ﷻ برسوله ﷺ منذ طفولته المبكرة، وأن من مظاهر هذه العناية: أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سِنِيِّه الأولى؛ حتى لا يسلك الشيطان إليه سبيلًا.

وإن الله الذي شاءت إرادته ـ منذ الأزل ـ أن يكون محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل، والإنسان يبدأ السير نحو الكمال بطهارة القلب، وتصفية النفس، والتوبة، والإخلاص، أو ـ بتعبير آخر ـ بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه.

ولقد أرسل الله ملائكته، فشقوا عن صدر الرسول ﷺ، واستخرجوا حظ الشيطان منه، وملئوه سكينة وإيمانًا وحكمة، ورأفة ورحمة؛ فكان ﷺ رأفة على الصغير ورحمة للكبير[10].

ولقد كان في حادث شق صدره ﷺ من الحِكَم

---

١. دلائل النبوة، البيهقي، مرجع سابق، ج١، هامش ص١٣٨، ١٣٩ بتصرف يسير.

® في **"تأييد الأنبياء بالمعجزات سنة من سنن الله"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). وفي "المعجزة في ميزان العلم والعقل" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

٢. العَلَقَة: الدم الغليظ المنعقد.

٣. لأَم: ضمَّ بعضه إلى بعض.

٤. الظِّئْر: المُرضِعة لغير ولدها، ويُقصد بها السيدة حليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ.

٥. المنتقِع: المتغيِّر.

٦. المِخْيط: الإبرة.

٧. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلوات (٤٣١).

٨. خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ط١، ج١، ص١١٢، ١١٣.

٩. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص٢٤.

١٠. الرسول ﷺ، د. عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٤، ص٤٨، ٤٩.

والمقاصد ما علمها قوم؛ فجزموا بثبوته في حق محمد ﷺ آخذين في اعتبارهم ما سيكون له من شأن النبوة والرسالة، وجهل هذه الحكم وتلك المقاصد آخرون؛ فأنكروا هذا الحادث، مُغفلين ما سيئول إليه أمرُ هذا الصبي وما هو مُعَدٌّ له.

ويَحْسُنُ بنا في هذا الصدد أن نُجْمِل تلك الحكم من وراء هذا الحادث بما يعضِّد أهميته ويبرهن بشكل واضح على ثبوته، ومن تلك المقاصد ما يأتي:

تطهير قلبه، وخلوص نيته، وتصفية ميوله؛ إذ ليس الصبي محمد كغيره من الصِبْيَة، بل له من الشأن ما اقتضى أن يخرج عن جملة ما دَرَجَ عليه سواه؛ ولما كان الأمر كذلك جاء شق صدره ﷺ.

ولقد "سُئِلَ شيخ الإسلام أبو الحسن السبكي عن العلقة السوداء التي أُخرجت من قلبه ﷺ حين شُقَّ فؤاده وقول الملك: هذا حظ الشيطان منك. فأجاب: بأن تلك العلقة خلقها الله تعالى في قلوب البشر قابلة لما يلقيه الشيطان فيها، فأزيلت من قلبه ﷺ فلم يبقَ فيه مكان لأن يُلْقي الشيطان فيه شيئًا.

هذا معنى الحديث، ولم يكن للشيطان فيه حظ، وأما الذي نفاه الملك فهو أمر في الجِبِلَّة[1] البشرية، فأزيل القابل الذي لم يكن يلزم من حصوله حصول القذف في القلب"[2]. يقول الشاعر:

وما أَخْرجَ الأملاكُ من قَلْبِهِ أَذًى
ولكنَّهم زادوه طُهرًا على طُهرِ

وهناك معنى آخر، وهو أن قلب سيدنا رسول الله ﷺ مملوء بالرحمة، بل هو منبعها وأصلها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾(الأنبياء)، وهذه الرحمة شاملة كاملة؛ لأنها رحمة الله التي وسعت كل شيء، ولكن الله ﷻ أخرج الشيطان وأعوانه، وإخوانه، ومن قدَّر عليه الشقاء من هذه الرحمة، فلا نصيب لهم فيها، ولا شيء لهم منها، ويكون المعنى حينئذ أنهم أَخْرجوا من قلبه الشريف حظَّ الشيطان من رحمته، فلا حظ للشيطان في هذه الرحمة[3].

هذا، وحادثة شق صدره ﷺ تنطوي على حِكَم؛ منها: تهيئة النبي ﷺ لما سيتحمله من أمر الرسالة، وعبء الدعوة، وذلك على مستويين:

الأول: الابتلاء بوصفه سُنَّة من سنن الأنبياء، كما يقول العلامة ابن المنيِّر: "وشق الصدر له ﷺ وصبره عليه من جنس ما ابتلى الله تعالى به الذبيح وصبر عليه".

وأيضًا فقد وقع له هذا الابتلاء وهو صغير يتيم بعيد عن أهله ﷺ[4].

الثاني: تهيئته ﷺ لما سَيُناط به من الدعوة، وما تقتضيه من سعة صدر، ونقاء حفيظة، فكأن قلبه ﷺ غُسِل بالثلج والبرد والماء الممتلئ حكمة وإيمانًا؛ ليَعْرفَ قلبُه طِيبَ الجنة ويجدَ حلاوَتَها، فيكون في الدنيا أزهد، وعلى دعوة الخلق إلى الجنة أحرص؛ ولأنه كان له أعداء يتقوَّلون عليه، فأراد الله تعالى أن ينفي عنه طبع البشرية من ضيق الصدر وسوء مقالات الأعداء، فغسل قلبه ليورث ذلك صدره سعة ويفارقه الضيق.

١. الجِبِلَّة: الطبيعة.
٢. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، دار الشروق، جدة، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٣١.
٣. المرجع السابق، ص٣٥ بتصرف يسير.
٤. المرجع السابق، ص٣١ بتصرف.

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (الحجر)، فغسل قلبه غير مرة، فصار بحيث إذا أُوذِي بشَجِّ رأسه ﷺ، أو كَسْر رَباعِيَته ــ كما في يوم أحد ــ يقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[1][2].

وإذا كان الأمر على نحو ما أسلفنا؛ فلسائلٍ أن يسأل: إذا كان لهذا الصبي من الشأن ما له، واقتضى ذلك أن يخلُص قلبه من قابل قذف الشيطان فيه كسائر البشر، فلمَ خلق الله هذا القابل ابتداء في هذه الذات المحمدية وقد كان بوسعه ﷻ أن يخلقه أول مرة سليمًا من هذا الحظ مُعافًى؟!

ونحن من جانبنا نقول له: إنه من جملة الأجزاء الإنسانية، فخلقُهُ تكملة للخلق الإنساني ولا بد منه، ونزعُهُ كرامة ربانية طرأت. "ولو خلق الله تعالى نبيه ﷺ كذلك ـ أي مطهَّرًا من ذلك القابل بالجِبِلَّة ـ لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته ﷺ فأظهره الله تعالى على يد جبريل عليه السلام ليتحققوا كمال باطنه كما برز لهم مكمل الظاهر"[3].

ولكي يعيش ﷺ على سبب بالملأ الأعلى، ويُدرك أن له شأنًا غير شأن لِداتِه[4]؛ لذلك أُوتِي هذا الفضل على تلك الصورة الحسية.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب إذا عرض الذمي بسب النبي ﷺ ولم يصرح (٦٥٣٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (٤٧٤٧)، واللفظ له.

٢. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق، ص٣٤ بتصرف يسير.

٣. المرجع السابق، ص٣١.

٤. اللِّدات: النُّظَراء.

قال بعض العلماء: الحكمة في شق صدره الشريف ﷺ ـ مع القدرة أن يمتلئ قلبه إيمانًا، وحكمة من غير شق ـ: الزيادة في قوة اليقين؛ لأنه أُعطِي برؤية شق بطنه وعدم تأثره بذلك ما أمن معه جميع المخاوف العادية؛ فلذلك كان ﷺ أشجع الناس حالًا ومقالًا، ولذلك وُصف بقوله ﷻ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ (النجم)[5].

إن المتأمل لإرادة الله تعالى وقدره يجده محضَ فضل فوق كل فضل، وعناية دونها أي عناية، ورعاية لم تكن لأحدٍ سواه ﷺ فأين ذلك كله من عناية الأب والجد والعم؟ بل أين رحمة الخلائق كلهم من رحمة الله تعالى؟

وليس لأحدٍ من سبيل أمام هذه الأحاديث الثابتة بتأويل لها، أو صرف عن ظاهرها؛ فالأمر الحسي فيها مقصود له ﷺ بكل ما ورد في شق الصدر واستخراج القلب مما يجب التسليم له، دون تعرُّض لصرفه عن حقيقته، لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك.

يقول الشيخ محمد الغزالي: "وشيء نستطيع استنتاجه من هذه الآثار مؤدّاه أن بشرًا ممتازًا كمحمد ﷺ لا تدعه العناية غرضًا للوساوس الصغيرة التي تَنَاوشُ غيره من سائر الناس، فإذا كانت للشر موجات تملأ الآفاق، وكانت هناك قلوب تُسْرِع إلى التقاطها والتأثر بها، فقلوب النبيين ـ بتولِّي الله لها ـ لا تستقبل هذه التيارات الخبيثة ولا تهتز لها، وبذلك يكون جهد المرسلين في متابعة الترقِّي، لا في مقاومة التدنِّي،

٥. مقدمات النبوة وإعداد الرسول ﷺ مع معجزاته وخصائصه، يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٣٨.

وفي تطهير العامة من المنكر لا في التطَهُّر منه، فقد عافاهم الله من لوثاته" [1].

ثالثًا. في زهد النبي ﷺ وعزوفه عن ملذات الشباب ونزواته ما يُبَرْهن على خلوصه من الشيطان وإغوائه:

إن المتأمل المنصف لأخلاق النبي محمد ﷺ قبل بعثته، والواقف على تصرفاته؛ ليدرك بما لا يدع مجالًا لتشكيك شاك ولا إنكار منكر أن هذا الشاب غير أقرانه، من حسن خلقه وعزوفه عن الشهوات، ولعل في تلك الحقيقة ما يؤكد ضمنيًّا ثبوت شيء غير عادي لذاك الشاب، وأسرع ما يتبادر للذهن في تفسير أخلاقه تلك وزهده ذاك هو حادث شق صدره ﷺ في صغره، خاصة إذا استحضرنا ما أسلفنا ذِكْره من حِكَم ذاك الحادث ومقاصده من تنقية قلبه، وتصفية ميوله، وخلوصه من نصيب الشيطان.

ومعلوم أن شق صدره ﷺ كان لإخراج حظ الشيطان منه، والدليل على تحقُّق ذلك أنه كان في شبابه بعيدًا من حياة اللهو، والمجون في مكة، طاهرًا من الآثام التي تدنِّس الشباب في مجتمعاتهم، وصدق قول السيدة آمنة بنت وهب ـ أم الرسول ﷺ ـ حينما قالت: "والله ما للشيطان عليه من سبيل".

ولما شبَّ رسول الله ﷺ، كانت مكة تَعُجُّ بمُخْتَلف أنواع اللهو، والفساد، والملاذِّ الشَّهوانية الدَّنِسَة، ولقد كانت حانات الخمر منتشرة، وكذلك بيوت الرِّيبة، وعليها علامات تُعرف بها، وكانت هناك المغنيات الماجنات والراقصات، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهافت عليه، ولكن الله ﷻ برَّأ رسوله، واختاره من أكرم معادن الإنسانية وجعله بمنأًى عن كل ذلك.

ولقد رُوي عن النبي أنه قال: "ما هممت بشيء من أمر الجاهلية إلا مرتين"، أما هاتان المرتان فها هو سيدنا علي يتحدث عنهما، فيقول سمعت الرسول ﷺ يقول: "ما هممت بشيء مما كان عليه أهل الجاهلية يهمُّون به إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله ﷻ فيهما؛ قلت ليلة لبعض فتيان مكة ـ ونحن في رعاء غنم أهلها ـ فقلت لصاحبي: ألا تُبصِرُ لي غنمي حتى أدخل مكة أسمُر فيها كما يُسْمُر الفتيان"؟ فقال: بلى.

قال ﷺ: "فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة، فسمعتُ عزفًا بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة؛ فجلست أنظر، وضرب الله على أذني، فوالله، ما أيقظني إلا مَسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ماذا فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئًا، ثم أخبرته بالذي رأيت.

ثم قلت له ليلة أخرى: أَبْصِر لي غنمي حتى أسمُر، ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعته تلك الليلة فسألت فقيل: نكح فلانٌ فلانة؛ فجلست أنظر، فضرب الله على أذني، فوالله، ما أيقظني إلا مسُّ الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك حتى أكرمني الله ﷻ بنبوته" [2].

---

1. المرجع السابق، ص١٤٠، ١٤١ بتصرف.

2. إسناده حسن: أخرجه البزار في مسنده، الجزء الأول، مسند علي بن أبي طالب (٦٤٠)، وابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، باب بدء الخلق (٦٢٧٢)، وحسن إسناده شعيب الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان.

لقد كانت حياته ﷺ شرحًا مستفيضًا، وتوضيحًا كاملًا، وتعبيرًا تامًّا لما اتفق عليه العقلاء، وأجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة، أن ذلك من علامات الأنبياء[1].

وهكذا كانت حياته ﷺ حياة زكية طاهرة من الآثام التي تدنِّس الشباب في مجتمعاتهم، بعيدة عن الشرك، فلم يسجد لصنم قط، بعيدًا عن معايب الجاهلية، ومفاسدها[2]. فهذا كله دليل على حفظ الله له ورعايته منذ صغره، وأن الحكمة من شق صدره كانت لإخراج حظ الشيطان منه، وذلك لتهيئته للنبوة، وعصمته من الآثام.

ولقد شبَّ رسول الله ﷺ مع أبي طالب يكلؤه الله بحفظه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها، لما يريد به من كرامته حتى صار أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جوارًا وأعظمهم حلمًا، وأمانة، وأصدقهم حديثًا وأبعدهم من الفُحْش والأذى حتى سمّاه قومه "الأمين"، لما جمع له من الأمور الصالحة فيه، فلقد كان الغالب عليه بمكة "الأمين"، ولقد اختاره الله تعالى للرسالة، ولكنه اصطنعه لنفسه قبل أن يمنحه النبوة[3].

ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان إرهاص مبكر بالنبوة، وإعداد للعصمة من الشرك وعبادة غير الله، فلا يحل في قلبه إلا التوحيد الخالص، وقد دلَّت أحداث صباه على تحقُّق ذلك، فلم يرتكب إثمًا ولم يسجد لصنم، رغم انتشار ذلك في قريش.

وتحدث د. محمد سعيد البوطي عن الحكمة من ذلك، فقال: يبدو أن الحكمة من ذلك إعلان أمر الرسول ﷺ وتهيئته للعصمة والوحي منذ صِغَره بوسائل مادية، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته. إنها إذن عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي، ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماع الناس وأبصارهم.

إن إخراج العَلَقة من قلب رسول الله ﷺ تطهير له من حالات الصبا اللاهية العابثة، وتأكيد على اتصافه بصفات الجد والحزم والاتزان وغيرها من صفات الرجولة الصادقة، كما تدلنا على عناية الله به وحفظه له، وأنه ليس للشيطان عليه سبيل كسائر لِدَاته[4] ®.

الخلاصة:

- حادثة شق صدر النبي ﷺ معجزة من المعجزات التي اختص الله بها نبيه ﷺ، كما أيَّد غيره من الرسل

١. الرسول ﷺ، د. عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص٥٣: ٥٥ بتصرف.

٢. انظر: دلائل النبوة، البيهقي، مرجع سابق، ج١، ص١٣٨.

٣. دلائل النبوة ومعجزات الرسول، د. عبد الحليم محمود، دار الإنسان، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٧٩، ٨٠.

٤. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج١، ص٦٧، ٦٨.

® في **"زهد النبي ﷺ وجوده وتواضعه"** طالع: الشبهة العاشرة، والوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). والوجه الأول، من الشبهة الحادية والعشرين، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي). والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب). وفي **"عصمة النبي ﷺ من كيد الشيطان"** طالع: الوجه الثالث، من الشبهة الثانية، والوجه الثاني، من الشبهة العشرين، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). والوجه الثالث، من الشبهة الأولى، من الجزء الرابع (دعوة النبي ﷺ وتبليغه الوحي).

والأنبياء بالمعجزات الدالة على قدرته، والعقل في حُكمِه على الأشياء بالاستحالة والجواز لا يفرّق بين زمان وزمان، ولا بين مكان ومكان، كما لا يفرق بين نبي ونبي.

- إذا كان الطِبُّ الحديث قد توصل في عمليات جراحية بشرية إلى نقل القلب، واستبدال قلب آخر به أو حتى قلب صناعي ويعيش الإنسان بعدها، فكيف نُنْكر قدرة الله في شق صَدْر النبي ﷺ، وهو القادر على ذلك؟! وهل يَبْعُد على الخالق ما استطاعه المخلوق؟!
- لقد نُقِلت إلينا حادثة شق صدر النبي ﷺ بطرق صحيحة متواترة لا سبيل إلى إنكارها، وهي من أدلة صدق نبوته ﷺ؛ لأنها من تمام الرعاية الإلهية منذ صغره، وذلك لإعداده ﷺ للنبوة، وتلقِّي الوحي من السماء.
- كانت هذه الحادثة مظهرًا من مظاهر العناية الإلهية بالنبي ﷺ، وذلك باستخراج حظ الشيطان من قلبه ﷺ، ثم وضع الرأفة والرحمة في قلبه، وغسله ليزداد طهارة على طهارته، ويسمو إلى درجة لم يصل إليها أحد من البشر من الحكمة، والرحمة، والإيمان.
- لقد كان من نتائج هذه الحادثة أنه ﷺ لم يَرْكَن إلى المعاصي واللهو والعبث كغيره من شباب مكة، فقد عصمه الله من كل هذه السقطات التي تُقَلِّل من قدره وتحط من مكانته، وهذا خير شاهد على حدوث شيء خارج عن المألوف له، ذاك ما كان من شق صدره ﷺ صغيرًا.

الشبهة السادسة

إنكار لقاء النبي ﷺ ببَحِيرا الراهب(*)

مضمون الشبهة:

ينكر بعض المشككين لقاء النبي ﷺ ببحيرا الراهب النصراني أثناء رحلته الأولى للشام في صباه، ويستدلون على ذلك بأن بحيرا هذا شخصيةٌ وهمية لا أصل لها، وبأنه إذا ثبت وجود بحيرا وصحّ لقاؤه بالنبي ﷺ في صباه، فإن ما بشَّر به الغلامَ من بشارات النبوة أمرٌ أقرب للعَجَب والضحك منه للإقناع والتصديق. ويهدفون من وراء ذلك إلى التشكيك في المبشِّرات بنبوة محمد ﷺ عند أهل الكتاب كما ثبت في نصوصهم المقدسة قبل أن تنال منها أيدي التحريف.

وجوه إبطال الشبهة:

١) شخصية بحيرا شخصية حقيقية وواقعية مذكورة في الآداب البيزنطية ـ عندهم ـ باسمه ولقبه ومذهبه وتلاميذه، بل ومكان صومعته، وهو المكان الذي مرَّ به النبي ﷺ في صباه أثناء سفره للشام عام (٥٨٢م)، وقد يكون هذا اللقب مُحَوَّرًا على عادة العرب في تحوير الأجنبي من الأسماء.

٢) إننا لا نجد تفسيرًا لما ادَّعاه هؤلاء من خيالية شخصية الراهب "سرجيوس" أو "جرجيوس" الملقَّب بـ"بحيرا" إلا أحد أمرين؛ هما:

- إمَّا أنهم لم يربطوا بين اسم الراهب ولقبه وأنهما دالان على مسمًّى واحد، فهذا اسمه وذاك لقبه.

(*) الرسول ﷺ: حياته وتطور الدعوة الإسلامية في عصره، د. عبد الرحمن سالم، دار الفكر العربي، مصر، ١٤٢١هـ.

- وإمَّا أنهم أدركوا ذلك الربط، ثم لم يفرِّقوا بين مذهب هذا الراهب النسطوري، وبين مذهب القساوسة الكاثوليك أو الأرثوذوكس؛ فراحوا يبحثون عنه في كتبهم عبثًا دون جدوى، متجاهلين ما يقتضيه اختلافهم في المذهب من عداوة وتجاهل في الواقع.

٣) ليس فيما بشَّر به بحيرا النبي ﷺ في صباه ما يستدعي العجب، ولا ما يثير الضحك؛ فكلها بشارات وعلامات بمنزلة إرهاصاتٍ لنبوة هذا الغلام، ولا سبيل لإنكار مجموع إرهاصات نبوّته؛ لأن ذلك ثابت تاريخيًّا ودينيًّا وواقعيًّا على هذا النحو:

- تاريخيًّا: أن معاصريه وكبار صحابته شاهدوها ورووها ونقلها عنهم كبار المؤرخين، وإذا أبطلنا مشاهدة هؤلاء ونقل أولئك؛ لم يبق فيما وصلنا من مرويات التاريخ قيمة.
- دينيًّا: من المقرر الإيمان بمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، ومن ذلك معجزات عيسى عليه السلام الذي تكلّم في المهد صبيًّا، وأبرأ الأكمه والأبرص، وأحيا الموتى بإذن الله، ولم يقل أحد من المسلمين: إن هذه أمور مضحكة.
- واقعيًّا: نجد الواقع يشهد لأناس ليسوا أنبياء ولا أولياء تميزوا بفعل ما يستحيل على غيرهم من خوارق العادات.

التفصيل:

أولا. لم يكن بحيرا الراهب شخصية وهمية:

والحق نقول إن بحيرا - الذي نَسَبت له مصادر التاريخ الإسلامي تبشير النبي ﷺ في صباه بالنبوة في قصة لقائهما الشهيرة - لم يكن شخصيةً وهمية، دارت على ألسنة الناس، وأنها محض خيال أشبه ما يكون بأبطال الأساطير الذين تُنسج حولهم الحكايات، وتنسب لهم المغامرات؛ ذلك أن هذا الراهب شخصية واقعية، "وكان ذا علم من أهل النصرانية، يقيم في صومعة ببُصْرَى من أرض الشام، ولم يزل في تلك الصومعة راهبًا، إليه يصير علمهم عن كتاب يتوارثونه كابرًا عن كابر"[1].

إننا إذن أمام شخصية لها في مذهبها سابقون ورثت عنهم علم النصرانية، ثم بلغت فيه مبلغًا؛ حتى كان له في مذهبه تلامذة أمثال: "مذهب"، ومن جملة المتتلمذين على تلميذه هذا: "سلمان الفارسي" قبل إسلامه.

لم يكن بحيرا إذن حلقة في فلاة؛ فالرجل وَرِث النصرانية وورَّثها لتلاميذ، ورَّثوا علمها - بدورهم - لآخرين، ومثل هذا التواصل من شأنه أن يدعِّم واقعية بحيرا، بخلاف ما ادَّعاه مثيرو هذه الشبهة.

وجدير بالذكر أن بحيرا هذا مذكور في الكتب البيزنطية أنه راهب نسطوري على مذهب "أريوس" و"نسطور"، وكان ينكر لاهوت المسيح، ويقول: إن تسميته بإله غير جائزة، بل يجب أن يُدْعَى: كلمة، وأن تُدْعى والدته مريم: والدة الناسوت الذي هو مظهر الكلمة السَّامي - لا والدة الله -، وكان بحيرا قسًّا عالمًا فلكيًّا منجِّمًا، وقد اتخذ صومعته بقرب الطريق الموصّل إلى الشام، وأقام هناك مدة تمر عليه العربان والقوافل، فكان ينهاهم عن عبادة الأوثان، ويأمرهم بعبادة الله الواحد[2].

---

١. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص٣٢.

٢. المرجع السابق، ص٣٥.

ومعلوم أن المذهب النسطوري ـ الذي عليه بحيرا الراهب ـ يقول: إن الله تبارك وتعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة: الوجود، والعِلْم، والحياة، وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو، واتّحدت الكلمة بجسد عيسى ابن مريم عليه السلام كظهور النقش في الشمع إذا طُبع بالخاتم.

إننا حين نثبت ذكر بحيرا في كتب هؤلاء نريد ـ فقط ـ أن نبيِّن لهؤلاء الذين ادَّعوا وهميته أنه مذكور عندهم في آدابهم وكتبهم، أما ثبوته حقيقة عندنا فلا يحتاج لمثل هذا التدليل، ونحن حين نجزم بوجود بحيرا نُعْنَى بإثبات المسمَّى نفسه أو الشخصية نفسها، ولا نكتفي بإثبات مجرد الاسم الذي أُطلق على هذا المسمَّى أو تلك الشخصية؛ "فإن اسم بحيرا بالذات من الممكن عدم وجوده، مع احتمال وجود اسم مقارب لهذا الاسم؛ ودائما ما كانت العرب تحوِّر الأسماء غير العربية إلى أسماء محوَّرة إلى العربية، مثل: "لوزاريق" وأصله: "رودريجو"، "المقوقس" وأصله: "كبرس"، "الفارقليط" وأصله: "الباراكليتوس"، وليست العرب بدعًا في ذلك؛ فكثيرًا ما حوَّر الغرب الأسماء العربية إلى أجنبية، ومثال ذلك: أنهم يطلقون على "علاء الدين": "ألادان"، وعلى "ابن سينا": "فاينسين"، وعلى "صلاح الدين": "سلادان"... وهكذا"[1].

وإذا علمنا ذلك تعمَّق في أذهاننا وجود تلك الشخصية فيما لا يدع مجالًا للشك، مع احتمال أن يكون في اسمه شيء من التحوير العربي ـ على نحو ما أسلفنا ـ كعادة العرب مع تلك الأسماء الأجنبية.

ثانيًا. التفسير الصحيح لادعاء خيالية شخصية الراهب بحيرا:

إن ما ادَّعاه هؤلاء من خيالية شخصية الراهب "سرجيوس" الملقب بـ "بحيرا" لا يخرج عن أحد احتمالين:

١. إما أنهم لم يربطوا بين اسم الراهب ولقبه، ولم يعلموا أنهما دالان على شخص واحد، هذا اسمه وذاك لقبه.

فمعنى "بحيرا" في السريانية: العالم المتبحِّر، وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن اسم "بحيرا" مشتق من الكلمة الآرامية: "بحيرا" ومعناها: المنتخب؛ فهو لَقَب له، أما اسم هذا الراهب المسيحي فقد يكون: "سرجيوس" أو "جرجيوس""[2].

وبناءً على ذلك كله فإننا لا نستبعد أن يُذكر هذا الراهب المسيحي في أحد المصادر التاريخية باسمه، ويذكر في غيرها بلقبه، ولا يعني هذا ـ عند فَطِنٍ عاقل ـ وهميةَ هذا الراهب، وأن شخصيته محض خيال لا أصل لها في المصادر التاريخية كما زعم هؤلاء المتوهمون؛ ذلك أن اللقب "بحيرا"، والاسم "سرجيوس" أو "جرجيوس" دالان على مُعَيَّن واحد، فإذا ذُكر أحدهما كان علمًا على ذلك الراهب المسيحي نسطوري المذهب القاطن في صومعة ببُصْرَى من أرض الشام، والذي بَشَّر بنبوة محمد ﷺ في صباه في رحلة سفره للشام سنة ٥٨٢م، دون أي شك، أو أدنى لبس.

٢. وإما أنهم أدركوا ذلك الربط ـ بين الاسم

١. قوانين النبوة، موفق الجوجو، دار المكتبي، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٧٠ بتصرف يسير.

٢. محمد رسول الله، محمد رضا، مرجع سابق، ص٣٥.

واللقب ـ، ولكنهم لم يفرِّقوا بين مذهبه ومذهب القساوسة الكاثوليك أو الأرثوذوكس؛ فجهلوا البون الشاسع بين معتقده ومعتقدات هؤلاء، فراحوا يبحثون عنه ـ عبثًا دون جدوى ـ في كتب أعدائه القائلين بكفره:

يقول موفق الجوجو صاحب كتاب "قوانين النبوة" في هذا المعنى: إن توقع وجود ذِكْر الراهب بحيرا في كتب القساوسة من العبث بمكان، ولا يعقل أن نبحث عنه فيها؛ ذلك لأن بحيرا هذا على مذهب مخالف للمذهب الكاثوليكي أو الأرثوذوكسي، إذ يمكن أن يكون مذهبه نسطوريًّا أو آريوسيًّا، وكلا المذهبين يُعْتَبران كُفْرًا بالنسبة للكاثوليكية والأرثوذوكسية.

ودليل ذلك أن بحيرا كان في صومعة معتزلًا، ولو كان على مذهب العامة؛ لكانت إقامته في دير معترف به أفضل له، وهذا غير ممكن بالنسبة له، والدليل الداعم لهذا الرأي هو العبارة التي تقول: ورث كتابًا كانوا يتوارثونه كابرًا عن كابر...[1].

وعليه فإن البحث عن بحيرا الراهب النسطوري عند هؤلاء القساوسة وفي كتبهم ضرب من العبث والحرث في المياه، يُلام عليه صاحبه ولا يُعذر بجهله.

ثالثًا. ليس فيما بشَّر به بحيرا النبي ﷺ ما يستدعي العجب أو يثير الضحك؛ فما بشَّر به إرهاصات بنبوته ﷺ، وهي ثابتةٌ من جوانب شتَّى:

ليس فيما بشَّر به بحيرا النبي ﷺ في صباه ما يستدعي العجب ولا ما يثير الضَّحِك؛ فكلها بشارات وعلامات تُعَدُّ إرهاصًا بنبوة هذا الغلام، بشَّره بها هذا الراهب على نحو ما فعل غيره أمثال: سيف بن ذي يزن مع جده عبد المطلب، وليس ما قاله هذا الراهب للصبي محمد ببعيد عمَّا في كتبهم المقدسة، بل إنه ﷺ معلوم لهم بوصفه في الإنجيل والتوراة، حتى بعد تحريفهما.

ويحسن بنا أن نطالع نصَّ هذه الرحلة ـ كما أوردها الإمام محمد أبو زهرة ـ لنرى؛ هل فيها حقًّا ما يستدعي العجب أو ما يُضحك أو ما يُسْتَغْرب منه أو لا؟

يذكر الإمام محمد أبو زهرة ـ رحمه الله ـ تحت عنوان "إرهاص وبشارة بالنبوة" ما نصُّه: "لقد كان ببُصْرَى راهب في صومعة اسمه "بحيرا"، وكان على علم بالكتاب، وكان نزلاء هذه الصومعة ذوي علم بالتوراة والإنجيل، يتوارثون ذلك العلم كابرًا عن كابر.

وكان من طبيعة بحيرا كما هو طبيعة كل الرهبان ألا يخرجوا للقاء القوافل ولا يعرفوا أحوالها، ولا استضافة من فيها؛ لأن الرهبنة تقتضي العزلة وهم لا يخرجون عن سنَّتها، ولا ينحرفون بأنفسهم عن أحكامها، ويظهر أن قوافل العرب تعوَّدت من هذا الراهب خاصة ـ فضلًا عن غيره ـ ألا يلقاهم ولا يلقوه.

ولكنه في هذه المرة خرج من صومعته، إذ رأى من البيِّنات ما يتفق وما عنده من التبشير برسول يأتي من بعد عيسى عليه السلام اسمه أحمد، فخرج من الصومعة ليلتقي بتلك القافلة ويعرف من تنطبق عليه تلك الأمارات، ويتحقق فيه التبشير، وذلك أنهم نزلوا قريبًا من صومعته، وقد رأى غمامة تُظِلُّهم؛ تسير حين يسيرون وتقف حيث يقفون، كما أنهم إذا آووا إلى فيء[2] شجرة رأى أغصانها تتهصَّر[3] حتى تُظِل واحدًا منهم هو

---

١. قوانين النبوة، موفق الجوجو، مرجع سابق، ص٧١.

٢. الفَيء: الظل.

٣. تتهصَّر: تميل وتتدلَّى.

رسول الله ﷺ.

ويظهر أنه وجد هذه العلامات ولَمَّا يتبيَّن بَعْدُ ذلك الصبي، أو تبيَّنه وأراد أن يعرف أحواله، وبقية الأمارات الدالة على أنه المذكور في الإنجيل، ولذلك أراد أن يزيد تعرُّفه بالقوم؛ فاتجه إلى إكرامهم، فأقام لهم وليمة عامة تشمل صغيرهم وكبيرهم، لا يتخلَّف منهم أحد، وأرسل إليهم يدعوهم، وقال في رسالته لهم: إني صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلكم، كبيركم وصغيركم، وعبدكم وحركم.

لم يكن العجب من الدعوة إلى الطعام، إنما كان العجب من أنه ترك صومعته، وخرج إليهم، ولذا قال رجل من قريش: والله إن لك يا بحيرا لشأنًا اليوم، ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمرُّ بك كثيرًا، فما شأنك اليوم؟!

قال بحيرا: صدقت قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وأحببت أن أكرمكم، وأصنع لكم طعامًا تأكلون منه كلكم، فاجتمع القوم إليه، ولم يتخلَّف إلا محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ لحداثة سِنِّه، وبقي تحت الشجرة يرعى إبلهم ويحرسها، فلما رآهم لم ير الصفة التي عرف بها الرسول المنتظر في كتبهم، فذكر لهم أنه طلب ألا يتخلَّف أحد منهم عن طعامه، فقالوا: يا بحيرا، ما تخلَّف أحد ينبغي له أن يأتي إلا غلام وهو أحدثنا سنًّا، فتخلف في رحالتنا، قال: لا تفعلوا ادعوه، فليحضر هذا الطعام.

فقال رجل من قريش مع القافلة: واللات والعزى، إن كان للؤم منا أن يتخلَّف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا. حضر محمد ﷺ الوليمة، واختصَّه الرجل بفضل من العناية فاحتضنه وأجلسه.

أخذ بحيرا يلحظه لحظًا شديدًا، وينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرَّقوا قال له: يا غلام، أسألك بحق اللَّات والعُزى إلا أخبرتني عما أسألك - وإنما قال بحيرا ذلك؛ لأنه سمع قومه يحلفون بهما -. فقال له رسول الله ﷺ وهو غلام لم يُبعث بعد: "لا تسألني باللات والعزى شيئًا، فوالله، ما أبغضت شيئًا قط بغضهما"، فعدَل بحيرا عن استقسامه بهما وقال: والله إلا أخبرتني عما أسألك عنه، فقال ﷺ: "سلني عما بدا لك".

جعل بحيرا يسأله عن رحلته وهيئته وأموره، ورسول الله ﷺ يخبره، فوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم نظر إلى ظهره؛ فرأى خاتم النبوة بين كتفيه في موضعه من صفته التي عنده، فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب، فقال: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال بحيرا: ما هو بابنك، ما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا. قال أبو طالب: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حُبلَى به. قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر من اليهود، فوالله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت؛ لَيَبْغُنَّه شرًّا، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمه أبو طالب سريعًا، حتى أقدمه مكة، وأنجز تجارته"[1].

ثم يعلق الإمام محمد أبو زهرة - رحمه الله - على ذلك قائلًا: إن هذه رواية من الروايات التي رويت في هذه

---

١. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص١٢٧، ١٢٨.

الرحلة، وليس في التقاء بحيرا الراهب بالنبي ﷺ، ولا فيما ذكره بحيرا، ولا في أصل القصة غرابة؛ لأن التبشير بالنبي ﷺ ثابت عند أهل الكتاب، وليس في القصة أمر يستحيل تصديقه أو يتعذر، بل إنه خبر يتفق مع ابتداء نشأة النبي ﷺ، وإظلال الغمامة له ﷺ ليس فيه غرابة أو يُظن أنه غريب في زعم الذين يجحدون، ومن طبيعتهم جحود ما ليس ماديًّا ولا محسوسًا، ولكن يرد على جحودهم بأن شواهد الصدق في الخبر قائمة؛ فخاتم النبوة كان أمرًا ظاهرًا في جسم النبي ﷺ، رآه الراءون ووصفه الواصفون، فإذا كانوا لا يؤمنون إلا بالمادي، فهذا أمر مادي ظاهر، وقد وجد فيه، ولم يوجد في أحد غيره، فكيف يمترون؟

وهناك شاهد آخر هو وجود هذه الأوصاف المعروفة في التوراة والإنجيل حتى بعد تحريفهما، وإذا كان هؤلاء نسوا حظًّا مما ذُكِّروا به وأفسدوا الباقي، فالبشارات تلوح معلنة وجودها رغم أنف الجاحدين المستكبرين، فلا مجال لارتياب مرتاب[1].

وإذا افترضنا ـ جدلًا ـ مع هؤلاء عدم ثبوت شخصية باسم "بحيرا"، فماذا يضير القصة الثابتة والبشارات المبشَّر بها النبي أيًّا ما كان اسم الراهب؟!

المهم عندنا أن ثمة راهبًا بشَّر النبي ﷺ في صباه، ولا نقف بنظرة محدودة عند اسمه، فليكن ما يكون، والأهم من ذلك ألا يكون قَدْحُهم في شخصية بحيرا خطوة لإنكار بشارات النبوة التي سيقت على ألسنة أهل الكتاب وفق ما هو ثابت في كتبهم، ولا يستدعي هذا شيئًا من الغرابة أو العجب أو الضحك.

ومن الجدير بالذكر ـ في هذا المقام ـ أن نورد ردَّ الأستاذ محمد رضا على مستر وليام موير بشأن تفاصيل رحلة النبي ﷺ إلى الشام، يقول فضيلته متعجبًا:

وإنا لا ندري لماذا كانت هذه التفاصيل مضحكة في نظر مستر موير؟!

أما كون هذه التفاصيل مضحكة، فهذا ما لم يقل به أحد من أكابر المؤرخين الذين استمدَّ منهم مادته، وكان ينبغي عليه أن يقدِّر موقفه ويعلم أنه إنما يكتب تاريخ نبي لا شخص عادي؛ فالأنبياء والرسل تقع في حياتهم أمور خارقة تدل على نبوتهم وتؤيِّد رسالتهم، فالتي تقع قبل النبوة كالخوارق التي حدثت في مولده ﷺ وما شاهدته حليمة من تيسير الرزق والبركة وشق الصدر وما حدث في أثناء سفره إلى الشام ـ تسمَّى: إرهاصات، والتي تقع بعد النبوة تسمى: معجزات.

ولا شك أن محمدًا ﷺ وقعت منه خوارق العادات قبل النبوة وبعدها، ولا سبيل إلى إنكار مجموع إرهاصاته ومعجزاته لأكثر من وجهة:

- **من الوجهة التاريخية**: لأن معاصريه وكبار الصحابة قد شاهدوها ورووها ورواها عنهم كبار المؤرخين، ولو أبطلنا مشاهدتهم وروايتهم لم يبق للتاريخ قيمة.
- **من الوجهة الدينية**: لأن الدين الإسلامي يقرُّ معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، فمن ذلك معجزات سيدنا عيسى عليه السلام، فإنه تكلم في المهد صبيًّا وأبرأ الأكمة والأبرص وأحيا الموتى، ومع ذلك لم يقل أحد من المسلمين: إن هذه أمور مضحكة، وكذا معجزات موسى عليه السلام وهي مذكورة في التوراة والقرآن.

---

١. المرجع السابق، ص١٢٩.

- **من الوجهة الواقعية:** إن في العالم أناسًا ليسوا بأنبياء ولا أولياء تراهم في كل زمان ممتازين على أبناء جيلهم، يأتون أعمالًا يستحيل على غيرهم الإتيان بمثلها، ولقد شاهدنا في مصر فتى أميًّا من أبناء أحد المزارعين يضرب أرقامًا طوالًا وينطق بالجواب الصحيح بسهولة وبسرعة مدهشة من غير أن يخط بقلم، حار فيه علماء الرياضة وامتحنه كبار رجال الحكومة والصحافة، فهذا إنسان عادي له موهبة خاصة أذهلت عقول الخاصة، فكيف يمكن إنكار هذه الموهبة الخارقة والفتى لا يزال حيًّا بين ظهرانينا يحل المسائل في الطرق ويجيب كل سائل.

فإذا جاء رجل مثل مستر موير بعد ذلك بجيل أو أكثر وزعم أن هذه خرافة مضحكة ابتدعها المصريون، لم يغَيِّر ذلك شيئًا من الحقيقة.

وقد تواترت الروايات أن زكريا عليه السلام كان يجد عند مريم فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، فثبت أن الذي ظهر في حق مريم العذراء كان فعلًا خارقًا للعادة، ولم يقل أحد: إن ذلك مثير للضحك.

ويُروَى أن عيسى عليه السلام لما أخبر بني إسرائيل بنبوته وأظهر المعجزات أخذوا يتعنَّتون عليه وطالبوه بخلق خفاش، فأخذ طينًا وصوَّره ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض، فهل قال أحد: إن هذا أمر مضحك؟! فلماذا يستبعدون الإرهاصات والمعجزات على رسول الله؟ وذكر القرآن أن عيسى تكلم في المهد، وقد سأله الحواريون أن ينزِّل عليهم مائدة من السماء، فسأل عيسى الله تعالى أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون عيدًا لهم وآية من الله فاستجاب الله دعاءه. فهل قال قائل: إن هذا مضحك[1]®؟!

الخلاصة:

- إننا بإثبات لقاء النبي ﷺ ببحيرا نثبت حدثًا تاريخيًّا وقع بالفعل، ومؤداه منصوص عليه في كتب أهل الكتاب من مبشرات علمها بحيرا وبشر بها النبي ﷺ كما فعل غيره من أهل الكتاب، وليس بدعًا في ذلك، فلا وجه للحكم على شخصية هذا الراهب بالوهمية؛ لأن وهميتها لا تسقط من أذهاننا مبشرات النبوة فضلًا عن كونها ثابتة حقيقة.
- لا مجال للقول بأن بحيرا الراهب شخصية وهمية؛ لأنه مذكور في الكتب البيزنطية باسمه ولقبه وتلاميذه ومذهبه النسطوري ومكان صومعته، وكل هذه الأوصاف تؤكد بما لا يدع مجالًا للشك: أن هذا الراهب هو الراهب الذي لقيه النبي في طريقه للشام؛ فبشَّره النبوة.
- لا نستبعد أن يكون اسم "بحيرا" هذا أصيب بشيء من التحوير على نحو ما جرت عليه عادة العرب في تحوير الأسماء الأجنبية مثل: لوزاريق، والمقوقس، وغيرها، وكلها محوَّرة عن أصولها الأجنبية، وهذا ما فعله الغرب في بعض الأسماء العربية.
- إذا علمنا أن لفظ بحيرا في السريانية يعني: العالم المتبحِّر وهو لقب له، وأن اسمه قد يكون: "سرجيوس" أو "جرجيوس"، أدركنا أن من المحتمل أن يُذْكَرَ الرجل

---

١. محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، مرجع سابق، ص٣٣، ٣٤.

® في "بشارة سيف بن ذي يزن لعبد المطلب بالنبي ﷺ" طالع: الشبهة الثانية، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

في أحد المصادر التاريخية باسمه، ويذكر في مصادر أخرى بلقبه.

- إن ادِّعاء هؤلاء وهمية شخصية الراهب "سرجيوس" أو "جرجيوس" الملقَّب بـ "بحيرا" لا يعني إلا أحد أمرين:

  - إما أنهم لم يربطوا بين اسم الراهب ولقبه ولم يعلموا أنهما دالان على شخص واحد؛ هذا اسمه وذاك لقبه.

  - وإما أنهم أدركوا ذلك الربط، ثم لم يُفرِّقوا بين مذهب هذا الراهب النسطوري، ومذهب القساوسة الكاثوليك أو الأرثوذوكس؛ فراحوا يبحثون عنه في كتبهم عبثًا دون جدوى، متجاهلين ما يقتضيه اختلافهم في المذهب من عداوة في الواقع.

- ليس فيما بشَّر به بحيرا النبي ﷺ ما يستدعي العجب ولا ما يثير الضَّحك؛ فكلها بشارات وعلامات بمنزلة إرهاصات لنبوة هذا الغلام ولا سبيل لإنكارها.

- إن البشارات والمعجزات في حقِّ الأنبياء ثابتة في حق عيسى عليه السلام وغيره من الأنبياء والرسل؛ فقد تكلم عيسى في المهد صبيًّا وأبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى، ولم يقل أحد بغرابة هذا ولم يتعجب منه، فضلا عن أن ثمة أناسًا عاديين ليسوا أنبياء ولا أولياء يأتون بخوارق لا تتأتَّى لغيرهم يشاهدها من يعاصرونهم، ويرَونها رأي العين ويقرونها، فهل لو جاء رجل بعدهم بجيل أو أكثر وزعم أن هذه الخوارق محض خرافة مبتدعة، وأنها تهاويل مضحكة، أكان زعمُه ذاك مُغَيِّرًا من حقيقة الأمر شيئًا؟!



الشبهة السابعة

ادعاء أن نشأته ﷺ الاجتماعية المتواضعة دفعته لرسم خطة للإصلاح الاجتماعي(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشككين أنه ﷺ نشأ نشأةً متواضعةً اجتماعيًّا دفعته إلى التعديل من وضعه والارتقاء بمستواه الاجتماعي، فحرص على التجارة في مال خديجة - رضي الله عنها -، كما حرص على الزواج منها؛ لأنها من أعيان مكة، ثم أخيرًا راح يضع خطةً للإصلاح الاجتماعي، ودليل ذلك دعوته لتوحيد الدين واستقطاب الناس له.

وجوه إبطال الشبهة:

١) من الثابت تاريخيًّا أن نسبه ﷺ قد انحدر من أصل عريق، وأن نشأته المباركة كانت في بيئة طيبة؛ فقد كان ﷺ من بني هاشم، وهم من أشراف العرب.

٢) كونه ﷺ يتيمًا أو فقيرًا لا يعني تدنِّي مستواه الاجتماعي، لا سيما في عُرْف العرب الذين نشأ فيهم ﷺ.

٣) لم يكن ﷺ حريصًا على التجارة في مال السيدة خديجة - رضي الله عنها - بل هي التي طلبت منه أن يرعى لها تجارتها؛ لما كان عليه ﷺ من صدقٍ وأمانة، ثم هي أيضًا التي رغبت في الزواج منه ﷺ.

(*) الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر صديقي، ترجمة: د. سمير عبد الحميد، رابطة الجامعات الإسلامية، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م. بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارث، ترجمة: صبري محمد حسن، دار الأهرام، مصر، د. ت.

٤) كانت دعوته ﷺ لتوحيد الدين وحيًا من الله ﷻ لإخراج قومه والبشرية من ظلمات الشرك والضلال إلى نور الإسلام والتوحيد، ولم تكن حرصًا منه ﷺ على وضع خطة للإصلاح الاجتماعي كما يزعمون.

التفصيل:

أولا. من الثابت تاريخيًا أن نسبه ﷺ انحدر من أصل عريق، ونشأته ﷺ كانت في بيئة طيبة؛ فهو من أشراف العرب من بني هاشم:

مما لا شك فيه أن الأنبياء الكرام هم أشرف الناس نسبًا، كما أنهم أكملهم خَلقًا وخُلُقًا، ويدل على ذلك - على سبيل المثال - موقف هرقل (عظيم الروم) عندما سأل أبا سفيان بن حرب عن نسب النبي ﷺ فقال: "كيف نسبه فيكم؟ فقال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب. ثم قال: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها"[1].

ومن شواهد ذلك في قصص الأنبياء قول قوم شعيب لشعيب عليه السلام كما حكى القرآن: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ (هود: ٩١)، وقول قوم صالح لما أجمعوا على قتله عليه السلام: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٤٩﴾ (النمل).

ذكر ابن خلدون - في حديثه عن علامات نبوة الأنبياء - أن يكونوا ذوي أحساب في قومهم.

وأولى الأنبياء الكرام بكل فضيلة خاتمهم وسيدهم محمد ﷺ، وقد ورد في شرف نسبه أحاديث صحاح، منها ما رُوِي عن واثلة بن الأسقع أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم"[2].

وليس أدل على هذا مما ورد في فضل قريش؛ فعن أم هانئ مرفوعًا: "فَضَّل الله قريشًا بسبع خصال: فضلهم بأن عبدوا الله عشر سنين لا يعبده إلا قرشي، وفضلهم بأن نصرهم يوم الفيل وهم مشركون، وفضلهم بأن نزلت فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيهم غيرهم "لإيلاف قريش"، وفضلهم بأن فيهم النبوة، والخلافة، والحِجابة[3]، والسِّقاية"[4][5].

وليس أدل على هذا - كذلك - من أن جده عبد المطلب كان سيد قريش وشريفهم، وكان جماع أمرهم إليه، وهو الذي جدَّد حفر زمزم بعدما كانت مطمورة[6] من عهد جُرْهُم، وهو أول من طلى الكعبة بالذهب في أبوابها من غزالتين كانتا من ذهب وجدهما

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٤٧٠٧).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ وتسليم الحجر عليه (٦٠٧٧).

٣. الحِجابة: القيام بخدمة الكعبة وحفظها وامتلاك مفاتيحها.

٤. سِقاية الحجاج: سقيهم الماء.

٥. حسن: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، الجزء التاسع، من اسمه مصعب (٩١٧٣)، والحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، باب ذكر أم هانئ فاختة بنت أبي طالب بن عبد المطلب ابنة عم رسول الله ﷺ (٦٨٧٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٩٤٤).

٦. المطمورة: المخبَّأة أو المدفونة.

في زمزم أثناء حفره لها[١].

وفي فضله ﷺ يقول عمه أبو طالب:

إِذا اجتَمَعَت يَومًا قُرَيشٌ لِمَفخَرٍ
فَعبدُ مَنافٍ سِرُّها[٢] وَصَميمُها[٣]
فَإِن حُصِّلَت أَشرافُ عَبدِ مَنافِها
فَفي هاشِمٍ أَشرافُها وَقَديمُها
فَإِن فَخَرَت يَومًا فَإِنَّ مُحَمَّدًا
هوَ المُصطَفى مِن سِرِّها كَريمُها[٤]

ويؤكد هذا بعض القساوسة الغربيين قائلين: "هاشم هذا هو الجد الأعلى لمحمد، وكان أكثر الرجال تميُّزًا في سلسلة نسب محمد ﷺ، فإليه يُنسب محمد ورهطه، فيقال لهم بنو هشام أو الهاشميون، وكان اسم أم محمد آمنة، التي يمكن تَتبُّع سلسلة نسبها في أسرة مميزة في القبيلة نفسها"[٥].

وعليه فإن الزعم بأن النبي ﷺ كان من أسرة اجتماعية متواضعة زعم باطل؛ لأن هذا الزعم الباطل يتعارض مع حقائق التاريخ، ويفقد النقد العلمي مصداقيته، وعلى كل حال فإن الشرف الحقيقي يكون في النبوة والرسالة؛ لأنها مبنية على اختيار الله واصطفائه لمن يشاء من عباده لهذه المهمة السامية®.

ثانيًا. كونه ﷺ يتيمًا فقيرًا لا يعني تدنِّي مستواه الاجتماعي:

إن الفقر واليتم لا يتنافيان مع الشرف، فلا ينبغي لعاقل أن يقول بالتلازم بين اليُتْم والفقر وبين تدني المستوى الاجتماعي، لا سيما عند العرب الذين كان شرفهم في شجاعتهم، وكرمهم، ومروءتهم، وترفُّعهم عن الدنايا، لا في كثرة أموالهم، ثم كم من اليتامى من هم أغنياء، بدليل ورود التوجيهات في القرآن والسنة إلى وجوب إحسان الوصي التصرفَ في مال اليتيم الذي يَلِي أمره.

ويدل على ذلك أن عم خديجة (عمرو بن أسد) قد رحب بزواجها من محمد ﷺ قائلًا: "هذا الفحل لا يُجدَع أنفه"، أي أنه كفء كريم الأصل؛ فبنو هاشم - ومنهم محمد ﷺ - في الذروة من قريش نسبًا وشرفًا.

وقد صَدَع[٦] بعلوِّ نسبه ﷺ عمه أبو طالب في مجمع حافل بالسادات، فما نازعه فيه منازع؛ إذ إنَّ أبا طالب في خطبته التي خطبها في يوم زواجه ﷺ من السيدة خديجة - رضي الله عنها - قال: "الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزَرْع إسماعيل، وضِئْضِئ[٧] معد، وعنصر مضر، وجَعَلنا حَضَنَة بيته، وسُوَّاس حَرَمِهِ، وجعل لنا بيتًا محجوجًا، وحرمًا آمنًا، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا

١. وقفات تربوية مع السيرة النبوية، أحمد فريد، مرجع سابق، ص٢١، ٢٢. محمد ﷺ خير البشر وأمته خير الأمم، عمر أحمد محمد، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص١٩.

٢. السرُّ: الوسط.

٣. الصَّميم: الأصل الخالص.

٤. محمد ﷺ المثل الكامل، محمد أحمد جاد المولى، مرجع سابق، ص١٢، ١٣.

٥. محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، جورج بوش، مرجع سابق، ص١٣٨ بتصرف.

® في "إخبار النبي ﷺ عن طهارة نسبه" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثالثة، من هذا الجزء.

٦. صَدَع: جهر.

٧. الضئضئ: الأصل.

يوزن به رجل من قريش شرفًا ونبلًا وفضلًا إلا رجح به، وهو وإن كان في المال قُلٌّ فإن المال ظِلٌّ زائل وأمر حائل وعارية مسترجعة، ومحمد مَن عرفتم قرابته، وهو ـ والله ـ بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل جسيم، وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أحببتم من الصَّداق فعليَّ"[1].

هكذا يعلن أبو طالب شرف النبي ﷺ وأصالة نسبه ومكانته في قومه دون أن يكذبه أحد أو أن يردَّ قوله.

ثالثًا. لم يكن النبي ﷺ حريصًا على التجارة في مال السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ بل هي التي طلبت منه ذلك، ثم هي التي رغبت في الزواج منه:

كانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم عليه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجارًا، وكان الطالبون يتهافتون للعمل في مال خديجة، ويظهر أنها كانت تبحث عمن تراه كفئًا لحمل العبء، فأشار أبو طالب على محمد ﷺ القوي الأمين، بأن يعرض نفسه مسارعًا إلى ذلك خشية أن يسبقه غيره، ولكن محمدًا ﷺ يرى في العرض ذلة لا يرضاها الكريم، ومثار اتهام لا يرضاه الأمين، فهو يريد عزة المطلوب، لا ذلة الطالب، ولننقل هذه المجاوبة التي كانت بين العم وابن الأخ:

قال أبو طالب: يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وألحَّت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عِير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالًا من قومك يتَّجرون في مالها، ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضَّلَتْك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك، وإن كنت أكره أن تأتي إلى الشام، وأخاف عليك من يهود، ولكن لا نجد بُدًّا من ذلك. فيقول محمد الأمين: "لعلها ترسل إليَّ في ذلك". فقال أبو طالب: أخاف أن تولِّي غيرك.

ونرى من تلك المناقشة كيف لا يعرض شرفه وأمانته، وتكونان محل قبول أو رفض؛ لأن الأمين حقًّا وصدقًا، لا يجعل الأمانة ولا الشرف متجرًا يتَّجر به، ولا يتخذهما سبيلًا يتكسَّب منه.

وبالفعل أرسلت السيدة خديجة بنت خويلد إليه ﷺ تطلبه قائلة له: "دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا أعطيك ضعف ما أُعطِي رجلًا من قومك"[2]، فقبل ﷺ، وخرج في مالها ذلك وخرج معه غلامها "ميسرة" حتى قدم الشام.

ولما رجع النبي ﷺ إلى مكة ورأت خديجة ـ رضي الله عنها ـ في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا وأُخبرت بشمائله الكريمة، وجدت ضالتها المنشودة فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها "نُفَيْسة بنت مُنْية"، وقد ذهبت هذه المرأة إلى النبي ﷺ تفاتحه أن يتزوج خديجة فرضي بذلك، وكلَّم أعمامه فذهبوا إلى عم خديجة بنت خويلد وخطبوها إليه، وعلى إثر ذلك تم الزواج، وكان سنها إذ ذاك أربعين سنة، وكانت يومئذ أفضل نساء قومها نسبًا وثروة وعقلًا، وهي أول امرأة تزوجها

---

1. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٢٢٠: ٢٢٣.

2. خاتم النبيين ﷺ، محمد أبو زهرة، مرجع سابق، ج١، ص١٣٩، ١٤٠ بتصرف يسير.

رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت[1].

ومما يدفع فرية هؤلاء المشككين أن مجرد زواج رسول الله ﷺ لم يكن ليرفع من شأنه لو لم يكن مرفوع الشأن أصالة؛ فقد تزوجت السيدة خديجة بنت خويلد -رضي الله عنها- من قبله برجلين، وما ارتفع أحدهما عن الآخر بسبب الارتباط بها، أضف إلى هذا ما ذكرناه من قبل من أن السيدة خديجة هي التي سعت إلى الزواج منه، فقد بان لها من صدقه وأمانته في تجارتها ما حملها على التصريح برغبتها، فلو قلنا إن أحد الزوجين رغب أن ينال ارتفاعًا بالآخر لكانت خديجة -رضي الله عنها- هي التي رغبت في ذلك[2]. ولم لا؛ وقد كان ﷺ سببًا في رفعة شأن أهله قاطبة لا زوجته فحسب، وصدق ابن الرومي حين قال:

وَكَم أَبٍ قد عَلَا بابنٍ ذُرَا شَرَفٍ

كما عَلَت برسولِ الله عَدنانُ®

رابعًا. لم يضع النبي ﷺ خطة للإصلاح الاجتماعي، بل كانت دعوة التوحيد التي كُلِّف بها وحيًا من الله ﷻ لهداية البشرية جمعاء:

إن القول بأن رسول الله محمدًا ﷺ قبل أن يبلغ الأربعين من العمر قد رسم خطة لإصلاح التنظيم الاجتماعي العربي عن طريق توحيد الدين، ما هو إلا ادعاء عارٍ من الصحة، كما أن معتقِدَه يتسم بقدر كبير من السذاجة والغفلة؛ لأنه لو صح ذلك لكان العرب مهيَّئين لما جاءهم به ولما حدث منهم استغراب لرسالته، بل ولما ناصبوه العداء الذي وصل إلى الحرب الشرسة معه ﷺ.

ودعمًا لهذا الحق يقول د. محمد أبو شهبة: "لقد أتى على العالم حين من الدهر فسدت فيه العقائد وانتشرت الوثنية، وانتكست فيه الأخلاق، وسادت فيه الجهالات والخرافات، وعمَّ التقليد حتى كادت تتعطل فيه ملكة العقل والتفكير، وتغيَّرت فيه القيم الخلقية والمعاني الإنسانية، وأُهْدِرَ فيه الكثير من حقوق الإنسان، وتَغَلَّبت فيه قُوَى الشر والبغي والضلال على دعاة الحق والخير والهدى، سواء في ذلك البيئات المتحضرة أم البدوية، ذلكم الحين هو الفترة التي سبقت ميلاد نبينا محمد ﷺ وبعثته.

فقد كانت أحوال العالم الدينية، والاجتماعية، والأخلاقية، والسياسية، على أسوأ ما تكون، حتى إن أعظم المتفائلين كان يشك في أن يكون بعد هذا الفساد إصلاح.

من تلك الأحوال الدينية:

انتشرت الوثنية في شبه الجزيرة العربية وغيرها، وعبادة الشمس والكواكب في بلاد سبأ، وبابل، وكلدانيا وغيرها، والمجوسية في بلاد فارس وما جاورها، ووُجِدَت ثنوية تقول بإله النور وإله الظلمة، وصابئة ليس لهم دين، وبرهمية وعُبَّاد للحيوان ولا سيما البقر في بلاد الهند وما جاورها، إلى بوذية تقوم على تأليه بوذا وعبادته في بلاد الصين وما جاورها، ويهودية مُحَرَّفة

---

1. وقفات تربوية مع السيرة النبوية، أحمد فريد، مرجع سابق، ص٥٨، ٥٩.
2. الرد على القس بوش في كتابه "محمد مؤسس الدين الإسلامي"، د. عبد الرحمن جيرة، دار المحدثين، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٢٠٥، ٢٠٦ بتصرف.

® في **"قصة زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ).

مبدَّلة يزعم أهلها أن عزيرًا ابن الله، ونصرانية مُثلِّثة[1] في بلاد الروم وغيرها حتى بلاد اليونان، وهكذا نرى أن توحيد الله وعبادته وحده أمر كان حينئذ يكاد يكون معدومًا في الأرض...

وبكلمة مختصرة، فإن النصرانية - وهي آخر ديانات العالم المنزَّلة آنذاك - كانت في ذلك الحين في حكم المفقودة، وكانت قد فقَدت كل قدرتها الدافعة التي تمكِّنها من إحداث إصلاح أخلاقي، وإلى هذا فإن الدرك الذي تردَّى فيه المجتمع الإنساني كله في طول العالم وعرضه ليؤكد حاجة البشرية إلى مَن يخرجها من الظلمات إلى النور.

حاجة العالم إلى مخلِّص ومنقذ:

تُرى هل يترك الله ﷻ - وهو الرحمن الرحيم - العالم يتخبط في هذه الدياجير المظلمة وسط تلك الأمواج التي تتقاذفه ذات اليمين وذات الشمال؟

لا، ما كان الله ليدع العالم هكذا، فيا تُرى من ذا الذي اختارته العناية الإلهية والرحمة الربانية ليُخلِّص هذا العالم الحائر المضطرب المظلم الخائف، الذي أمسى على شفا جرف هار؟ إنه نبي التوحيد، والبر، والرحمة، والعدل، ونبي الملحمة، إنه نبينا محمد ﷺ.

لهذا - ولغيره - اختار الله خاتم أنبيائه ورسله من العرب برسالة عامة خالدة، واستأهل العرب أن يكونوا أحق الشعوب بحمل هذه الرسالة، وتبليغها إلى الناس جميعًا، ولم يمض قرن من الزمان حتى بلغ الإسلام ما بلغ الليل والنهار، وامتدت دولته من المحيط إلى المحيط"[2].

يقول الشيخ محمد الغزالي: لقد عمَّت الدنيا قبل بعثة محمد ﷺ حيرة وبؤس، ناءت بهما الكواهل، يقول الشاعر:

أَتَيتَ وَالناسُ فَوضى لا تَمُرُّ بِهِم
إِلّا عَلى صَنَمٍ قَد هامَ في صَنَمِ
مُسَيطِرُ الفُرسِ يَبغي في رَعِيَّتِهِ
وَقَيصَرُ الرومِ مِن كِبرٍ أَصَمُّ عَمِ[3]

ولا يفوتنا هنا أن نسوق بعض كلام المستشرقين الغربيين الذين أنصفوا محمدًا ﷺ وشهدوا بعظمته في كل شيء، وأنه مُرسَل من ربه لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، والفضل ما شهدت به الأعداء.

وإليكم بعض هذه الشهادات المنصفة:

يقول **مارسيل بوازار**: لقد كان محمد ﷺ نبيًّا لا

---

1. كان النصارى فِرَقًا؛ ففرقة تقول: الله ثالث ثلاثة، قال ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) ﴾ (المائدة)، وفرقة تقول: إن الله هو عيسى ابن مريم، قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى الْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٧) ﴾ (المائدة)، وفرقة ثالثة تدَّعي ألوهية عيسى وأمه مريم، قال ﷻ: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾ (المائدة)، وتكاد تكون عقيدة التثليث اليوم هي السائدة بين المسيحيين.

2. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج١، ص٢٤١: ٢٤٦ بتصرف يسير.
3. فقه السيرة، الشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٢٠.

مصلحًا اجتماعيًّا، وأحدثت رسالته في المجتمع العربي القائم آنذاك تغييرات أساسية لا تزال آثارها ماثلة في المجتمع الإسلامي المعاصر.

ويقول **هنري سيروي**: ومحمد ﷺ لم يغرس في نفوس الأعراب مبدأ التوحيد فقط، بل غرس فيها أيضًا المدنية والأدب.

ويقول **لورافيشيا فاغليري**: دعا الرسول العربي ﷺ بصوت مُلْهَم باتصال عميق بربه، دعا عبَدَة أوثان وأتباع نصرانية ويهودية محرَّفتين، إلى أصفى عقيدة توحيدية، وارتضى أن يخوض صراعًا مكشوفًا مع بعض نزعات البشر الرجعية التي تقود المرء إلى أن يشرك بالخالق آلهة أخرى.

ويقول **تولوستوي**: أنا واحد من المبهورين بالنبي محمد الذي اختاره الله الواحد لتكون آخرُ الرسالات على يديه وقلبه وعقله.. فقد جاء محمد ليستكمل بالإسلام البناء الاجتماعي للإنسان في كل مكان، ولم يضغط النبي محمد بأي طريقة على أصحاب الديانات الأخرى، ليدخلوا في دينه.

ويقول **جاك بيرك**: لا شك أن الإسلام الذي اختار الخالق له محمدًا كان جديرًا بمحمد[1].

وهكذا يتبين لنا أن بعثة النبي محمد ﷺ كانت ضرورة لانقاذ العالم كله مما تردَّى فيه من مهاوي الضلال، والمفاسد، والآثام، والتخبط. ولم تكن بعثته خطة مرسومة كما يزعم هؤلاء، وقد صدق الله تبارك وتعالى الذي قال عن نبيه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء) ®.

الخلاصة:

- تؤكد حقائق التاريخ أن نشأة النبي ﷺ كانت في أصل طيب ونسب عريق؛ إذ هو من أشراف العرب من بني هاشم الذين كانت لهم السيادة وأعمال الأشراف من قريش من سقاية ورفادة، وإن الشرف الحقيقي يكون في النبوة والرسالة؛ لأنها مبنية على اختيار الله واصطفائه لمن يشاء من عباده لهذه المهمة السامية.
- اليتم ليس عيبًا، والفقر لا يتنافى مع الشرف، وقد كان نبينا ﷺ يتيمًا فقيرًا فربَّاه ربه ﷻ وأغناه.
- لم يكن النبي ﷺ حريصًا على العمل في مال خديجة ولم يَسْعَ لذلك، بل هي التي أرسلت إليه وعرضت عليه الأمر، وكذلك لم يكن هدف النبي ﷺ من زواجه بالسيدة خديجة - رضي الله عنها - رفعة شأنه، ولكنها هي التي عرضت عليه أن يتزوجها لما رأت فيه من حسن الخلق وعظيم الأمانة.
- لقد بدأ النبي ﷺ دعوته بالتوحيد الذي يمثل لُبَّ دعوته، وكان ذلك بتكليف من الله تبارك وتعالى له، ثم جاء الإصلاح الاجتماعي في مرحلة لاحقة لتوحيد الله ﷻ.

---

1. انظر: الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدّي، مرجع سابق، ص١١٥ وما بعدها.

® في **"عرب الجاهلية قبل البعثة المحمدية"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب).

الشبهة الثامنة

الزعم أن النبي ﷺ كان مزواجًا شديد الميل للنساء(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المشككين أن النبي ﷺ كان شهوانيًّا مِزْواجًا محبًّا للنساء، وأنه كان شديد الميل لهن والولع بهن، ويستدلون على ذلك بما يزعمونه من أنه:

- كانت له ست عشرة زوجة وسُرِّيّة، ومع ذلك كان ينكح كل من وهبته نفسها، من غير تقيُّد بعدد.
- جمع بين هذا العدد من النساء في حين أنه حرَّم على المسلمين أن يجمعوا بين أكثر من أربع نسوة، وهو بهذا قد استحل لنفسه ما حرَّمه على غيره.
- لم يختر زوجاته على أساس ديني؛ بل كان هوى في نفسه.
- اتَّخذ لنفسه من النكاح متعةً على عادة سلاطين الشرق، بمجرد أن استقر له الأمر.
- كان ينساق خلف شهوته ويعزف عن عفاف القلب والروح؛ ومن ذلك أنه غضب من صحابته يومَ وليمة زواجه من زينب بنت جحش - رضي الله عنها - لأنهم تأخروا في الانصراف؛ مما عطَّله عن تلبية نداء مزاجه.
- اعتبر زواج المسلم بلا مهر ولا شهود ولا ولي زواجًا فاسدًا، في حين أنه أباحه لنفسه؛ فقد أعتق صفية بنت حيي بن أخطب، وتزوجها دون شهود ولا صداق ولا موافقة ولي، واعتبر مجرد عتقها صداقًا لها.
- وأخيرًا... أباح تعدد الزوجات لأتباعه كنوع من محاولة الدخول في هذه العباءة الفضفاضة لكي لا يبدو أكثر شهوانية منهم.

ويهدف هؤلاء المشككون من وراء ذلك كله إلى الطعن في حياته ﷺ الخاصة وعلاقته بالمرأة وإلباسها ثوبًا - لم تلبسه - من الشهوانية والميل الغريزي.

وجوه إبطال الشبهة:

١) تسرَّى النبي ﷺ، ولكنه لم ينكح كل من وهبته نفسها، ولم يكن ﷺ بدعًا من البشر في تسريه؛ وذلك لأن التسرِّي أمرٌ موجود منذ إبراهيم ﵇، والتوراة تذكر أن أنبياء بني إسرائيل قد اتخذوا السراري، فلما جاء الإسلام أقر هذه الظاهرة، ولكنه قيدها ووضع لها شروطًا وضوابط تكفل حماية السراري.

٢) لم يكن النبي ﷺ بدعًا من الرسل في تعدد زوجاته؛ فأمر تعدد زوجات الأنبياء والرسل معهود ومشروع في أغلب الأديان السابقة، وقد تزوج إبراهيم وإسحق وداود وسليمان - مثلا - بأكثر من زوجة.

٣) لم يكن النبي ﷺ عندما أمر المسلمين ألا يَجْمعوا بين أكثر من أربع زوجات إلا مبلِّغا تشريع ربه، أما جمعه ﷺ بين أكثر من أربع فهو مما اختصه الله ﷻ به ولا

(*) موقع مفكرة الإسلام. www.islammem.net. هل القرآن معصوم؟ موقع إسلاميات، عبد الله عبد الفادي. شبكة بلدي لمقاومة التنصير. حوارات مع أوربيين غير مسلمين، عبد الله أحمد فادي الأهدل، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٩٠م. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق. المستشرقون والإسلام، محمد قطب، مرجع سابق. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. الفكر الاستشراقي: تاريخه وتقويمه، د. محمد الدسوقي، مرجع سابق.

يجوز لغيره.

٤) اختياره ﷺ لزوجاته كان على أسسٍ دينية وحِكَم إنسانية ومقاصد تعليمية مأمورٍ بها، ولم يَحِدْ عنها ﷺ في أي زيجة من زيجاته.

٥) انطلق السلاطين في تعدد نسائهم من أمر دنيوي، لا يعدو أن يكون التعدد فيه مجالا للمتعة المزاجية واللهو الجنسي؛ ولذلك فإنهم كانوا لا يرضون إلا بالأبكار الجميلات؛ فهل يُعقل أن يُشبَّه النبي ﷺ بهؤلاء، وهو الذي تزوَّج في أول عهده بالزواج امرأةً ثيِّبًا تكبره بخمسَ عشرة سنة، ولم تكن في زوجاته بِكْر إلا عائشة؟!

٦) ما جاء به القرآن في قصة وليمة زواجه ﷺ من زينب بنت جحش إنما كان تهذيبًا لسلوك المسلمين، وتنبيهًا لهم إلى مراعاة شدَّة حياء النبي ﷺ، وما ينبغي لهم أن يفعلوه إذا دخلوا بيته ﷺ.

٧) جواز نكاحه ﷺ بغير ولي ولا شهود ولا مهر، وأن تحل له المرأة بغير عقد من جملة ما اختص الله به نبيه ﷺ، ولا يجوز لغيره.

التفصيل:

أولا. تسرَّى النبي ﷺ، ولكنه لم ينكح كل من وهبته نفسها، ولم يكن بدعًا من الأنبياء في تسريه:

قبل أن نفصل الحديث عن هذا يجدر بنا أن نوضح معنى هذه الكلمة "التسرِّي" لغة واصطلاحًا:

التسري في اللغة: اتخاذ السُّرِّيَّة، يقال: تَسَرَّى الرجل جاريته، وتسرَّى بها واستسرَّها: إذا اتخذها سرية، وهي الأمة المملوكة يتخذها سيدها للجماع، والتسرِّي من السرور؛ وسميت الجارية سرية لأنها موضع سرور الرجل، ولأنه يجعلها في حالة تسرها من دون سائر جواريه، وقيل: من السِّر بمعنى الإخفاء؛ لأن الرجال كثيرًا ما كانوا يتخذون السراري سرًّا ويخفونهن عن زوجاتهم الحرائر، والتسرى في الاصطلاح لا يختلف عن معناه اللغوى.

والتسرى جائز في الإسلام، بالكتاب والسنة والإجماع، إذا تمت شروطه، يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠)﴾ (المؤمنون)، وقد تسرَّى النبي ﷺ وكذلك اتخذ الصحابة السراري.

وليس معنى هذا أن الإسلام هو الذي ابتدع هذا النظام؛ فقد كان معروفًا في كل الأمم قبل الإسلام، وعرفته الأديان الأخرى قبل الإسلام، وقد ورد أن إبراهيم عليه السلام تَسَرَّى بهاجر التي وهبه إياها ملك مصر، فولدت له إسماعيل عليه السلام وقيل: كان لسليمان عليه السلام ثلاثمائة سرية، وقد عرف العرب الجاهليون التسري أيضًا[1].

أما عن تسري النبي ﷺ فقد ورد أنه ﷺ تسرَّى بأربعة من النساء:

الأولى: مارية القبطية بنت شمعون، وقد أهداها المقوقس للنبي ﷺ وأختها سيرين، فأعطى النبي ﷺ سيرين لحسان بن ثابت، وولدت مارية إبراهيم للنبي ﷺ في ذي الحجة سنة ثمان للهجرة.

والثانية: ريحانة وقيل اسمها ربيحة بنت شمغون - بالشين والغين - بن زيد بن عمرو بن قنافة من بني

---

١. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويتية، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج١١، ص٢٩٤ بتصرف.

النضير، وذكر ابن سعد عن الواقدي أن النبي ﷺ لما سباها أرسلها إلى بيت أم المنذر بن قيس، فدخل عليها، فاختبأت حياء منه، فدعاها وخيَّرها، فاختارت رسول الله، فلم تزل عنده حتى ماتت.

والثالثة: نفيسة، يقال: إنها كانت جارية لزينب بنت جحش، وهبتها للنبي ﷺ لما رضي عنها بعد هجرها.

والرابعة: أمة لا يُعرف اسمها[1].

فلِمَ يعاب على النبي ﷺ أنه اتخذ السراري، والتوراة نفسها تذكر أن أنبياء بني إسرائيل اتخذوهن؟

وإذا كان النبي ﷺ اتخذ السَّراري كغيره من الأنبياء فإنه لم ينكح كل من وهبته نفسها - كما يزعم مثيرو هذه الشبهة - ويجدر بنا قبل أن نفصِّل الحديث عن هذه الخصيصة من خصائص النبي ﷺ أن نوضح معنى (الهبة أو الوهب)، وذلك على النحو التالي:

الوهب: انتقال ملكية بلا مقابل، نقول: وهبك فلان كذا، أي: أعطاه لك بلا مقابل، ليس بيعًا وليس بدلًا. وشرط الهبة أن تكون من امرأة مؤمنة، قال الشعراوي: "قال: ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً ﴾ (الأحزاب: ٥٠)؛ لأن الهبة هنا خاصة بالمؤمنة، فإن كانت كتابية فلا يصح أن تهب نفسها للنبي ﷺ.

لكن أتحل له المرأة بمجرد أن تهب نفسها؟ قالوا: لا، إنما لا بُدَّ من القبول، فإن قالت المرأة لرسول الله: أنا وهبت نفسي لك، لا بد من أن يقبل هو هذه الهبة؛ لذلك علَّق الله على هذه المسألة بقوله: ﴿ إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ الأحزاب: ٥٠)؛

---

١. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص٢٢٤: ٢٢٧ بتصرف.

لأن المسألة مبنية على إيجاب وقبول"[2].

ولقد اختلف العلماء في مسألة هبة النساء أنفسهن لرسول الله ﷺ، هل كان عنده نساء موهوبات أم لا؟

ذهب بعضهم إلى أن الرسول لم يأخذ امرأة بهبة قطُّ، مستندين إلى ما رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: لم تكن عند رسول الله امرأة إلا بعقد نكاح أو مِلك يمين، فأما الهبة فلم يكن عنده منهن أحد.

وذهب آخرون إلى أن النبي ﷺ كانت عنده موهوبات، وقد رجح القرطبي ما ذهب إليه هؤلاء قائلًا: "والذي في الصحيحين يقوِّي هذا القول ويعضده؛ روى مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: "كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أما تستحي امرأة أن تهب نفسها لرجل حتى أنزل الله تعالى: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ (الأحزاب: ٥١)، فقلت: والله، ما أرى ربك إلا يسارع في هواك"[3].

وعن عائشة أنها قالت: "كانت خوْلة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ"[4]. فدل هذا على أنهن كُن غير واحدة. والله تعالى أعلم، قال الزمخشري: وقيل الواهبات أربع: ميمونة بنت الحارث، وزينب

---

٢. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، مصر، ط١، ١٩٩١م، ج١٩، ١٢١٠٧ بتصرف.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الأحزاب، باب قوله: ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ ﴾(٤٥١٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب جواز هبتها نوبتها لضرتها (٣٧٠٤).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد (٤٨٢٣).

بنت خزيمة أم المساكين الأنصارية، وأم شريك بنت جابرة، وخولة بنت حكيم"[١].

ولعل مما يؤكد أن النبي ﷺ لم يكن يقبل كل من تهبه نفسها ما رواه الأئمة من طريق سهل بن سعد: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، جئت أهب لك نفسي، قال: فنظر إليها رسول الله ﷺ فصعَّد النظر فيها وصوَّبه، ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه، فلما رأت المرأة أنه لم يقضِ فيها شيئًا جلست، فقام رجل من أصحابه، فقال: يا رسول الله، إن لم يكن لك بها حاجة فزوِّجنيها، فقال: "وهل عندك من شيء"، قال: لا والله يا رسول الله، فقال: "اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئًا"، فذهب ثم رجع فقال: لا والله ما وجدت شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: "انظر ولو خاتمًا من حديد"، فذهب ثم رجع فقال: لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد، ولكن هذا إزاري، قال سهل: ما له رداء فلها نصفه، فقال رسول الله ﷺ: "ما تصنع بإزارك إن لبسته لم يكن عليها منه شيء، وإن لبسته لم يكن عليك منه شيء"، فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله ﷺ مولِّيًا فأمر به فدُعِي، فلما جاء قال: "ماذا معك من القرآن"؟ قال: معي سورة كذا وسورة كذا، عدَّدها، فقال: "تقرؤهن عن ظهر قلبك"؟ قال: نعم، قال: "اذهب، فقد ملَّكتكها بما معك من القرآن" [٢].

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ج١٤، ص٢٠٨.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب تزويج المعسر (٤٧٩٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد وغير ذلك (٣٥٥٣)، واللفظ له.

فهل يصح أو يُعقَل بعد هذا أن يزعم زاعمٌ أن النبي ﷺ كان ينكح كل من وهبته نفسها من غير حساب في العدد. وقد وُجد من العلماء من نص على أن النبي ﷺ لم يكن عنده من النساء الواهبات أنفسهن له واحدةٌ[®]؟!

ثانيًا. لم يكن النبي ﷺ بدعًا من الرسل في تعدد الزوجات:

لا بد أن نقرر أن الأديان السماوية قبل إبراهيم عليه السلام ليس لها كتب معروفة تؤخذ منها تشريعات الأسرة، والذي حكاه القرآن الكريم عنها هو المرجع الصادق لها وإلى جانبه النصوص الدينية الأخرى، وكتب التاريخ، ولا يوجد في هذه المصادر ما يدل على أن التعدد كان ممنوعًا في هذه الأديان، ويهمنا أن نعرف ما جاء في الديانتين الكبيرتين اللتين نزلت بهما الكتب السماوية بعد إبراهيم عليه السلام، وهما اليهودية والنصرانية.

وإن كان الاستدلال بما في التوراة والإنجيل الموجودَين الآن غير معتبر؛ وذلك لتحريفهما بشهادة القرآن الكريم إلا إننا سنحكي ما ورد فيهما خاصًّا بالتعدد، مع العلم بأن القرآن نزل مهيمنًا عليهما في أخبارهما ومضامينهما التشريعية خاصة.

وإبراهيم عليه السلام ـ وهو قبل التوراة والإنجيل كما ورد فيهما وفي القرآن الكريم ـ كان متزوجًا من سارة، ولما لم يُرزق منها بذُرِّيَّة، تزوج هاجر المصرية التي أُهديت لسارة، فرُزق منها بإسماعيل، ثم رُزق من سارة بإسحاق، فهو قد جمع بين اثنتين في عصمته، بصرف

® في "جواز التسري في الإسلام بشروط" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الرابعة عشرة، من هذا الجزء.

النظر عن كون إحداهما وهي سارة زوجة، والأخرى هاجر سرية على الخلاف في ذلك[1].

وقد كانت له أيضًا سراري كثيرة، والدليل على ذلك ما ورد في التوراة: "وأما بنو السراري اللواتي كانت لإبراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحاق ابنه شرقًا إلى أرض المشرق وهو بعدُ حيٌّ". (التكوين ٢٥: ٦)[2].

وجاء في التوراة أيضًا أن إسحاق بن إبراهيم - عليهما السلام - ولد له ولدان اثنان، هما: عيصو، ويعقوب عليه السلام، وأن عيصو جمع بين خمس زوجات، هن: يهوديت، بسمة، محلة، عدا، أهوليبامة، وأن يعقوب جمع بين أربع زوجات هن: ليئة، راحيل شقيقتها، بلهة، زلفة، وهذا التشريع كان في صحف إبراهيم عليه السلام قبل نزول التوراة على موسى عليه السلام، وكان من عادتهم أن الزوجة تسمح لزوجها بمعاشرة الجواري وتلحق أولاده منهن بها، وهذه العادة كانت شائعة في الزمن القديم عند إسبرطة اليونانية.

التعدد في اليهودية:

اليهودية دين اليهود الذي نزلت به التوراة على موسى بعد إبراهيم - عليهما السلام - والتوراة الحقيقية غُيِّرت وحُرِّفت، ومهما يكن من شيء فإنه يؤخذ مما ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

ولقد أكدت كتب اليهود أن مبدأ التعدد مقرر عندهم، وكان تقرير هذا المبدأ امتدادًا لتقريره لديهم في شريعة إبراهيم عليه السلام ومن بعده، حتى جاء موسى. فداود جمع بين تسع زوجات أولًا، ثم وصلن إلى تسع وتسعين كما قالوا[3].

وكذلك تذكر التوراة المحرَّفة أن سليمان كان يحب النساء، حتى فُتِن بهن، وغضب الله عليه، وفيها أيضًا أنه كان له سبعمائة سيدة، وثلثمائة سُرِّيَّة، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: "قال سليمان بن داود: لأطوفنَّ الليلة على مائة امرأة أو تسع وتسعين كلهن يأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: قل: إن شاء الله، فلم يقل: إن شاء الله، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشقِّ رَجُل[4]، والذي نفس محمد بيده، لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرسانًا أجمعون"[5].

واختلفت الروايات في عدد نساء سليمان عليه السلام، فقيل: ستون أو سبعون أو تسعون أو مائة - وتحقيق العدد في شرح الزرقاني على المواهب ولا يهمنا العدد فالثابت أنه كان في عصمته أكثر من زوجة.

وجاء في كتبهم أيضًا أن "رحبعام" جمع بين ثماني عشرة زوجة، وأن "يهو باراع" الكاهن جمع بين زوجتين وأن "إبيا" ملك يهوذا جمع بين أربع عشرة زوجة.

ولقد ظل التعدد جائزًا عند اليهود، ولم يحرمه إلا مجمع "وورمز" الرباني الشهير، الذي عُقد في بداية

---

١. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص٤٠.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٥٣٨.

٣. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص٤١.

٤. شِقُّ رَجُل: نصف ولد.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من طلب الولد للجهاد (٢٦٦٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الاستثناء (٤٣٧٦)، واللفظ للبخاري.

القرن الحادي عشر الميلادي، وإن كان بعض طوائفهم ما زالت تمارسه، أسوة بأنبياء بني إسرائيل.

التعدد في المسيحية:

لقد جاء الإنجيل مكمِّلًا للتوراة، ورسالة عيسى ابن مريم عليه السلام مكملة لرسالة موسى عليه السلام، بتقرير ما كان صالحًا منها لتطور العصر وظروف البيئة، ومصححًا ما لحقها من تحريف أو خطأ، يقول عيسى: "لا تظنوا أني جئتُ لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض، بل لأكمل". (متى ٥: ١٧). وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦)﴾ (الصف).

وبهذا نقول: إن عيسى عليه السلام لم يُحرِّم تعدد الزوجات، ولم نجد في الإنجيل نصًّا صريحًا في التحريم[1].

وقد جاء في إنجيل متَّى مثل مضروب للملكوت الأعلى على لسان المسيح يدل على أن الجمع بين خمس زوجات جائز، بل الجمع بين عشر؛ فيه: "إن عشر عذارَى كن ينتظرن عريسًا ليلًا، وكان منهن خمس حكيمات أخذن القناديل واحتياطيًّا من الزيت، وخمس أخريات أخذن القناديل فقط... إلى أن قال: وذهبت هؤلاء الحكيمات الخمس إلى العريس، ودخل بهن منزلًا وأغلقه، ولم يدخل الأخريات لعدم حيطتهن، ولو أنهن اشترين زيتًا احتياطيًّا لدخل العريس بالعشرة".

هذه هي العبارة المنسوبة إليه، ولو كان التعدد حرامًا ما ضرب المسيح مثلًا للسعادة في ملكوت السماء بشيء محرَّم[2].

وفي الإنجيل أنه كان للمسيح عيسى عليه السلام أربعة إخوة هم: يعقوب، ويوسي، ويهوذا، وسمعان: "أليس هذا هو النجار ابن مريم، وأخو يعقوب ويوسي ويهوذا وسمعان؟ أوليست أخواته ههنا عندنا"؟ (مرقس ٦: ٣)، واتفق النصارى على أن مريم أتت بالمسيح بغير زرع بشر، وإذا كان هذا حاله، فهل هؤلاء الأربعة على الحقيقة إخوة أم على المجاز؟

اختلفوا؛ لأن متى قال عن يوسف النجار: "ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر، ودعا اسمه يسوع". (متى ١: ٢٥)، فيكون قد عرفها بعد ولادته، وإن منهم لفريقًا يقولون: "إنها ظلت عذراء إلى أن ماتت، وإن الأربعة أولاد ليوسف من زوجة سابقة له على مريم". وعلى أية حال فإن غرضنا هو إثبات تعدد الزوجات بإخوة المسيح الأربعة، وفي تفاسير الإنجيل أنه كان له أختان أيضًا هما أستير وثامار[3].

"وهكذا نجد أن تعدد الزوجات لم يكن من صنع الإسلام أو الرسول ﷺ"، وإنما هو تشريع قديم عرفته كل الحضارات والأديان وفي مقدمتها اليهودية، وأقرته المسيحية، إلا في حالة واحدة هي حالة الأسقف؛ حيث لا يستطيع الرهبنة مع تعدد الزوجات، فليكتف بزوجة واحدة، والقوانين الوضعية هي التي حرمت التعدد في العالم المسيحي.

---

١. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص٤٤، ٤٥.

٢. المرجع السابق، ص٤٦.

٣. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٥٣٩.

يقول الأستاذ محمد فؤاد الهاشمي (العالم الذي كان مسيحيًّا ثم أسلم): "إن اعتراف المسيحية بتعدد الزوجات بقي إلى القرن السابع عشر"، وظل آباء الكنيسة في الغرب يبيحون تعدد الزوجات ويعترفون بأبناء الملوك الشرعيين من أزواج متعددات باعتراف وستر مارك **wester mark**، وبعرض من العالم القانوني جرتيوس ***Grotius***[1]، وهكذا نجد أن تعدد الزوجات والسراري كان مباحًا في كتب التوراة والإنجيل التي يقدسها المبشِّرون والمستشرقون لأنبيائهم، فكيف اعتبروه نقيصةومطعنًا لسيد البشر وخاتم الأنبياء محمد ﷺ؟!

ومن قبلُ طعن أسلافهم اليهود في النبي ﷺ بسبب هذا، فردَّ عليهم القرآن أبلغ ردٍّ، وذكَّرهم بأن التعدد سُنة من سنن الأنبياء والمرسلين الذين كانوا قبله، رُوي أن اليهود عَيَّرت الرسول ﷺ وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همة إلا النساء، والنكاح، ولو كان نبيًّا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء، فأنزل الله تعالى في الرد عليهم قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ﴾(الرعد). فقد ألقمهم هذا الرد حجرًا، فباءوا بالخزي والبهتان[2].

ونخلص من هذا كله إلى أن تعدد الزوجات سنة من سنن الأنبياء؛ وأن ما جاء به النبي ﷺ لم يكن بدعًا من الأنبياء السابقين فلقد تزوج إبراهيم، وإسحاق، وداود، وسليمان.. وغيرهم بأكثر من زوجة، فلماذا تُوجَّه حملات الطعن والتشكيك فيأخلاقه ﷺ بتعدد الزوجات دون غيره من الأنبياء؟

ثالثًا. لم يكن النبي ﷺ عندما أمر المسلمين بألا يجمعوا بين أكثر من أربع زوجات إلا مبلِّغا عن ربه:

إن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، كما قال ﷻ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾(النجم)، فهو لا ينطق في تشريعاته جميعها ـ ومنها بالطبع تشريعه عدم زيادة الزوجات عن أربع ـ عن هواه، إنما هو بوحي من الله ﷻ.

وثمة أحاديث كثيرة ينهى فيها النبي ﷺ أصحابه عن أن يجمعوا بين أكثر من أربع زوجاتٍ، ويأمرهم بأن يُمْسكوا أربعًا فقط ويفارقوا الأخريات.

ومن ذلك قول النبي ﷺ لرجل من ثقيف أسلم وعنده عشر نسوة: "أمسكْ أربعًا، وفارق سائرهن"[3]. وقوله ﷺ للحارث بن قيس، عندما أسلم وعنده ثمان نسوة. "اختر منهن أربعًا"[4][5].

---

1. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٥، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢٢٩.
2. السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، مرجع سابق، ج٢، ص٣٠٢.
3. صحيح: أخرجه الترمذي في سننه، كتاب النكاح، باب الرجل يسلم وعنده عشرة نسوة (١١٢٨)، وابن حبان في صحيحه، كتاب النكاح، باب نكاح الكفار (٤١٥٧)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣١٧٦).
4. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة (١٩٥٢)، والترمذي في سننه، كتاب الطلاق، باب من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع أو أختان (٢٢٤٣)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٥٨٨).
5. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص٧٤.

لقد استدل مثيرو الشبهة بهذه الأحاديث التي يأمر النبي ﷺ فيها أصحابه بألا يزيدوا على أربع زوجات، في مقابل زواجه أكثر من أربع زوجات - على أنه كان مزواجًا محبًّا للنساء، والذي أوقعهم في هذا الزعم الخاطئ جهلهم بخصيصة من الخصائص التي اختصَّه الله ﷻ بها دون من عداه من أفراد أمته، وهذه الخصيصة هي: (زواجه بأكثر من أربع نسوة).

لقد أرسل الله ﷻ نبيه ليبين للناس ما نُزِّل إليهم من ربهم، ولما أُرْسِلَ كان التعدد موجودًا عند العرب، وثابتًا حتى عند الأنبياء السابقين، لكن الله ﷻ أراد أن يحدد هذا التعدد تحديدًا يمتص الزائد من النساء، ولا يجعله مباحًا في كل عدد، فأمر رسوله أن يقول لأمته: من كان عنده أكثر من أربع فليمسك أربعًا، ويفارق من زاد عنهن، في حين كان عنده ﷺ تسع زوجات.

فلو أن الحكم شمله، فأمسك أربعًا، وسرَّح خمسًا لأصابهن ضرر كبير، ولصرْن معلَّقات؛ لأنهن زوجات رسول الله وأمهات المؤمنين، وليس لأحد أن يتزوج إحداهن بعد رسول الله.

ولهذا نجد الله ﷻ يأمره أن يبقي على زوجاته كلهن (وكن تسعًا)، يقول ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ (الأحزاب: ٥٠)، كما أمره أن يقتصر عليهن بذواتهن، بحيث لو ماتت إحداهن أو طُلقت فليس له أن يتزوج بغيرها؛ لأن الله خاطبه بقوله: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾(الأحزاب: ٥٢).

فلم يُستثنَ النبي في العدد، ولكنه استُثني في المعدود؛ حيث وقف عند هؤلاء التسع بذواتهن، وليس له أن يتزوج بغيرهن أو أن يستبدلهن بأخريات، أما غيره من أمته فله أن يتزوج ضِعف أو أضعاف هذا العدد، شريطة ألا يزيد عن أربع في وقت واحد[1].

إنه ربما كان النبي ﷺ من أقل الناس حظًّا في التعدد؛ لأن قَصْر عدد زوجاته على رقم معين حدده له الشرع، لا يتجاوزه؛ إذ لا تحل له النساء من بعد ولا أن يبدِّل بهن من أزواج يجعل في إمكان أي مسلم أن يعدِّد أكثر منه، على الرغم من وجوب اقتصار المسلم العادي على أربع زوجات؛ وذلك أنه يستطيع تطليقهن جميعًا أو بعضهن والبناء بزوجات جديدات دون حد.

رابعًا. كان اختيار النبي ﷺ زوجاته على أسس دينية وحِكَم إنسانية ومقاصد تعليمية مأمور بها من قبل الله ﷻ، ولم يَحِدْ ﷺ عن هذه الأسس مرة واحدة:

لم يكن النبي ﷺ كامل الحرية في التزوج بمن يشاء، بل كان زواجه بأمرٍ من ربه[2]. ويمكن تقسيم الحكم وراء تعدد زوجات النبي ﷺ إلى قسمين: حكم عامة، وحكم خاصة بكل زوجة من زوجاته، وفيما يأتي نفصِّل هذين القسمين:

١. **الحكم العامة:**

- تبليغ الأحكام الخفية الخاصة بالحياة الزوجية، والتي لا يطَّلع عليها إلا الزوجان غالبًا، ومعرفة السياسة الخاصة بالمنزل، والمعاشرة الزوجية لها منزلتها في الحياة الاجتماعية، وقد يصعب على واحدة أو قلة من الزوجات القيام بهذا التبليغ كما ينبغي، وذلك لكثرة

---

١. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعرواي، مرجع سابق، ج١٩، ص١٢١٠٢ بتصرف يسير.

٢. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص١٥٨.

الأسئلة عن هذه الأحوال الخاصة؛ وكان لأزواج النبي ﷺ باع طويل في رواية الأحاديث وتبليغ الأحكام بوجه عام، وعلى رأسهن السيدة عائشة، التي روت من الأحاديث قرابة ألفين ومائتين وعشرة أحاديث، وتلقاها عنها كثير من الصحابة والتابعين، وكذلك روت السيدة حفصة ستين حديثًا.

- الاستعانة بهن في شرح الغوامض التي كانت تَرِد في إجابة النبي ﷺ على أسئلة النساء، وفيما يُستحيا من ذكره، كشرح عائشة للمرأة كيفية التطهُّر بغسل الحيض الذي كنَّى عنه النبي ﷺ ولم يفصح، وقد كان ﷺ على حياء كبير اضطره أحيانًا أن يكنِّي عن الأعضاء الخفية وما يتصل بها.

- إظهار معجزة أو منقبة للرسول ﷺ كانت كامنة، ولولا هذا العدد من الزوجات ما برزت للناس، وذلك بزيادة أعباء التكاليف عليه، إذ كيف تظهر قوة الرسول في القيام بواجبهن جميعًا مع تقشُّفه وكثرة صيامه وطول قيامه ومشاق جهاده؟ الأمر الذي جعل الصحابة يتحدثون عنه بأنه أُعطي قوة ثلاثين أو أربعين من الرجال، إنها طاقة لا تكون إلا للموهوبين أو المصطفين من الناس.

- تحقيق صدقه في دعوته وتبرئته من تهمة الناس له بالسحر والكهانة وما إليهما؛ إذ كيف يُعرف أنه ليس كذلك، وربما مارس بعض هذه الأعمال كالاتصال بالجن مثلًا خِفْية، حيث لا يكون غالبًا إلا سرًّا، ولكن اطلاع الزوجات على أحواله الداخلية، وهن جمع يؤمن معه تواطؤهن على ستر العيوب، ولا يتصور اتفاقهن على ممالأته في ادعاءاته إن كانت باطلة.

- رفع درجات النبي ﷺ بزيادة أعباء التكاليف في القيام بواجبهن، وما أشقه وأدقه وأهمه!! لقد كان الوحي يلاحقه وهو مضطجع مع بعض نسائه، كما جاء عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل على الوحي، وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها"[1].

- إظهار أخلاقه الشريفة المستنيرة ومحاسنه الباطنة، التي لا تعرف إلا في ظل الحياة الزوجية بشكل واسع، يدل على ذلك أنه تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكان أبوها كافرًا محاربًا للرسول إذ ذاك، وتزوج صفية بنت حيي بن أخطب، وقد قتل أباها وعمها وزوجها، فلو لم تطَّلعا من بواطن أحواله على أنه أكمل الأزواج لكانت الطباع البشرية تقضي بالنفور عنه، والميل إلى الآباء والأقارب، وقد صح ذلك عند البخاري ومسلم.

- تأليف العرب بالمصاهرة، ليخفف ذلك من حدة عنادهم للرسول ﷺ، وقد كان لهذا الإصهار أثره في مثل قول أبي سفيان، عندما سمع أن النبي ﷺ تزوج ابنته: "هو الفحل لا يُقْدَع أنفه"، ذكره ابن سعد وغيره[2].

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها (٣٥٦٤).
2. قيل: إن عبارة "هو الفحل لا يُقدَع أنفه" قالها ورقة بن نوفل في النبي ﷺ حين خطب خديجة، وأصحاب الحديث يرددونها بلفظ "يُقرَع" بالراء بدل الدال، قالوا: إن البعير إذا لم يكن كريمًا وأراد الناقة الكريمة يُضرَب أنفه بالرمح حتى يرجع، يقال: قُدِع أنفه عن كذا: أي مُنِع، والفحل هو الذكر من ذوي الحافر والظِّلف والخف وغير ذلك من ذي الروح. (حياة الحيوان الكبرى، الدميري. النهاية، ابن الأثير).

في مثل اختيار صفية له ﷺ عندما خيرها بين المقام معه والرجوع إلى أهلها وكان لهذا أثره في تخفيف الحدة بين الرسول واليهود بعد ذلك.

وكذلك في مثل جويرية بنت الحارث المصطلقية التي اختارت الرسول ﷺ عندما جاء أبوها يفتديها منه، وكان قد أخفى بعيرين، فقال له النبي ﷺ: "وأين البعيران اللذان بالعقيق في شعب كذا وكذا"؟ فأسلم، وأسلم معه ولداه وناس من قومه، كما روته كتب السيرة[1].

٢. **الحكم الخاصة:**

لم يخل زواج النبي ﷺ من أية زوجة من زوجاته ـ من لدن خديجة وحتى آخر زوجاته ـ من حكم تشريعية وتعليمية وإنسانية، وفيما يلي نفصل هذه الحكم تبعًا لزوجاته، واحدة تلو الأخرى:

- **خديجة بنت خويلد:** أولى زوجات النبي ﷺ، فقد تزوج خديجة وهي تكبره بخمسة عشر عامًا، تزوجها ﷺ بعد عودته من رحلة الشام ٥٩٥م بشهرين، وقد كانت تُلقَّب بسيدة قريش، وبالطاهرة. وقد زوجها ثيبًا؛ تزوجها قبله عتيق بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم، ثم مات، فتزوجها بعده أبو هالة، وقد ولدت لعتيق هندًا، ولأبي هالة هندًا وهالة، وهي أول من آمن من النساء بدعوة الحق.

وكانت السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ ذات شرف وسؤدد، فضلًا عن غناها... قد آثرت تربية أولادها على الزواج إلى أن صادفت النبي ﷺ، فأرسلت إليه تعرض عليه الزواج فقبل. وأنجبت للنبي ﷺ البنين والبنات: القاسم، وعبد الله، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة. ولقد آزرت النبي ﷺ في دعوته مؤازرة عظيمة بمالها ونفسها. وقد قضت في الحصار (شعب أبي طالب) ثلاث سنين، وهي الغنية الموسرة ـ رضي الله عنها ـ وعمرها يومئذ ثلاث وستون سنة. توفيت ـ رضي الله عنها ـ قبل الهجرة بثلاث سنين.

وكان السبب الرئيسي في زواجه ﷺ من خديجة البحث عن الاستقرار والأمان في الحياة الزوجية؛ وقد أمضى ﷺ معها فترة مديدة، ولم يتزوج غيرها وظل مخلصًا لها في هذه الفترة حتى وصل الخمسين من عمره، وهي الفترة التي يكون الرجل قادرًا على تعدد الزوجات، ولكنه لم يتزوج غيرها، وظل لها وحدها خمسة وعشرين عامًا رغم أن من العادات والتقاليد العربية في كل القبائل تعدد الزوجات، ورغم ذلك فإن الرسول ﷺ لم يجار عادات العرب بتعدد الزوجات، واقتصر على زوجة واحدة فقط لمدة ربع قرن[2].

- **سودة بنت زمعة:** ولم تكن الزوجة الثانية أفضل من سابقتها، من حيث الحسب، والجمال، لكنها زادت عليها بالفقر الشديد؛ حيث هاجرت إلى الحبشة مع زوجها السكران بن عمرو وفي العودة تُوفِّي السكران وأصبحت سودة بلا عائل، فتزوجها الرسول ﷺ رحمة بها من مآسي الدهر، ولتكن راعية لأولاده الذين ماتت عنهم أمهم، وكان زواجه بها أيضًا تشريفًا لها ولقومها؛ لأن أخوالها من بني النجار، وهو يتألف بها بني عبد

١. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص١٥٩: ١٦١.

٢. محمد والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا، دار البباوي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ص٧٦، ٧٧.

شمس، كما خاف عليها أن يفتنها قومها إذا رجعت إليهم بعد موت زوجها[1].

- **عائشة بنت أبي بكر**: تزوجها الرسول ﷺ حتى يقوّي الرابطة بينه وبين أبيها أبي بكر الذي كان أول الناس دخولًا في الإسلام.

وقد تزوجها النبي ﷺ بكرًا، ولم يتزوج بكرًا غيرها. نزلت آيات كثيرة من القرآن بسببها مثل آيات الإفك والتيمم.

وكانت -رضي الله عنها- من كبار المُحَدِّثين وأغزرهم رواية عن رسول الله ﷺ فانفردت برواية أحاديث عنه ﷺ لم يروها عنه غيرها، فكانت أكثر النساء رواية للحديث، وقد بلغ ما روته عن النبي ﷺ ٢٢١٠ أحاديث، اتفق البخاري ومسلم منها على ١٧٤ حديثًا ويرجع لها الفضل في نقل كثير من السنة المطهرة، وبخاصة التي تتعلق بشئون رسول الله ﷺ الخاصة في بيته رجلًا وزوجًا وإنسانًا.

"وتجدر الإشارة إلى أن زواج الرسول ﷺ بفتاة بينه وبينها قرابة خمسين عامًا ليس بدعًا ولا غريبًا؛ لأن هذا الأمر كان مألوفًا في ذلك المجتمع، لكن المستشرقين ومن تحمل قلوبهم الحقد من بعض أهل الكتاب على محمد ﷺ جعلوا من هذا الزواج اتهامًا للرسول ﷺ بأنه رجل شهواني، غافلين بل عامدين إلى تجاهل ما كان واقعًا في ذلك المجتمع من زواج الكبار بالصغيرات"[2].

- **حفصة بنت عمر**: فقد تزوجها النبي ﷺ إكرامًا لأبيها عمر بن الخطاب، على الرغم من عدم وجود ما يغري على زواجها، فإنه بعد موت زوجها خنيس بن حذافة السهمي عقب غزوة بدر عرضها أبوها على أبي بكر، وعثمان، عقب وفاة زوجته رقية بنت النبي ﷺ فلم يجيباه. وكان ترمُّلها مثار ألم دائم لأبيها عمر بن الخطاب الذي كان يحزنه أن يرى جمال ابنته، وحيويتها تخبو يومًا بعد يوم.. ويذهب إلى رسول الله يشكو له رفض أبي بكر وعثمان بعدما ضاقت به الأرض بما رحبت، وضاقت به نفسه، فيرد عليه النبي بقوله: "تُزَوَّج حفصة خير من عثمان، ويُزَوَّج عثمانُ خيرًا من حفصة"[3]. وأدركها عمر ﷺ بفطرته؛ إذ معنى قول الرسول ﷺ الذي استشعره عمر هو أن من سيتزوج ابنته حفصة هو الرسول ﷺ وسيتزوج عثمان إحدى بنات الرسول ﷺ، وانطلق عمر إلى حفصة والدنيا لا تكاد تسعه من الفرحة، وارتياح القلب؛ لأن الله قد فرَّج كرب ابنته[4].

- **أم سلمة**: تزوجها في السنة الرابعة للهجرة بعد موت زوجها عقب غزوة أحد، وكان زواجه بها مكافأة لها على ما لقيته من الشدة عند إسلامها وعند هجرتها، فقد كانت أول مهاجرة للحبشة، وأول ظعينة للمدينة، انتزعها أهلها من زوجها عند هجرته، ثم لحقت به بعد ذلك، وكان لها أولاد من أبي سلمة، اعتذرت بسببهم عن الزواج عندما عرض عليها ذلك أبو بكر وعمر، كما

---

١. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص١٦١.

٢. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٣٥٧.

٣. إسناده صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند أبي بكر الصديق ﷺ (٦)، وصحح إسناده حسين سليم أسد في تعليقه على مسند أبي يعلى.

٤. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، مرجع سابق، ص٣٥٨، ٣٥٩.

اعتذرت في بادئ الأمر للنبي ﷺ عندما خطبها، فكان زواجه بها عزاء لها، وتكريمًا لجهادها، وحماية لأولادها.

• **زينب بنت جحش**: إن الزوجات الأربع السابقات لا يحتجن إلى تعليل لتعددهن، فهن في حيز العدد المسموح به، ومن جاء بعدهن يحتاج زواجهن إلى تعليل، وأولاهن زينب بنت جحش وقد تزوجها النبي ﷺ بعد أن طلقها زوجها مولاه زيد بن حارثة، وذلك لإبطال عادة التبني، الذي كان يمنع تزوج الرجل بمطلقة ابنه المتبنَّى، كما كان في زواج النبي ﷺ بها رد اعتبار لها، ومكافأة لها على رضاها بحكم الله ورسوله في الزواج من مولى وهي شريفة قرشية؛ لأنها بنت أميمة عمة النبي ﷺ وكانت هي موضع التجربة في إزالة العصبية الجاهلية في نظرتهم لكفاءة النكاح، إذ رأى أن تجربة الإلغاء تكون فيمن يمكنه أن يتزوجها قبل زيد إذا أراد، ثم إنه قد استفاض عنها بعد طلاقها من زيد أنها أتعبته، ولهذا لم يجرؤ أحد على زواجها بعده، فتزوجها النبي ﷺ، ومن الملفت للنظر أن زيدًا مطلقها هو الذي كلَّفه النبي ﷺ بخطبتها له، فالموضع كله تخطيط للتشريع، لا لشهوة أو دنيا، ولهذا فإن الله ﷻ هو الذي زوجها للنبي ﷺ بدون ولي عنها، قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾(الأحزاب)، وكون الله ﷻ هو الذي زوجها له دليل على إباحة تجاوز العدد عن أربع زوجات له ﷺ خاصة[١].

• **جويرية بنت الحارث**: كانت أسيرة في غزوة بني المصطلق ووقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، فكاتبها على تسع أواق من الذهب ليعتقها، فدفعها النبي ﷺ وأُعتِقَت وتزوجها، وكان عِتْقها سببًا في أن أهل مائة بيت من بني المصطلق أُعْتِقوا، إكرامًا لعتق النبي ﷺ لها وزواجه بها، فليس من اللائق أن يكون أصهار النبي ﷺ أرِقاء، وقد رأى الصحابة ذلك دون ضغط عليهم، تقول عائشة: "ما رأينا امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها، أُعتق بسببها مائة أهل بيت من بني المصطلق"[٢].

وهكذا كان هذا الزواج تأليفًا لبني المصطلق، بعد عداوتهم الشديدة للنبي ﷺ.

• **أم حبيبة**: هي رَمْلة بنت أبي سفيان الذي ناصب النبي ﷺ العداء طويلًا، تزوجها رحمة بها، حيث تنصَّر زوجها عبيد الله بن جحش بالحبشة، وأصبحت وحيدة وأبوها وإخوتها مشركون، فكان من الإنصاف والرحمة والحماية من الفتنة أن يضمها النبي ﷺ إليه؛ فضمها ﷺ وهي ما تزال بالحبشة، كما أن فيه تأليفًا لأبي سفيان، فقد حمد للنبي ﷺ فعله، ولم يتألم حين علم بزواجه منها، بل قال فيه: "هو الفحل لا يقدع أنفه"[٣].

• **صفية**: تزوجت في بيت ابن أبي الحقيق، وهو بيت مشهود له في خيبر، وكان زواجها فيه من كنانة بن

---

١. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص١٦٣، ١٦٤.

٢. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٦٤٠٨)، وأبو داود في سننه، كتاب العتق، باب في بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة (٣٩٣٣)، وحسنه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٣٩٣١).

٣. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص١٦٣.

الربيع بن أبي الحقيق، عاشت معه قدر ما عاشت إلى أن غزا المسلمون خيبر، وإذا بها تخبر زوجها ذات صباح أنها قد رأت فيما يرى النائم أن قمرًا قد وقع في حجرها، وطلبت منه أن يعبِّر لها رؤياها، فقال لها مغضبًا: تتمنين مَلِك يثرب؟ ولطمها لطمة شديدة أثَّرت في إحدى عينيها، ولقد بقي هذا الأثر في عينها إلى أن وقعت أسيرة في يد المسلمين.

وظلت صفية مع الأسرى لا يعرف أحد ما شأنها، حتى همَّ القوم بالرحيل، وقد وقعت في سهم رسول الله ﷺ من الغنائم، فنظر النبي ﷺ في شأنها، فوجدها من عِلْية القوم، وقد وقعت أسيرة، وهي مكلومة[1] بفقد أبيها وفقد زوجها، وفقد بعض أقربائها، فتحركت النخوة في نفس رسول الله ﷺ، وهي نخوة عالية كما هي عادته في مواقفه، فرأى أن يرحم عزيزة قوم ذُلَّت بالأسر، وحزنت لفراق أبيها، فما كان من النبي ﷺ إلا أن أعتقها ثم تزوجها.

وهذا عمل قد حظي بإعجاب الكُتاب والمؤرخين من المسلمين ومن اليهود على السواء.

وبهذا الحماس نفسه أظهر الكثيرون من المنصفين رأيهم على هذا النحو، وأبانوا عن إعجابهم بفعل النبي ﷺ واتخاذه هذا الموقف من صفية، مع علمه الأكيد بخلائق اليهود التي لا يؤتمنون معها على شيء.

أما صفية فقد حوَّلها الله إنسانة أخرى فأسلمت وحَسُن إسلامها، وأخلصت للنبي ﷺ إخلاصًا شديدًا يليق بوضعها الجديد أُمًّا للمسلمين.

ولقد ظلت على وفائها هذا لا تعلن عنه بألفاظها، وإنما تعبر عنه بالأفعال إلى أن جاء وقت مرض رسول الله ﷺ واجتمع نساؤه حوله، فقالت صفية: يا رسول الله، إني قد تمنيت أن ما بك من الوجع ينتقل إليَّ، فغمزتها صويحباتها، ورأى النبي زوجاته وما فعلن بها، فأمرهن أن يغسلن أفواههن، فسألنه: ومِنْ ماذا يا رسول الله؟ فقال: من غمزكن لصاحبتكن، فوالله إنها لصادقة.

هذا وإن صفية في حياة النبي ﷺ كانت تتعرض أحيانًا لبعض الألفاظ التي تؤلمها، كأن يُقال لها: إن أباك يهودي وأمك كذلك، وكانت تتألم من ذلك ألمًا شديدًا، وتشكو للنبي ﷺ ألمها، فقد روى ثابت بن أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي، فقال: "ما يبكيك"؟ فقالت: قالت لي حفصة إني بنت يهودي، فقال النبي ﷺ: "إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيمَ تفخر عليك"؟ ثم قال: "اتقي الله يا حفصة" [2].

أرأيت إلى هذا النُّبل الرشيد، والخلق العالي السديد في تصرفات خاتم المرسلين[3]؟

- **ميمونة:** تزوجها النبي ﷺ عندما كان معتمرًا في مكة، وكان زواجه منها ربطًا لصلته بأقاربه المصاهرين

---

١. المكلوم: الجريح.

٢. صحيح: أخرجه عبد الرزاق في مصنفه، كتاب الجامع للإمام معمر بن راشد الأزدي رواية الإمام عبد الرزاق، باب أزواج النبي ﷺ (٢٠٩٢١)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ (٣٨٩٤)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٠٥٥).

٣. رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، طبعة خاصة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٨٦: ١٨٩ بتصرف يسير.

لأقاربها، حيث كانت أختها أم الفضل لبابة تحت عمه العباس، وكانت أختها لأمها أسماء بنت عميس زوجة لجعفر بن أبي طالب، وأختها لأمها أيضًا سلمَى بنت عميس كانت تحت عمه حمزة، فكانت إحدى أخوات ثلاث، فتزوجها النبي ﷺ بعدما تأيَّمت من زوجها أبي رُهم الذي مات ولم يسلم.

- **زينب بنت خزيمة**: تزوجها النبي ﷺ عقب موت زوجها عبد الله بن جحش في أُحُد، فكان زواجه منها تكريمًا لها، وقد توفيت بعد أقل من سنة من زواج النبي ﷺ منها.

كانت هذه بعض الملابسات والظروف التي صاحبت زواج النبي ﷺ من هؤلاء الزوجات، ويظهر من هذا أن زواج النبي ﷺ بهذا العدد لم يكن شهوة، بل كان دينًا وإنسانية[1]، كما يمكننا أن نلاحظ من خلال العرض السابق لزوجات النبي ﷺ عدة حقائق منها:

- أنه ﷺ ظل عزبًا مدة خمسة وعشرين عامًا.
- أن ترتيب زيجاته ﷺ كان توفيقًا إلهيًّا، إذ إن كل زوجة تناسب متطلبات المرحلة التي كان يمر بها النبي ﷺ ودعوته المباركة.
- أنه ﷺ لم يتزوج بكرًا سوى عائشة ـ رضي الله عنها ـ على الرغم من تشجيعه على الزواج من الأبكار؛ فمن هديه ﷺ في هذا الشأن قوله لأحد أصحابه: "هلَّا تزوجت بكرًا تلاعبها وتلاعبك"[2]؟
- أن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ هي أكثر النساء رواية للحديث، ونشرًا للعلم من بعده، مقارنة بالسيدة خديجة أو سودة مثلًا... إلخ، وهذه إحدى الحكم الإلهية والأسرار الربانية من تقدير الله زواجه ﷺ بها صغيرة السن؛ لتحفظ عنه الحديث ويؤخَذ عنها الدين (فالتعليم في الصغر كالنقش على الحجر)، فقد روت ـ رضي الله عنها ـ (٢٢١٠) ألفين ومائتين وعشرة أحاديث.
- أنه ﷺ تزوج بامرأتين أكبر منه سنًّا، هما: خديجة بنت خويلد (أكبر منه بـ ١٥ سنة)، وسودة بنت زمعة (أكبر منه بـ ٥ سنوات).
- أنه ﷺ تزوج بأربع نسوة كن قد تجاوزن الخامسة والثلاثين هن: خديجة (٤٠ سنة)، سودة (٥٥ سنة)، زينب بنت جحش (٣٥ سنة)، رملة بنت أبي سفيان (٤٠ سنة).
- أنه ﷺ لم يتزوج قبل الخمسين سوى السيدة خديجة أما باقي نسائه فقد تزوج بهن بعد سن الخمسين.

فكيف يقال بعد كل هذه الحقائق أن زواج النبي ﷺ كان زواج شهوة لا يقوم على أسس دينية®؟!

خامسًا. اختلاف فعل رسول الله ﷺ في التعدد عن فعل السلاطين:

جرت عادة السلاطين والأمراء والملوك الذين يجرون وراء شهواتهم ونزواتهم فيتزوجون الكثير

---

١. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص١٦٤ بتصرف يسير.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب استئذان الرجل الإمام (٢٨٠٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح البكر (٣٧١٠).

® في **"الحكم والمقاصد من زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة والسيدة حفصة والسيدة زينب بنت جحش"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الحادية عشرة، والوجه الأول، من الشبهة الخامسة عشرة، والوجه الأول، من الشبهة السادسة عشرة، من هذا الجزء.

والكثير من النساء زواجًا ليس في حقيقته إلا ضرب من المتعة الحسية واللهو الجنسي، ولذلك فإنهم لا يَرْضون بالأبكار الجميلات بديلًا، وليس من شك في أنهم كانوا يقومون بنزواتهم وشهواتهم في قصورٍ فارهة شامخة.

فهل يُعْقَل أن يشبَّه هؤلاء السلاطين المترفون المنعَّمون برجلٍ تزوج في أول عهده بالزواج امرأة ثيبًا تكبره بخمس عشرة سنة، واستمر معها حتى جاوز الخمسين من العمر، وكانت زوجاته بعد ذلك كلهن ثيبات عدا عائشة ـ رضي الله عنها ـ!!

"كما كان النبي ﷺ مشغولًا في أكثر أوقاته بواجبات الدعوة، إلى جانب واجبات نفسه، فكان بالنهار يدعو إلى الله، ويقضي بين الناس ويجهِّز الجيوش والإمدادات، وينظم أمور المجتمع... وبالليل كان يتعبَّد الساعات الطويلة، فأين الوقت الذي يكفيه ـ إن كان شهوانيًّا ـ لإشباع رغبته الجنسية" [1]؟

إن بيت النبوة لا يحق له أن يكون وكرًا للملذات، كما يحدث في قصور الملوك؛ ذلك أن النبي ﷺ ليس بملك ولا سلطان، ولكنه نبي مرسَل للناس جميعًا. وهل كان النبي من أصحاب القصور التي يقتني فيها أصحابها ما يشاءون من النساء؟!

إن رسول الله ﷺ كان يعيش في بيت متواضع، وكل من زوجاته تسكن في حجرة واحدة، لا تخرج منها إلا لحاجة.

ثم إن الحالة المعيشية للرسول ﷺ كانت رقيقة ـ كما هو معروف ـ ولذيذ الطعام والشراب والراحة الكافية، وما إلى ذلك مما يساعد على التمتع الشهواني غير موجود، ومن الذي يصدق أن رجلًا تقدمت به سنه بعد موت خديجة، إذ تجاوز الخمسين، وفي الوقت نفسه كان فقيرًا، إن لم يجد في الصباح ما يأكله نوى الصيام، وأحيانًا كان لا يجد ما يفطر عليه من صيامه إلا الخل، فيتناوله شاكرًا راضيًا، وثبت أنه كانت تمر عليه الليالي الطويلة، شهرين أو أكثر ولا يوقد في بيته نار لإنضاج طعام لذيذ، وكان عيشه على التمر والماء ـ من الذي يصدق أن من في هذه الحالة يمكن أن يشبَّه بالملوك والسلاطين المترفين الذين لا هم لهم إلا المتعة الحسية؟

ولو كان النبي ﷺ كهؤلاء لوفر لنفسه الطعام والشراب ووسائل الراحة الكافية، وكان الحصول على ذلك سهلًا؛ لأنه رئيس الدولة، والشعب كله يحبُّ أن يوفر له ما يسرُّه لو أراد، لكنه زهد وقنع، وتحرج عن مد يده إلى شيء من الخزينة العامة لمصلحة نفسه [2].

سادسًا. ما جاء به القرآن في قصة وليمة زواج زينب بنت جحش، كان لتهذيب سلوك المسلمين وتنبيههم إلى مراعاة شدة حياء النبي ﷺ:

إن ما جاء به القرآن الكريم لم يكن لغضب النبي ما ادعى مثيرو هذه الشبهة وإنما جاء لتعليم المسلمين، وعن سبب نزول قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

يقول القرطبي: "قال حماد بن زيد: هذه الآية نزلت

١. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص١٥٦.

٢. المرجع السابق، ص١٥٦، ١٥٧ بتصرف يسير.

في الثقلاء، فالجمهور من المفسرين على أن سببها أن رسول الله ﷺ لما تزوج زينب بنت جحش - مُطَلَّقة زيد - أَوْلَـمَ[1]، فدعا الناس، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله، وزوجته مُولية وجهها إلى الحائط فثقلوا على رسول الله ﷺ.

قال أنس ﷺ: فما أدري آأنا أخبرت النبي ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرني. قال أنس: فانطلق ﷺ حتى دخل البيت، فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب، قال: ووعظ القوم بما وُعِظوا به، وأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ (الأحزاب: ٥٣) "[2][3].

والحق ﷻ وزع الأمر بين رسول الله ﷺ وبين أمته من بداية هذه السورة... وعلى هذا فالآية هنا للتعليم والتأديب وما كانت أبدًا بسبب غضبه ﷺ، كما أن سبب نزول هذه الآية يؤكد ذلك، بل إنه يؤكد شدة حياء النبي ﷺ، هذا الحياء الذي منعه من التحدث إليهم، رغم ضيق البيت عليه ﷺ هو وزوجه لدرجة أن زوجته ﷺ كانت مولية وجهها نحو الحائط من الحرج.

والحق ﷻ هنا يعلِّمنا الأدب مع رسول الله، ويجعله لنا قدوة، فإن لم يكن عنده ﷺ من الحجرات إلا بعدد نسائه؛ لكل زوجة من زوجاته حجرة واحدة، فلا بد وأن تتعلم الأمة آداب الدخول وآداب الزيارة في مثل هذه الحالة، وخاصة مع رسول الله ﷺ في بيوته،فقال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ ﴾[4].

سابعًا. ثمة أمور اختُص بها النبي ﷺ لا يجوز أن يشاركه فيها أحد من أمته؛ لأنها وقْفٌ عليه:

ويأتي على رأس قائمة الخصوصيات هذه ما يتعلق بجواز نكاحه ﷺ النساء بغير عقد ولا ولي ولا شهود ولا مهر، وإليكم البيان:

- أخبر أنس بن مالك "أن رسول الله ﷺ حين بنى بصفية قال الناس: لا ندري أتزوجها أم اتخذها أم ولد، فقالوا: إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أم ولد، فلما أراد أن يركب حجبها فعرفوا أنه قد تزوجها" [5]. ووجه الدلالة منه ظاهر كما ترى.

وقال العلماء: إنما اعتبر الولي في نكاح الأَمَة للمحافظة على الكفاءة، وهو ﷺ فوق الأكْفاء، وإنما اعتبر الشهود لأمن الجحود، وهو ﷺ لا يجحد ولو جحدت هي لم يرجع إلى قولها على خلاف قوله، بل قال

١. أَوْلَمَ: دعا الناس إلى طعام زواجه.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة الأحزاب (٤٥١٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس (٣٥٧٥).

٣. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٤، ص٢٢٤، ٢٢٥.

٤. تفسير الشعراوي، الشيخ محمد متولي الشعراوي، مرجع سابق، ج١٩، ص١٢١٢١: ١٢١٢٤ بتصرف.

٥. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمته ثم يتزوجها (٣٥٧١).

العراقي في "شرح المهذب": "تكون كافرة بتكذيبه".
وكان له ﷺ تزويج المرأة من نفسه وتولي الطرفين بغير إذنها وإذن وليها لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾(الأحزاب: ٦).

ومن خصائصه، أن المرأة كانت تحل له بتحليل الله ﷻ فيدخل عليها بغير عقد.

- قال البيهقي: وإذا جاز ذلك جاز أن يَعْقد على المرأة بغير استئمارها، قال ﷻ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾(الأحزاب: ٣٧).
- وعن أنس ؓ قال: "كانت زينب تفتخر على أزواج رسول الله ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات"[1].
- وعن أنس ؓ أيضًا قال: لما انقضت عِدَّة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: "اذهب فاذكرها عليَّ"، فذهب فأخبرها، فقالت: ما أنا بصانعة شيئًا على أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ حتى دخل عليها بغير إذن[2][3].

ويَعْجَب المرء من كلام هؤلاء الذين يستكثرون على النبي ﷺ أن يختصه الله دون أمته بخصائص وميزات، فالسوي إذا فكَّر في هذا فإن عقله سيهديه أن هذا الأمر أمر طبيعي. ألم يميز أهل الدنيا بعض أهلها في قوانينهم؟ أيجعلون ذلك حقًّا لهم، ولا يعدونه حقًّا لله تعالى؟ فلماذا إذن ينكر هؤلاء أن يختص النبي ﷺ بأحكام ليس للناس أن يقلدوه فيها؟

وكذلك استدلوا ـ على أباطيلهم هذه ـ بأنه ﷺ أعتق السيدة صفية بنت حيي بن أخطب، وتزوجها دون شهود، ولا صداق، ولا موافقة ولي، واعتبر عتقها صداقها، وهذا الفهم المغلوط منهم تَردُّه النظرة الحيادية المنصفة إلى النبي ﷺ وكونه مختصًّا من قِبل ربه بخصائص وميزات دون أمته، وكذلك إلى ملابسات زواجه ﷺ من السيدة صفية ـ رضي الله عنها ـ والحكمة من ذلك الزواج، وهنا نترك المجال لأحد المنصفين كي يرد عليهم.

يقول الباحث المنصف د. نبيل لوقا: "وكان من أسيرات اليهود صفية بنت حيي بن أخطب ابنة زعيم اليهود في خيبر، وكانت صفية بنت حيي في سهم غير الرسول ﷺ، ولكن عقلاء القوم وجدوها ابنة زعيم اليهود فوضعوها في سهم الرسول ﷺ، وخيَّرها إما أن يعتقها ويتزوجها، أو يعتقها وتعود إلى أهلها مُعزَّزة مكرَّمة كما كانت تعيش قبل موقعة خيبر، ولكنها بعد أن شاهدت معاملة الرسول ﷺ الكريمة الرحيمة الرقيقة قررت بلا تردد الزواج من الرسول ﷺ، وكانت الزوجة التاسعة للرسول ﷺ"[4].

ويستطرد د. نبيل لوقا بباوي قائلًا: فقد كان زواجه ﷺ من السيدة صفية بنت حيي سببه الأساسي المواساة والرحمة طبقًا للمثل الموجود من زمن طويل:

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (هود: ٧)، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ (التوبة) (٦٩٨٤).

٢. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس (٣٥٧٥).

٣. الخصائص الكبرى، الإمام السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥، ج٢، ص٤٢٧: ٤٣٠.

٤. زوجات الرسول بين الحقيقة والافتراء، د. نبيل لوقا بباوي، دار الباوي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م، ص١٥٠ بتصرف يسير.

"ارحموا عزيز قوم ذل"[1].

لم يكن حال السيدة صفية بنت حيي بن أخطب ـ رضي الله عنها ـ كحال باقي زوجات النبي ﷺ الأحرار، وإنما كانت سبِيَّة من ضمن السبايا اللائي وقعن في يوم خيبر، وكانت سيدة بني قريظة والنضير، فأخذها ﷺ في سهمه جبرًا لخاطرها المنكسر، هذا هو الباعث الخفي على زواجه ﷺ منها، ولم تكن الشهوة هي التي حركته إلى ذلك الزواج، وقد جعل ﷺ صداقها عتقها، واشترى لها خادمة تُسمَّى "رُزينة"، كل ذلك حدث بعد أن خيرها النبي ﷺ فاختارت أن يعتقها ويتزوجها[2].

الخلاصة:

- لقد تسرَّى النبي ﷺ ولم يكن بدعًا من الأنبياء في تسرِّيه؛ وذلك لأن التسري موجود منذ إبراهيم ﷺ وموجود في التوراة والإنجيل، وقد تسرَّى أنبياء بني إسرائيل، فلما جاء الإسلام أقر التسرِّي، إلا أنه قيده ووضع له شروطًا وضوابط تكفل حماية السراري. فَلِمَ يعاب على النبي ﷺ تسريه، دون سائر الأنبياء؟!
- هبة النساء أنفسهن للرسول ﷺ خصيصة من الخصائص التي اختصه الله ﷻ بها، ولم ينكح النبي ﷺ كل من وهبته نفسها، بل هناك من العلماء من قال بأنه ﷺ لم يقبل أيًّا منهن.
- لم يكن النبي ﷺ في أمره المسلمين بألا يزيدوا على أربع زوجات ـ إلا مبلِّغًا عن ربه، وكيف يشرع للناس تشريعًا من عند نفسه وقد زكاه المولى قائلًا: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ (النجم)، وزواجه بأكثر من أربع زوجات خصيصة من الخصائص التي اختُص بها دون سائر أمته، والتي تخرج عن إطار التأسي به.
- لم يكن النبي ﷺ كامل الحرية في التزوُّج بمن يشاء، بل كان زواجه بأمر من ربه، وقد اختار ﷺ زوجاته على أسس دينية وإنسانية وتعليمية مأمور بها، ولم يحدْ عنها مرة واحدة، والحكم وراء تعدد زوجاته تنقسم إلى حكم عامة، وأخرى خاصة تختص بكل زوجة على حدةٍ.
- انطلق السلاطين المُترَفون في تعدد نسائهم من أمرٍ دنيوي لا يعدو أن يكون التعدد فيه مجالًا للمتعة الحسية واللهو الجنسي في قصورهم الفارهة، وهم لا يرضون بالأبكار الجميلات بديلًا، فهل يُعقل أن يُشبَّه النبي ﷺ بهؤلاء وهو الذي تزوج زوجاته كلهن ثيبات عدا عائشة ـ رضي الله عنها.
- ما جاء في القرآن في قصة وليمة زواج زينب بنت جحش؛ إنما كان لتهذيب أخلاق المسلمين، وتنبيههم إلى مراعاة شدة حياء النبي ﷺ وما يجب عليهم أن يفعلوه إذا دخلوا بيته ﷺ.
- من الخصائص التي اختص الله ﷻ بها نبيه ﷺ جواز نكاحه بغير ولي ولا شهود ولا مهر، ولا يجوز لأحد من المسلمين أن يقتدي به في ذلك.

---

1. المرجع السابق، ص١٥٤ بتصرف يسير.
2. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص٢١٠ بتصرف يسير.

الشبهة التاسعة

الزعم أن طوافه ﷺ على نسائه في ليلة واحدة دليل على ميله الجامح للنساء(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المتقوِّلين أن النبي ﷺ كان رجلًا شهوانيًّا؛ مستدلين على ذلك بأنه ﷺ كان يطوف على نسائه كلهنَّ في ساعة واحدة من الليل أو النهار، وهنَّ إحدى عشرة زوجة. رامين من وراء ذلك إلى وصمه ﷺ بشهوانية لم تكن فيه.

وجها إبطال الشبهة:

١) إنَّ ذكر طوافه ﷺ على نسائه كان في معرض مدحه ﷺ بالقوة الخارقة العجيبة له ﷺ، لا في مقام الذم باللهو والاستمتاع بالنساء، كما أن توفيقه بين واجب الدعوة الضخم وحق أهله عليه يدل على شرفٍ وكمالٍ له ﷺ لم يُتح لغيره.

٢) طواف النبي ﷺ على نسائه كلهن كان من باب تعليم الأمة العدل في القسمة بين الزوجات مودةً واستئناسًا، وبيانًا عمليًّا لهم بأن يعطوا كل ذي حقٍّ حقه، وهذا لا يستلزم تأويل الطواف على أنه جماع.

التفصيل:

أولا. إن ذكر طوافه ﷺ على نسائه كان في مَعْرِض مدحه بالقوة الخارقة، لا في مقام ذمه باللهو بنسائه:

لقد استفاضت الأحاديث النبوية والآثار المروية الدالَّة على كمال خلقته ﷺ وجمال صورته، ولذلك كان

(*) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق.

من تمام الإيمان به ﷺ الإيمان بأن الله ﷻ قد جعل بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمي[1]، وأنه تعالى قد أعطى النبي ﷺ من الخصوصيات ما لم يُتح لغيره من البشر.

وعلى هذا فإن حديث طوافه ﷺ الذي رواه أنس رضي الله عنه بقوله: "كان رسول الله ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار وهن إحدى عشرة"، قال الراوي عن أنس: قلت: أوكان يطيقه؟ قال: "كنا نتحدث أنه أُعطِي قوة ثلاثين"[2].

نقول إن السياق في حديث أنس إنما هو في معرض القوة الخارقة العجيبة للنبي ﷺ، لا في مقام الذم له باللهو بالنساء، وهذا يدل على شرف وكمال للنبي ﷺ لم يُتح لغيره.

ثم إن حديث طوافه ﷺ على نسائه جميعًا يبين بيانًا عمليًّا خيريته ﷺ وكمال أخلاقه وعصمته مع أهل بيته كما أن الحديث يبين ما اختُص به رسول الله ﷺ وفُضِّل به على سائر الناس من أنه ﷺ قد أُعطي قوة ثلاثين رجلًا والأمر هنا ليس من عند نفسه، ولا من عند رواة السنة، وإنما من عند ربه ﷻ، وهو ما يفيده مجيء لفظ "أُعطي" بالبناء للمجهول[3]، فتأمل كيف أن هذا المجهود الكبير يحتاج إلى قوة بدنية أساسها شَهِي الطعام، وراحة الجسم، وفراغ البال؟

١. محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، مرجع سابق، ص١٥.
٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الغسل، باب إذا جامع ثم عاد ومن دار على نسائه في غسل واحد (٢٦٥).
٣. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٤٩٢، ٤٩٣ بتصرف.

وهل توفَّر للنبي ﷺ كل هذا أو بعضه؟! اللهم إلا إذا كان ذلك بنفحة قوية من الله منحه إياها، وللأنبياء مزيد فضل من ربهم على غيرهم من الناس، فإن سليمان حلف أن يطوف على نسائه في ليلة واحدة، وهو طواف جماع بدون شك؛ وذلك لتأتي كل واحدة منهن بفارس يجاهد في سبيل الله، وكان له ألف من النساء ما بين زوجة وسرية، وأما ثناء الله ﷻ على يحيي بن زكريا ـ عليهما السلام ـ أنه كان حصورًا، أي: ممنوعًا من النساء لا للعجز عنهن، فمعناه أنه كان معصومًا من الذنوب، ومانعًا نفسه من الشهوات المباحة، ومقبلًا على عبادة الله تعالى حتى لا يشغله الزواج عن الطاعات التي ترفع الدرجات العالية في روضات الجنات.

وكذلك عيسى عليه السلام لم يتزوج؛ لمجاهدة نفسه برياضة نفسانية، وتفرغه للدعوة إلى الله ﷻ، فكان لا يقرُّ له قرار، وإنما ينتقل في البلدان.

وأما نبينا ﷺ فتمكَّن من التوفيق بين الأحوال المعتادة للرجال، فلم تشغله النساء عن عبادة ربه، بل ازداد عبادة؛ لتحصينه نساءه، وقيامه بحقوقهن، وهدايته إياهن بالعلوم الدينية ولا سيما ما يجب عليهن، بل صرَّح بأن النساء لَسْنَ من حظوظ دنياه، وإنما من حظوظ دنيا غيره، فقال ﷺ: "حُبِّب إليَّ من الدنيا: النساء، والطيب، وجُعلت قُرَّة[1] عيني في الصلاة"[2]. وأورد ذلك بصيغة الفعل المجهول (حُبِّب)؛ إيماءً بأن حُبَّه لهن لم يكن إلا لما خُلق في جِبِلَّته، وميل طبيعته، وأنه كالمجبور عليه في محبته، فدل هذا الحديث على أن حبه للنساء والطيب اللذين هما من أمر دنيا غيره، هو من أجل الآخرة، وقصد المثوبة، ورفع الدرجة، وليكون قدوة حسنة لأمته حرصًا على التعفف والتصوُّن، ومنع الخواطر الرديئة ودفع الوساوس النفسية.

وعليه فإن محبة النبي ﷺ للزواج بالنساء إنما كانت لا للذاته، وإنما لابتغاء مرضاة الله وتحقيق مصلحة غيره، على سبيل الإيثار، ولذلك ميَّز النبي ﷺ بين الحُبَّيْن: حب النساء والطيب، وحب الصلاة، وفرَّق بين المقامين، فجعل قرَّة عينه في الصلاة، مع أنه أُعطي قوة ثلاثين رجلًا في الجماع، كما كان لسليمان قدرة مائة رجل[3].

نخلص من هذا إلى أن نظرة الرسول ﷺ للمرأة قائمة على أساس من احترام آدميتها، والبر بها، وجبر خاطرها وصيانتها عن الامتهان والضياع، ولهذا ظلَّل بجناح رحمته إحدى عشرة زوجة ما كان دافعه إلى الارتباط بهن شهوة عارمة يريد إشباعها، وإنما إنسانية سامية أبت إلا أن تجبر خواطرهن وتعول من فقدت الزوج والعائل منهن، ويستدل على ذلك أنه ﷺ كان قنوعًا بزوجة واحدة فترة شبابه حتى الخمسين من عمره، ولا يستطيع العقل تصديق استبداد الشهوة به بعد الخمسين إلى حدِّ أن يجمع العديد من النساء في عصمته لمجرد قضاء لذة جنسية®.

١. قُرَّة عينه: سروره ورضاه.

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه (١٤٠٦٩)، والنسائي في سننه، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء (٣٩٤٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٢٤).

٣. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص٩٦، ٩٧.

® في **"اختصاص النبي ﷺ بقوة في البدن وقدرة على الجماع تؤهله للطواف على نسائه"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة العاشرة، من هذا الجزء.

ثانيًا. طواف النبي ﷺ على نسائه تعليم للأمة العدل بين الزوجات، وكونه ﷺ طاف بهن لا يستلزم أن يكون جامعهن:

من الثابت في كتب السيرة والأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ كان يقضي ليله في قيام الليل، وقراءة القرآن والعبادة، ويقضي نهاره في الجهاد والسعي في توطيد أركان دولته الجديدة، ومع هذا فقد كان حريصًا على تعليم أمته كل صغيرة وكبيرة ببيان قولي وعملي.

ومن الثابت أيضًا أن النبي ﷺ قد أُعطِي بعض الخصوصيات، فقد رُوي عن عائشة قالت: "كان عمل رسول الله ﷺ دَيمَةً (من الدوام)، وأيكم يطيق ما كان يطيق"[١]؟! أي: لما كان له من قوة النبوة[٢].

إنه يعلمنا كيف تكون العبادة، وكيف يكون قيام الليل، أليس هو القائل: "واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل"[٣]؟

وقال عوف بن مالك: "كنت مع رسول الله ﷺ ليلة، فاستاك[٤]، ثم توضأ، ثم قام فصلَّى، فقمت معه، فبدأ فاستفتح البقرة، فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوَّذ، ثم ركع، فمكث بقدر قيامه يقول: سبحان ذي الجبروت والملكوت، والكبرياء والعظمة، ثم سجد، وقال مثل ذلك، ثم قرأ آل عمران، ثم سورة سورة يفعل مثل ذلك..."[٥]؛ أي: من تطويل الركوع والسجود والتسبيح المذكور وغير ذلك.

وعن عائشة قالت: "قام رسول الله ﷺ بآية من القرآن ليلة"[٦]؛ أي: صلى في ليلة بتلاوة آية وهي: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (المائدة)؛ اقتداءً بعيسى عليه السلام في الكلام، وإيماءً إلى أنه ﷺ يريد المغفرة والرحمة، ورفع العقوبة عن جميع الأمة، مع التسليم للإرادة الإلهية.

ورُوي أنه ﷺ قال: "إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة"[٧]، وروي: "أكثر من سبعين مرة"[٨][٩]. فقد كان الرسول ﷺ أشد الناس خوفًا من ربه، وأكثرهم عبادة، وألزمهم طاعة لله ﷻ، وذلك على قدر علمه بربه، وامتثاله لأمره ﷻ.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب هل يخص شيئًا من الأيام (١٨٨٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره (١٨٦٥).

٢. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١٥٧.

٣. حسن: أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، الجزء الرابع، من اسمه عبد الله (٤٢٧٨)، والحاكم في مستدركه، كتاب الرقاق (٧٩٢١)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٣١).

٤. استاك: نظَّف فمه بالسواك.

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث عوف بن مالك الأشجعي الأنصاري رضي الله عنه (٢٤٠٢٦)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده (٨٧٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٧٧٦).

٦. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في القرآن في صلاة الليل (١٣٥٠)، والترمذي في سننه، أبواب الصلاة، باب قراءة الليل (٤٤٨)، وصححه الألباني في مختصر الشمائل (٢٣٣).

٧. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه (٧٠٣٣).

٨. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (٥٩٤٨).

٩. شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١٥٧: ١٥٩ بتصرف.

رُوي عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة ﷺ كان يقول: قال رسول الله ﷺ: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا"[1]. وزاد الترمذي مرفوعًا إلى أبي ذر ﷺ: "إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطَّت السماء[2]، وحق لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدًا لله تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، وما تلذذتم بالنساء على الفُرُش، ولخرجتم إلى الصُّعُدات[3] تجأرون[4] إلى الله"[5][6].

ما ذكرناه آنفًا من مظاهر عبادة النبي وانشغاله بطاعة ربه، ليدل دلالة قاطعة على عدم تفرغه ﷺ لإشباع شهواته كما يزعمون، أما حديث طوافه ﷺ على نسائه فإنه لا يدل على شهوانيته ﷺ ـ كما يزعمون ـ وإنما يدل على عدله ﷺ بين نسائه في القسم؛ فقد كان النبي يعامل زوجاته معاملة حسنة، ويحث المؤمنين جميعًا على أن يعاملوا زوجاتهم بالمعروف؛ فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: "إن من أكمَل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلقًا، وألطفهم بأهله"[7].

وعنها أيضًا عن رسول الله ﷺ قال: "خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي"[8]، وهذه الأقوال منه ﷺ مصداق قول الله تعالى: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (النساء: ١٩)، وهي كلمة جامعة تعني: التحلِّي بمكارم الأخلاق في معاملة الزوجات من: صبر على ما قد يبدر منهن، أو تقصير في أداء واجباتهن، ومن حلم عن إيذائهن في القول أو الفعل، وعفو وصفح عن ذلك، ومن كرم في القول والبذل، ولين في الجانب، ورحمة في المعاملة، إلى غير ذلك مما تعنيه المكارم الأخلاقية التعاملية الأسرية.

وذلك هو ما دل عليه حديث "عدله ﷺ بين نسائه في القسم"، كما قالت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ: "كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم من مُكْثِه عندنا، وكان قَلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا جميعًا فيدنو من كل امرأة من غير مَسِيس حتى يبلغ التي هو يومها فيبيت عندها"[9]. وهذا الحديث نص صريح يبين لنا حقيقة

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي ﷺ: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا" (٦١٢٠).

٢. أطَّت السماء: أصدرت صوتًا من كثرة ما فيها من الملائكة، وهو على سبيل المجاز.

٣. الصُّعُدات: جمع صعيد، وهو الطريق.

٤. تجأرون: تتضرَّعون وتستغيثون.

٥. حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار، حديث أبي ذر الغفاري ﷺ (٢٠٥٣٩)، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الحزن والبكاء (٤١٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٤٩).

٦. شمائل المصطفى، د. وهبة الزحيلي، مرجع سابق، ص١٥٦.

٧. صحيح لغيره: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٤٧٢١)، والترمذي في سننه، كتاب الإيمان، باب استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه (٢٦١٢)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على مسند أحمد.

٨. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء (١٩٧٧)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ (٣٨٩٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٥).

٩. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء (٢١٣٧)، والحاكم في مستدركه، كتاب النكاح (٢٧٦٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٨٦٨).

طوافه ﷺ على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار.

إنه طواف حب ومداعبة بدون جماع، حتى يبلغ إلى التي هي يومها فيبيت عندها، كما هو ظاهر كلام عائشة رضي الله عنها [1].

والساعة هنا: هي حق له ولأهل بيته تطييبًا لنفوسهن، ولا تشغله عن حق رسالته ونشر دعوته، وكان هذا من تمام موازنته ﷺ بين جانبين طالما حرص على التوفيق بينهما وهو الذي لـمَّا أُخبر عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أنه يصوم النهار أبدًا، ويقوم الليل، ويقرأ القرآن كله في ليلة، خاطبه بقوله: "فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا"[2].

وهكذا فإن سيرة رسول الله ﷺ شاهد صدق على أنه كان يعطي كل ذي حق حقه، ويدل على ذلك - أيضًا - ما رُوي عن عائشة - رضي الله عنها - لـمَّا سُئِلت: ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: "كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة" [3]. وفي رواية قالت: "كان بشرًا من البشر، يُفلِي ثوبه[4]، ويحلب شاته، ويخدم نفسه"[5].

وجاء عن عائشة - رضي الله عنها - كيف كان رسول الله ﷺ يجمع بين حق الله تعالى في قيام الليل، وبين حق أهل بيته وحقه، أنها قالت: "كان رسول الله ﷺ ينام أول الليل، ويُحيي آخره، ثم إن كانت له حاجة إلى أهله قضى حاجته، ثم ينام، فإذا كان عند النداء الأول وثب فأفاض عليه الماء، وإن لم يكن جنبًا توضأ وضوء الرجل للصلاة، ثم صلى ركعتين"[6].

فتأمل كيف جعل رسول الله ﷺ الجِماع تابعًا لقيام ليله، وبعد فراغه منه، ثم ينام، حتى إذا دخل وقت الفجر قام بسرعة وبكل نشاط استعدادًا لصلاة الفجر، بإفاضة الماء على جسده؛ تطهيرًا من الجنابة إن كان جنبًا، وتأمل دقة التعبير "وثب" ودلالته على مدى حرص النبي ﷺ على صلاة الفجر في وقتها[7].

هذا ولا يفوتنا في هذا المقام أن نؤكد على أنه ليس ثمّة تعارض بين ما يقتضيه حديث عائشة - رضي الله عنها - من كون الطواف طواف حب ومداعبة، بدون جماع، وبين ما يُفْهم من ظاهر حديث أنس رضي الله عنه في أن حقيقة طوافه ﷺ على نسائه جميعًا بجماع.

---

١. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٤٨٦، ٤٨٧ بتصرف يسير.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب "لزوجك عليك حق" (٤٩٠٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقًّا (٢٨٠٠).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله (٥٦٩٢).

٤. يُفلِي الثوب: ينزع منه الشوك وغيره.

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٦٢٣٧)، والبخاري في الأدب المفرد، كتاب المريض، باب ما يعمل الرجل في بيته (٥٤١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٧١).

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب التهجد، باب من نام أول الليل وأحيا آخره (١٠٩٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي في الليل (١٧٦٢)، واللفظ له.

٧. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٤٩٠: ٤٩٢.

ذلك أن الجمع بين الحديثين ممكن بأحد وجهين؛ أولهما: بحمل المطلق في كلام أنس على المقيد في كلام عائشة، وثانيهما: بحمل كلام عائشة على الغالب، وكلام أنس على القليل النادر، فلا مانع من أنه ﷺ إذا طاف على نسائه جميعًا في بعض الأحيان يكون بجماعهن جميعًا، وتكون له ﷺ القدرة على ذلك. لما اختصه الله به من القوة وكثرة الجماع[1]®.

الخلاصة:

- إن ذكر طوافه ﷺ على نسائه كان في معرض نعم الله ﷻ التي اختصه بها لا في مقام الذم له باللهو بالنساء، كما أن توفيقه بين واجب الدعوة الضخم وحقوق أهله يدل على شرف وكمال له ﷺ لم يُتح لغيره، وهذه منحة من الله ﷻ اختص بها من يشاء من خلقه.
- كانت حياة النبي ﷺ مقسَّمة إلى عبادة وتبليغ وتعليم لأمته ـ بالقول والفعل ـ إلى جانب ما تقتضيه الحياة الزوجية من رعاية واهتمام وتلطُّف، وقد كان ﷺ يقضي ليله في القيام وقراءة القرآن والعبادة، ونهاره في الجهاد، وكان عمله ﷺ متواصلًا، ولم يؤثر هذا في جميل معاملته ﷺ لزوجاته ـ رضي الله عنهن ـ ولم يحجبه عن الوفاء بحقوقهن عليه.

1. المرجع السابق، ص٤٨٧، ٤٨٨.

® في **"حسن معاملة النبي ﷺ لأزواجه وعدله بينهن"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثانية عشرة، والوجه الرابع، من الشبهة الرابعة عشرة، من هذا الجزء. وفي **"عبادة النبي ﷺ وقيامه بالليل"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الثامنة عشرة، من الجزء الثاني (أخلاق النبي ﷺ). وفي **"تبكير النبي ﷺ لصلاة الفجر وجلوسه حتى تطلع الشمس"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

- كان النبي ﷺ يعامل زوجاته معاملة حسنة، ويحثُّ المؤمنين جميعًا على أن يعاملوا زوجاتهم بالمعروف، ولذلك ما كان النبي ﷺ يفضل إحداهن على الأخريات، فقد رُوي عن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: "كان رسول الله ﷺ لا يفضِّل بعضنا على بعض في القسم من مُكْثِهِ عندنا، وكان قَلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا جميعًا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ التي هو يومها فيبيت عندها"[2]، وهذا الحديث نص صريح يبين لنا حقيقة طوافه ﷺ على نسائه في الساعة الواحدة من الليل أو النهار، إنه طواف حبٍّ ومداعبة دون جماع.
- ليس ثمة تعارض بين مُفاد حديث أنس ومقتضى حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ والجمع بينهما ممكن، إما بحمل المطلق في كلام أنس على المقيد في كلام عائشة، أو بحمل كلام عائشة على الغالب، وكلام أنس على القليل النادر.

الشبهة العاشرة

الطعن في قدرته ﷺ على إتيان زوجاته ومباشرتهن(*)

مضمون الشبهة:

يدَّعي بعض المشككين أن النبي ﷺ كان يعاني من ضعف في إتيان زوجاته ومباشرتهن، ويستدلون على

2. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء (٢١٣٧)، والحاكم في مستدركه، كتاب النكاح (٢٧٦٠)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٨٦٨).

(*) هل القرآن معصوم؟ عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات.

ذلك بأن الرسول ﷺ شكا إلى جبريل قلة الجماع، فأمره أن يأكل الهريسة. ويتساءل هؤلاء ساخرين: لماذا يحسد اليهود محمدًا على كثرة زوجاته كما جاء في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (النساء: ٥٤).

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد خصَّ الله ﷻ رسوله ﷺ بقوة ثلاثين رجلًا في البطش والجماع تؤهله للطواف على أهله في ليلة واحدة.

٢) وأما حديث شكوى النبي ﷺ لجبريل قلة الجماع، فإنه حديث مكذوب، كما قال علماء الحديث.

٣) لم يكن حسد اليهود للنبي ﷺ على كثرة الزوجات فحسب، بل كان حسدًا على كل النعم التي أنعم الله بها على النبي ﷺ وأعظمها نعمة النبوة.

التفصيل:

أولا. خصَّ الله ﷻ رسوله ﷺ بقوةٍ تؤهله للطواف على أهله في ليلةٍ واحدة:

لقد أُعطي رسول الله ﷺ قوة ثلاثين رجلًا، فعن قتادة عن أنس بن مالك قال: "كان النبي ﷺ يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار، وهن تسع نسوة، قال: قلت لأنس: أَوَ كان يُطيقه؟ قال: كنا نتحدث أنه أُعطي قوة ثلاثين"[1].

رُوي عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم: أن نبي الله ﷺ كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة وله يومئذ تسع نسوة[2].

ومن ثم فقد اختص الله ﷻ سيدنا محمد ﷺ بقوة في البدن وكثرة الجماع، مع أن كثرة أزواجه ﷺ صفة يشترك فيها مع من سبقه من الأنبياء كما قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ (الرعد: ٣٨).

وكذلك طوافه ﷺ على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار، يشترك فيها مع من سبقه من الأنبياء، كما دلَّ على ذلك قوله ﷺ: "كان لسليمان ستون امرأة فقال: لأطوفنَّ عليهن الليلة، فتحمل كل واحدة منهن غلامًا فارسًا يقاتل في سبيل الله، فلم تحمل منهن إلا واحدة فولدت نصف إنسان"، فقال رسول الله: "لو كان استثنى لولدت كل واحدة منهن غلامًا فارسًا يقاتل في سبيل الله"[3].

إلا أنه ﷺ اختُص في طوافه بخرق العادة له في كثرة الجماع، مع التقلل من المأكول والمشروب، وكثرة الصيام، والوصال، وقد أمر من لم يقدر على مُؤَنِ النكاح بالصوم، وأشار إلى أن كثرة الصوم تكسر شهوته، فانحرفت هذه العادة في حقه ﷺ[4].

ولقد كان الرسول ﷺ قوي الجسد، فلقد صارعه ركانة المطَّلبي مرتين أو ثلاثًا فصرعه النبي ﷺ في كل مرة، وكان ركانة مصارعًا معروفًا بالقوة والجلادة لا

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الغسل، باب إذ جامع ثم عاد ومن دار على نسائه في غسل واحد (٢٦٥).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الغسل، باب الجنب يخرج ويمشي في السوق وغيره (٢٨٠).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة (٧٠٣١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأيمان، باب الاستثناء (٤٣٧٥).

٤. رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص٤٨٨، ٤٨٩.

يضاهيه أحد.

ومن مظاهر قوته ﷺ أيضًا أنه كان يسافر طويلًا، ويقاتل الأبطال، ويتقدم الشجعان، ويخلِّف الفرسان، ويكبِت الجَلْد القوي من أصحاب الطغيان، بينما هو في النصف الأخير في العقد السادس ـ بل كان قد جاوز الستين من عمره ـ ولم يسكن، أو يتوانَ، أو يتكاسل عن مثل هذه الأعمال الشاقة التي تطلب المزيد من القوة، وهذا دليل على امتيازه ﷺ بالقوة الجسدية[1]®.

ثانيًا. حديث الهريسة المُستَدلُّ به حديث موضوع لا تحلُّ روايته عن النبي ﷺ:

وإليكم نص الخبر الموضوع:

"أتاني جبريل بِهَرِيسة من الجنة، فأكلتها، فأُعطيت قوة أربعين رجلًا في الجماع".

قال أبو سعيد النقَّاش: "رُوِي عن الضحَّاك ـ راوي الخبر ـ الموضوعات. قلت: وهذا منها، وقد أورده ابن الجوزي في "الموضوعات" من طريق ابن عدي، وقال: "نهشل كذاب، وسلام متروك، مرمي، وأحدهما سرقه من محمد بن الحجاج، وركَّب له إسنادًا". وابن الحجاج هذا هو الذي اشتهر بهذا الحديث ووضع له عدة أسانيد. قال ابن الجوزي وغيره: "وضعه محمد بن الحجاج اللَّخْمي، وكان صاحب هريسة، وغالب طرقه تدور عليه، وسرقه منه كذابون".

لكنه لم يلبث أن تعقَّبه في بعض طرقه الأخرى، فقد أورده من طريق الأزدي عن أبي هريرة قال: "شكا رسول الله ﷺ إلى جبريل قلة الجماع، فتبسَّم جبريل حتى تلألأ مجلس رسول الله ﷺ من بريق ثنايا جبريل، ثم قال: أين أنت من أكل الهريسة؟ قال: فيها قوة أربعين رجلًا" قال ابن الجوزي: "قال الأزدي: إبراهيم ساقط، فنرى أنه سرقه وركب له إسنادًا"، فتعقبه السيوطي بقوله: قلت: إبراهيم روى له ابن ماجه، وقال في "الميزان": قال أبو حاتم وغيره: صدوق. وقال الأزدي وحده: ساقط. قال: ولا يلتفت إلى قول الأزدي، فإن في لسانه في الجرح رهقًا".

وأما الطرق الأخرى عن أبي هريرة التي أشار إليها السيوطي، فهي مع كونها معلولة كلها، فإن اللفظ فيها مخالف للحديث الذي معنا؛ لأن نصه: "أمرني جبريل بأكل الهريسة لأشدَّ بها ظهري، وأتقوَّى على عبادة ربي". فأين هذا مما جاء في رواية ابن زُبالة من الشكوى من قلة الجماع، وأن في الهريسة قوة أربعين رجلًا؟! ومع ذلك فقد حكى السيوطي نفسه عن الخطيب، وغيره أنه قال في حديث أبي هريرة هذا: "حديث باطل". وهو الصواب، ولذلك فإن ابن عرَّاق لم يحسن صنعًا حين ذكر الحديث في "الفصل الثاني" من كتابه "تنزيه الشريعة" (٢/ ٢٥٣)، مشيرًا بذلك إلى متابعته للسيوطي في تعقبه على ابن الجوزي.

وهذا طريق آخر وتخريج آخر للحديث "أطعمني جبريل الهريسة، من الجنة لأشدَّ بها ظهري لقيام الليل". وقد أورده ابن الجوزي في "الموضوعات" من طريق ذلك الكذاب بألفاظ مختلفة، ثم قال: (٣/ ١٨): "هذا

---

١. وإنك لعلى خلق عظيم، صفي الرحمن المباركفوري، شركة كندة للإعلام والنشر، القاهرة، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ج١، ص٤١٩ بتصرف.

® في **"الفهم الصحيح لحديث حقيقة طوافه ﷺ على نسائه في ساعة واحدة"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة التاسعة، من هذا الجزء.

حديث وضعه محمد بن الحجاج، وكان صاحب هريسة! وغالب طرقه تدور عليه، وسرقه منه كذابون".

قال الألباني: لم ينفرد الأزدي بجرح هذا، بل سبقه إلى ذلك الساجي فقال كما في "التهذيب": "يحدِّث بالمناكير والكذب"، ولست أشك أن حديثه هذا كذب، فإن لم يكن هو آفته فشيخه عمرو بن بكر، وهو السكسكي، قال ابن حبان (٢/ ٧٨): "روى عن الثقات الأوابد والطامات التي لا يشك من هذا الشأن صناعته أنها معمولة أو مقلوبة، لا يحل الاحتجاج به". وقال الذهبي: "أحاديثه شبه موضوعة"[١].

فإذا ثبت لديك الآن عدم صحة الحديث، بل تبين وضعه وكذبه، وتحذير العلماء من روايته لما فيه من الكذب والوضع، تبين أن الشبهة مبنية على أصل واهٍ لا يستقيم، وبناءٍ هش لا يتقوَّم، وعليه نقول لهؤلاء: "لا يستقيم الظل والعود أعوج"، أو كما قالوا: "ثبِّتْ العرش ثم انقشْ"، فإذا لم يثبت العرش، فإن النقش لا يتم.

ثالثًا. حسد اليهود للنبي ﷺ لم يكن مقتصرًا على كثرة الزوجات فحسب:

أما ما زعمه المغرضون من أن قول الله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ (النساء: ٥٤)، إشارة إلى مَنْح الله محمدًا ﷺ قوة في الجماع لم تكن موجودة من قبل، فهذا ما لا دليل عليه، ولا نجده لدى أحد من المفسرين، فلقد ذكر الإمام فخر الدين الرازي في تفسير هذه الآية عدة مسائل؛ منها أن المراد بلفظ "الناس" قولان:

الأول: هو قول ابن عباس والأكثرين ـ: أنه محمد ﷺ وإنما جاز أن يقع عليه لفظ الجمع، وهو واحد؛ لأنه اجتمع عنده من خصال الخير ما لا يحصل إلا متفرقًا في الجمع العظيم.

الآخر: المراد هنا هو الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، ولقد اختلفوا في تفسير الفضل الذي لأجله صاروا محسودين على قولين:

- أنه النبوة والكرامة الحاصلة بسببها في الدين والدنيا.
- أنهم حسدوه على أنه كان له من الزوجات تسع.

واعلم أن الحسد لا يحصل إلا عند الفضيلة، فكلما كانت فضيلة الإنسان أتمَّ وأكمل كان حسد الحاسدين له أعظم، ومعلوم أن النبوة أعظم المناصب في الدين، ثم إنه تعالى أعطاها لمحمد ﷺ وضمَّ إليها أنه جعله كل يوم أقوى دولة وأعظم شوكة، وأكثر أنصارًا وأعوانًا، وكل ذلك مما يوجب الحسد العظيم.

وأما كثرة النساء فهو كالأمر الحقير بالنسبة إلى ما ذكرناه، فلا يمكن تفسير هذا الفضل به، بل إنْ جُعل الفضل لجميع ما أنعم الله تعالى به عليه دخل هذا أيضا تحته، فأما على سبيل القصر عليه فبعيد[٢].

ويوضِّح الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية أن قوله ﷻ: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ ﴾؛ يعني: اليهود، ويعني

١. السلسلة الضعيفة والموضوعة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، رقم (٦٩٠)، و (١٦٨٦).

٢. مفاتيح الغيب، الرازي، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، ١٣٠١هـ، عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾.

الناس: النبي ﷺ خاصة؛ فعن ابن عباس ومجاهد وغيرهما: حسدوه على النبوة، وأصحابه على الإيمان به، وقال قتادة: "الناس": العرب، حسدَتْهم اليهود على النبوة، وقال الضَّحَّاك: حسدت اليهود قريشًا؛ لأن النبوة فيهم.

وقوله ﷻ: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ (النساء)، فأخبر تعالى أنه آتى آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتاهم ملكًا عظيمًا.

قال همَّام بن الحارث: أُيِّدُوا بالملائكة، وعن ابن عباس قيل: يعني ملك سليمان، وعنه أيضًا: المعنى أم يحسدون محمدًا على ما أحلَّ الله له من النساء، فيكون الملك العظيم على هذا أنه أُحلَّ لداود تسعًا وتسعين امرأة، ولسليمان أكثر من ذلك[1].

وإن من العجب الجدير بالذكر أن شبهات أولئك المتقولين يهدم بعضها بعضًا؛ فقد رأينا من يدعي أنه ﷺ كان شهوانيًّا محبًّا للنساء، وها نحن الآن أمام من يزعم أنه ﷺ كان ضعيفًا في إتيان أهله، وكان يشكو إلى جبريل قلة الجماع، ونحن من جانبنا نحيل هؤلاء الأخيرين القائلين بالضعف إلى أضرابهم من الواهمين المتقوِّلين الذين يرمونه - بهتانًا وزورًا - بالشبق وعشق النساء، لكننا نؤكِّد أنا لا نقبل بحال دعوى هؤلاء أو أولئك، وقد أشرنا إلى رأي الفريقين هنا لنبين للناس ما عليه القوم من تناقض واضطراب في أفهامهم ودعواهم، وهو الأمر الذي أوقعهم فيما ترى من ضلال وبُعد عن الصواب، واتهام لسيد الخلق بما لا يليق برجل سوى فضلًا عن نبي مُرْسَل، وهذا دليل على أن الحق لا يعنيهم في شيء، وإنما يهدفون إلى التشويه من أجل التشويه.

الخلاصة:

- من الثابت أن محمدًا ﷺ كان يجامع نساءه في الساعة الواحدة وهن تسع نسوة. قال قتادة لأنس بن مالك: أوكان يطيق الدوران عليهن؟ فقال أنس: كنا نتحدث أنه أُعطي قوة ثلاثين، وفي رواية: أربعين رجلًا من أهل الجنة، وعليه فليس صحيحًا أن النبي كان يشكو من عدم قدرته على إتيان نسائه.

- أمَّا ما رُوي أنه ﷺ شكا إلى جبريل عليه السلام قلة الجماع فأمره أو قال له: أين أنت من أكل الهريسة؟فإنها رواية باطلة لا تصحُّ نسبتها إلى النبي ﷺ. وقد ذكر المحدثون كل طرقها، فلم يصح طريق منها، بل حكموا على هذه الرواية بالبطلان والوضع.

وإذا كانت هذه هي الرواية التي استند إليها هؤلاء للطعن في عدم قدرة النبي ﷺ على الجماع - وقد تبين بطلانها - فإنه يتبين بطلان هذا الادعاء وسقوطه أمام طالب الحق.

- ثم إن هذه الدعوى تفضح نوايا أصحابها المغرضة، وتوضح أن الباطل يهدم بعضُه بعضًا، وينقض أولَه آخرُه، إذ يضطرب هؤلاء في دعواهم، فتارة يرمون النبي ﷺ بالشبق الجنسي والفحولة الزائدة وعشق النساء، وتارة يرمونه بالعجز الجنسي والضعف عن إتيان زوجاته، وهكذا يقدم هؤلاء المضطربون المغرضون أكبر دليل على براءة النبي ﷺ من اتهاماتهم المتضادة المتخالفة، على حدِّ قول الشاعر:

---

1. انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٥، ص٢٥١، ٢٥٢.

حُجَجٌ تَهَافَتْ كَالزُّجَاجِ تَخَالُهَا
حَقًّا وكُلُّ كاسِرٌ مكسورُ

الشبهة الحادية عشرة

استنكار زواجه ﷺ من السيدة عائشة صغيرة (*)

مضمون الشبهة:

يستنكر بعض المغالطين زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة وهي في سنٍّ صغيرة لا تَقْوَى فيها - على حد زعمهم - على الزواج، في حين أن عمره ﷺ كان يربو على الخمسين عامًا. ويرمون من وراء ذلك إلى اتهامه ﷺ بأنه لم يراعِ إلا رغبته ومزاجه، غير مبالٍ بمشاعر طفلة تلعب مع الصبية.

وجوه إبطال الشبهة:

١) زواج النبي ﷺ بالسيدة عائشة وهي في تلك السن ليس بدعًا ولا غريبًا؛ لأن هذا الأمر كان مألوفًا في ذاك المجتمع، ومن الخطأ البيِّن أن نفصل بين الحدث وبيئته التي وقع فيها، كما أن عائشة - رضي الله عنها - لم تكن طفلة يومئذ، بل كانت أنثى ناضجة، وقد خُطبت قبله لجبير بن المطعم بن عدي.

٢) كان لزواج النبي ﷺ من السيدة عائشة حِكم ومقاصد؛ منها: توكيد الصلة بين النبي ﷺ وأبي بكر الصديق، وكذلك تعليم الأمّة سنته القولية والفعلية، وخاصة في فقه النساء، تلك الحكم الدعوية وهاتيك المقاصد الشرعية هو ما جهله هؤلاء فراحوا يرمونه ﷺ بالشهوانية.

٣) لو كان النبي ﷺ شهوانيًّا لمال إلى التعدد في ريعان شبابه ﷺ، والواقع يشهد بأنه عزف عن هذا حتى إنه تزوج من السيدة خديجة وهي تناهز الأربعين في حين كان ﷺ في ريعان شبابه.

التفصيل:

أولا. لم يكن النبي ﷺ بدعًا من قومه ولا بيئته في زواجه من عائشة:

من المعروف تاريخيًّا أن قريشًا - التي كانت تتربص بالرسول ﷺ الدوائر لتأليب الناس عليه من هفوة أو زلة - لم تدهش حين أُعلن نبأ المصاهرة، بين أعز صاحبين وأوفى صديقين، بل استقبلته كما تستقبل أي أمر طبيعي، ولو أن في هذا الزواج أي منقصة أو مذمة، لأقامت قريش الدنيا ولم تقعدها، وحينئذ سوف تلوك الألسنة محمدًا بن عبد الله، قائلة: أليس هذا محمدًا الذي جاء يدعونا إلى العفاف والطهر؟! أليس كذا؟! أليس كذا..؟!

ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، وكان زواجًا عاديًّا مألوفًا لديهم أجمعين، بل إن النبي ﷺ لم يبادر إليه بنفسه، إذ إن زواجه ﷺ من السيدة عائشة - رضي الله عنها - كان باقتراح من أم شريك - خولة بنت حكيم السُّلميَّة - على الرسول ﷺ؛ لتوكيد الصلة مع أحب الناس إليه سيدنا أبي بكر الصديق، لتربطهما أيضًا برباط المصاهرة الوثيق.

ومما جاء في كتب السيرة المعتبرة أن الرسول ﷺ لم يكن أول الخاطبين لعائشة - رضي الله عنها - فقد كانت

(*) محمد في حياته الخاصة، نظمي لوقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٤م.

قبل ذلك مخطوبة لجبير بن المطعم بن عدي، فهي ناضجة من حيث الأنوثة مكتملة، بدليل خطبتها قبل حديث خولة.

على أن أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها - لم تكن أول صبية تُزفُّ في تلك البيئة إلى رجل في سن أبيها، ولم تكن كذلك أخراهن، لقد تزوج عبد المطلب الشيخ من هالة بنت عم آمنة في اليوم الذي تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه من صبية هي في سن هالة وهي آمنة بنت وهب، ثم لقد تزوج سيدنا عمر بن الخطاب من بنت سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ وهو في سن جدها، كما أن سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ عرض بنته الشابة السيدة حفصة - رضي الله عنها - على سيدنا أبي بكر الصديق، وبينهما من فارق السن مثل الذي بين الرسول ﷺ وعائشة - رضي الله عنها.

ولكن هؤلاء النفر يأتون بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام من ذلك الزواج فيهدرون فروق العصر والإقليم، والصحيح أنه لا ينبغي علينا ألا نفصل بين الحدث وبين البيئة التي وقع فيها الحدث، كما ينبغي علينا ألا ننسى ما للعُرف الاجتماعي من دور في تقييم الأمور، وألا نستهجن ما يخالف عرفنا، ومقاييسنا في هذا العصر، فلكل عصر أعرافه، ومن ثم لا يصح أن نقيس بعين الهوى زواجًا عُقد في مكة قبل الهجرة بما يحدث اليوم في بلاد الغرب، حيث لا تتزوج الفتاة عادة قبل سن الخامسة والعشرين.

ويجب الانتباه إلى أن نضوج الفتاة في المناطق الحارة يكون مبكّرًا جدًّا وهو في سن الثامنة عادة، وتتأخر الفتاة في المناطق الباردة إلى سن الواحد والعشرين كما يحدث ذلك في بعض البلاد الباردة[1].

وعليه فلا وجه لاستنكار زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة في تلك السن؛ لأن الذي لا شك فيه أن أعمار البنات كانت تُعرف في تلك البيئة وفي ذلك الزمان بعلامات غير علامات التقويم؛ فتعرف بأطوار النمو البدني كما يعرف الزارع نضوج الثمرة في حقله وآية هذا النضج هي التي قرأتها خولة بنت حكيم في عائشة كما قرأتها البيئة كلها، وبوحي من هذه الآية ذكرتها خولة للرسول ﷺ في معرض الزواج.

كانت عائشة - رضي الله عنها - إذن أنثى ناضجة يومئذ، وليست طفلة كما يزعمون، بل كان اسمها في قائمة المرشحات للزواج، أيما زواج في مجتمع مكة[2].

ثانيًا. الدوافع والحِكَم الكامنة وراء زواج النبي ﷺ من عائشة:

كان زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة وهي في هذا العمر أمر توقيفي من الله ﷻ وهو الأنسب للدعوة؛ فقد روت عن النبي ﷺ الكثير من الأحاديث وبخاصة سنته القولية والفعلية في معاملته للمرأة والأحكام الشرعية للنساء؛ فقد أُريها النبي ﷺ في منامه زوجة له، تروي أم المؤمنين عائشة هذه الرؤيا قائلة: قال رسول الله ﷺ: "أُريتك في المنامِ ثلاث ليال، جاءني بك الملكُ في خِرْقَة[3] من حرير، فيقول هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك، فإذا أنت هي، فأقول: إن يك من الله

١. رد افتراءات المنصِّرين حول الإسلام العظيم، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٨٦، ٨٧ بتصرف.
٢. محمد في حياته الخاصة، د. نظمي لوقا، مرجع سابق، ص١٣٣ بتصرف.
٣. الخِرْقة: القطعة من الثوب.

يُمضِه"[1]. وفي رواية: "أريتك في المنام مرتين"[2].

ولأن رؤيا الأنبياء حق ومن عند الله تأتي خولة بنت حكيم - امرأة عثمان بن مظعون - إلى النبي ﷺ لتعرض عليه أمر الزواج بعد وفاة خديجة - رضي الله عنها - بسنتين تقريبًا، وتعرض عليه كلًّا من عائشة وسودة، فوافق النبي ﷺ وطلب منها أن تخطبهما له.

وعن أبي سلمة ويحيى قالا: لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون قالت: يا رسول الله، ألا تزوج؟ قال: "من"؟ قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا، قال: "فمن البكر"؟ قالت: ابنة أحب خلق الله ﷻ إليك، عائشة بنت أبي بكر، قال: "ومن الثيب"؟ قالت: سودة ابنة زمعة، قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول، قال: "فاذهبي فاذكريهما عليَّ"، فدخلت بيت أبي بكر فقالت: يا أم رومان، ماذا أدخل الله ﷻ عليكم من الخير والبركة، قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قالت: انتظري أبا بكر حتى يأتي، فجاء أبو بكر فقالت: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة، قال: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قال: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، قال: "ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي"، فرجعت فذكرت ذلك له، قال: انتظري وخرج، قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه، فوالله ما وعد وعدًا قط فأخلفه لأبي بكر، فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي وعنده امرأته أم الفتى، فقالت: يا ابن أبي قحافة، لعلك مصبٍ صاحبنا مدخله في دينك الذي أنت عليه أن تزوج إليك، قال أبو بكر لمطعم بن عدي: أقول هذه تقول إنها تقول ذلك، فخرج من عنده وقد أذهب الله ﷻ ما كان في نفسه من عِدَتِه التي وعده، فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ، فدعته فزوَّجها إياه وعائشة يومئذ بنت ست سنين[3].

وكانت الخطبة في شوال من السنة الثانية عشرة للبعثة النبوية، ولم ينكح ﷺ امرأة أبواها مهاجران غيرها بلا خلاف.

وبعد الهجرة النبوية الشريفة وفي السنة الثانية بالتحديد بعد غزوة بدر الكبرى، بنى رسول الله ﷺ بعائشة - رضي الله عنها - في شوال؛ لذا كانت تستحب أن تتزوج النساء في شوال، تقول: "تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني"[4]؟ فكانت تستحب أن تُدخل نساءها في شوال[5].

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها (٣٦٨٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة (٦٤٣٦).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها (٣٦٨٢).

٣. إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٥٨١٠)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب التزوُّج والتزويج في شوال واستحباب الدخول فيه (٣٥٤٨).

٥. السيدة عائشة وتوثيقها للسنة، جيهان رفعت فوزي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص١٨: ٢١.

وكانت سن عائشة ـ رضي الله عنها ـ في ذلك الوقت تسع سنوات، ولقد كان النبي ﷺ دائمًا يحب أن يُدخل الفرح والبهجة على قلبها، فيحملها على عاتقه ﷺ لتشاهد الحبشة وهم يلعبون بالحِراب في صحن المسجد، ويشاركها في اللعب، وتقول: "سابقني النبي ﷺ فسبقته ما شاء، حتى إذا أرهقني اللحم سابقني فسبقني، فقال: يا عائشة هذه بتلك"[1].

فأين مايدَّعيه هؤلاء من انتهاك لحرمة الطفولة يا معاشر الحصفاء؟!

إن النبي ﷺ كان للسيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ خير زوج، فكان النبي ﷺ إذا افتقدها قال: "واعروساه"، وقد وجعت يومًا فقالت: "وارأساه" فقال النبي ﷺ: "بل أنا وارأساه"[2]. وليس أدل على حبه لها من اختياره ﷺ أن يُمرَّض في بيتها، ووفاته بين سَحْرها ونَحْرها، ودفنه في بيتها ببقعة هي أفضل بقاع الأرض بإجماع الأمة.

وقد عرف الصحابة ﷺ ذلك فأحبوا من أحبَّ رسول الله ﷺ وصاروا يتحفونه،[3] بما يحب في منزل أحب نسائه إليه، يبتغون بذلك مرضاته ﷺ. وصار حبه إياها علمًا عليها فسُمّيت "حبيبة حبيب الله"، و"خليلة رسول الله"، و"حبيبة رسول الله".

وقد أكسب هذا الحب عائشة ـ رضي الله عنها ـ الحظوة لدى النبي ﷺ مما مكَّنها من الوقوف على كثير من أمور الدين، وخاصة التي تتعلق بعلاقة الرجل بزوجته في الإطار الإسلامي، حتى أنها صارت المرجع الأول الذي يرجع إليه الصحابة في ذلك، فقد قال الزهري: "لو جُمع لي علم عائشة، وعلم جميع أمهات المؤمنين، وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل".

فعيشها في بيت خير خلق الله أضاف إلى مكانتها الاجتماعية التي نشأت عليها في بيت أبيها مكانة أسمى؛ لكونها زوجة لرسول الله ﷺ وأمًّا للمؤمنين وتلقيها العلم غضًّا طريًّا من المعلم الأول النبي ﷺ، وصارت عالمة بالقرآن والسنة المطهرة لدرجة أن كبار الصحابة كانوا يلجئون إليها لغزارة علمها وسعته.

وعلى الرغم من اختلاف مستوى المعيشة في بيت الرسول ﷺ عن الحياة الرغدة في بيت أبيها، إلا أنها أدركت معيشتها الجديدة وقبلتها وصبرت عليها، وعندما خيَّرها النبي ﷺ بين الحياة معه والدار الآخرة، وبين الدنيا ومتاعها اختارت الله ورسوله والدار الآخرة دون أدنى تردد[4].

وعاشت "عائشة" لتكون المرجع الأول في الحديث والسنة، والفقيهة الأولى في الإسلام.. يقول أبو موسى الأشعري ﷺ: "ما أُشكل علينا أمر فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها فيه علمًا"[5].

إن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ استحقت

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٦٣٢٠)، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في السبق على الرجل (٢٥٨٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣١).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرض، باب ما رخص للمريض أن يقول: إني وجع أو وارأساه أو اشتد بي الوجع (٥٣٤٢).

٣. يُتحِفونه: يهدون إليه.

٤. السيدة عائشة وتوثيقها للسنة، جيهان رفعت فوزي، مرجع سابق، ص٢٥، ٢٦.

٥. تراجم سيدات بيت النبوة، د. عائشة عبد الرحمن، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص٢٤٤.

بجدارة أن تكون زوجة خاتم النبيين والمرسلين، لما فيها من الصفات النادرة التي قلما تجتمع لامرأة في سنِّها؛ فقد كانت ـ رضي الله عنها ـ ذات نمو فكري، وذكاء حاد وعقل راجع يؤهلها للزواج من أعظم إنسان شهدته البشرية محمد ﷺ ®.

ثالثًا. الوقت الأنسب لاشتهاء التعدد هو عنفوان الشباب:

لو كان همه ﷺ النساء والاستمتاع بهن كما يزعمون، لفعل ذلك أيام كان شابًّا، حيث لا أعباء رسالة ولا أثقالها ولا شيخوخة، بل عنفوان الشباب وشهوته الكامنة، غير أننا عندما ننظر في حياته ﷺ في سن الشباب نجده عازفًا عن هذا كله، حتى إنه رضي بالزواج من السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ الطاعنة في سن الأربعين، وهو ابن الخامسة والعشرين، ثم لو كان عنده هوس بالنساء ـ كما يزعمون ـ لما رضي بهذا عمرًا طويلًا، حتى توفيت زوجته السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ دون أن يتزوج عليها، ولو كان زواجه منها فلتة فهذه خديجة ـ رضي الله عنها ـ توفاها الله، فبمن تزوج بعدها؟ لقد تزوج بعدها بسودة بنت زمعة العامرية جبرًا لخاطرها وأنسًا لوحشتها بعد وفاة زوجها وهي في سن كبيرة، وليس بها ما يُرغِّب الرجال والخطَّاب، وهذا يدل على أن الرسول ﷺ كانت له من الزواج أهداف إنسانية وتشريعية لم يفطن لها هؤلاء.

ومنها أنه ﷺ عندما عرضَت عليه خولة بنت حكيم الزواج من عائشة فكر أيرفض بنت أبي بكر؟! وتأبى عليه ذلك صحبة طويلة مخلصة لأبي بكر ومكانة له عند الرسول ﷺ التي لم يظفر بمثلها سواه، ولما جاءت عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلى دار الرسول ﷺ أفسحت لها سودة المكان الأول في البيت، وسهرت السيدة عائشة على راحتها إلى أن توفاها الله وهي على طاعة الله وعبادته، وبقيت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ بعدها زوجة وفية للرسول ﷺ تفقهت عليه، حتى أصبحت من أهل العلم والمعرفة بالأحكام الشرعية.

وما كان حب الرسول ﷺ للسيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ إلا امتدادًا طبيعيًّا لحبه لأبيها ـ رضي الله عنها ـ ولقد سُئل ﷺ من أحب الناس إليك؟ قال: "عائشة" قيل: فمن الرجال؟ قال: "أبوها"[1]. هذه هي السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ الزوجة الأثيرة عند رسول الله ﷺ وأحب الناس إليه، لم يكن زواجه منها لمجرد الشهوة، ولم تكن دوافع الزواج بها المتعة الزوجية، بقدر ما كانت غاية تكريم أبي بكر وإيثاره وإدنائه إليه، وإنزال ابنته أكرم المنازل في بيت النبوة[2].

إذن ما كان لأحد أن يعيب على النبي ﷺ زواجه من عائشة ـ رضي الله عنها ـ؛ لأن هذا الزواج كان في مجتمع يقبل أن يتزوج فيه الرجل من امرأة في سن أمه، ويتزوج من امرأة في سن ابنته.

® في "الحكم العامة من تعدد زوجات النبي ﷺ" طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثامنة، من هذا الجزء. وفي "زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الخامسة عشرة، من هذا الجزء.

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلًا" (٣٤٦٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣٢٨).

٢. رد افتراءات المنصِّرين حول الإسلام العظيم، مرجع سابق، ص٨٦، ٨٧ بتصرف يسير.

وعليه فلا يجوز القول بشهوانية النبي ﷺ لمجرد أنه تزوج من السيدة عائشة؛ لأنه "لم يكن عسيرًا عليه أن يجمع إليه أجمل بنات العرب بل وأشد جواري الفرس والروم فتنة على تخوم الجزيرة العربية، ولم يكن عسيرًا عليه أن يوفر لنفسه، ولأهله من الطعام والكساء والزينة ما لم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة في زمانه، فهل فعل ذلك من مطلع حياته؟ أم هل فعله بعدما دانت له العرب والعجم؟

كلا، لم يفعل شيئًا من ذلك قط بل فعل نقيضه، وكاد أن يفقد زوجاته لشكايتهن من شَظَف العيش[1] في داره"[2].

الخلاصة:

- إن زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة كان أمرًا عاديًّا في هذا المجتمع، ولم تُبد قريش غرابتها لسماع ذلك النبأ، فهناك من سادات قريش من تزوج بامرأة في سن زوجة ابنه الأصغر كعبد المطلب جد النبي ﷺ.
- لو كان هذا الزواج مستهجنًا لقامت قريش تطعن في عفاف النبي ﷺ وطهره، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، إلى جانب أنه زواج توقيفي من الله ﷻ بدليل رؤيا النبي ﷺ - لها في منامه - عن طريق جبريل عليه السلام ورؤيا الأنبياء حق، كما أن النبي ﷺ لم يبادر لهذا الزواج، بل عرضتها عليه خوله بنت حكيم.
- على أن البيئة الحارة تنضج فيها الفتاة بسرعة مذهلة، على خلاف البيئة الباردة التي تنضج فيها الفتاة من سن الواحدة والعشرين، وإنه من الحمق أن نعزل الحدث عن الزمان، والمكان الذي وقع فيه.
- كما أن السيدة عائشة - رضي الله عنها - كان لها من الفطنة والذكاء ما يؤهلها للزواج في تلك السن، وقد كان في هذا الخير للأمة فهو فرصة لنقل تعليماته وتشريعاته ﷺ خاصة في أحكام النساء.
- لقد كان الرسول ﷺ خير زوج للسيدة عائشة - رضي الله عنها - فقد كان يحنو عليها حنو الأب على ابنته، فكان لها الأب والزوج في نفس الوقت.

1. شَظَف العَيش: ضِيق المعيشة.
2. الرد على القس بوش في كتابه "محمد مؤسس الدين الإسلامي"، د. عبد الرحمن جيرة، مرجع سابق، ص٢٣٢ بتصرف يسير.

الشبهة الثانية عشرة

الزعم أن النبي ﷺ ظلم زوجاته حين فضَّل السيدة عائشة عليهن (*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض الطاعنين أن النبي ﷺ كان يفضِّل السيدة عائشة - رضي الله عنها - على سائر زوجاته، ويستدلون على ذلك بنزول الوحي عليه ﷺ وهو في لحاف السيدة عائشة - رضي الله عنها - دون سائر زوجاته.

كما أنه ﷺ آثرها بأكثر من حقها في الرعاية والعناية بها؛ حتى إن زوجاته الأخريات غضبن من ذلك واعتبرنه ظلمًا لهن. ويتساءلون: أهكذا يكون عدل النبي بين زوجاته؟!

(*) قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. موقع إسلاميات.

وجها إبطال الشبهة:

1) لم يختر الرسول ﷺ لحاف عائشة لينزل عليه الوحي وهو فيه؛ لأن مكان نزول الوحي أمر خارج عن إرداته ﷺ واختياره؛ إذ إن أمر الوحي كله بيد الله ﷻ وحده، ونزول الوحي من الله ﷻ في لحافها تكريم لها من الله ﷻ وليس للنبي ﷺ دخل في ذلك.

2) لقد كان النبي يعدل بين زوجاته فيما يَمْلك من المأكل والمشرب والمبيت، ولا ذنب له فيما لا يملك من الميل القلبي، وقد عبَّر عن ذلك بقوله: "اللهم إن هذا قَسْمي فيما أملك فلا تَلُمْني فيما تَملك، ولا أَمْلك".

التفصيل:

أولا. أمرُ الوحي بتقدير الله وليس للنبي أي دخلٍ فيه:

إن مكان نزول الوحي أمر خارج عن إرادته ﷺ، إذ إن الله ﷻ هو الموحي، وهو مقدِّر الزمان والمكان، فهذا تكريم من الله ﷻ لعائشة - رضي الله عنها -، وليس للنبي ﷺ دخل في ذلك. "ومعلوم أن الوحي إعلام الله تعالى أنبياءه بما يريد أن يبلِّغ إليهم من شرع أو كتاب بواسطة أو بغير واسطة"[1].

وإذا كان الأمر كذلك، عُلم أن الوحي أمرٌ إلهي خارجٌ عن إرادتهم جميعًا بما فيهم النبي ﷺ يقول الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ﴾ (الشورى)، وحسبك أن المتكلم بالقرآن هو الله ﷻ الذي من عظمته: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ (الشورى: 5)، فليس لأعلى رجل من البشر وهو النبي ﷺ مقدار قطمير فيه والله ﷻ يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ (الشورى: 52)[2].

ومما يؤكد أن الوحي لا ينزل إلا بإذن الله وتقديره في الزمان والمكان اللذين يشاؤهما، أنه مرة تصادف أن كانت فخذ زيد بن ثابت تحت فخذه ﷺ، فلما نزل على الرسول الوحي شعر زيد بثقل فخذ الرسول ﷺ حتى كادت فخذ زيد أن تُرَض[3]، وعندما انقشع الوحي طلب الرسول ﷺ من زيد أن يكتب ما نزل عليه. وكذلك عندما نزلت سورة المائدة، كان ﷺ راكبًا ناقته، وللتوِّ لم يعد بمقدور الناقة أن تتحمله وكاد عَضُدها[4] أن ينكسر فنزل ﷺ عنها[5].

كل هذه الشواهد تؤكد أن الوحي أمرٌ رباني، وأن كيفية نزوله وتوقيته، بأمر المولى ﷻ؛ فقد نزل الوحي على النبي ﷺ في غار حراء، ونزل عليه وهو يمشي، ونزل وهو راكب، ونزل وهو في لحاف عائشة - رضي الله عنها - فذلك كله بتقدير الله وترتيبه.

معنى نزول الوحي في لحاف عائشة:

ولكي نَفْهم معنى نزول الوحي في لحاف عائشة لا بد أن نذكر نصَّ الحديث؛ لنقف على القصة كاملة،

1. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، مصر، 1979م، ص34.

2. تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام مقبل المجيدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1421هـ/ 2000م، ص15.
3. تُرَضُّ: تُكسَر.
4. العَضُد: ما بين المِرفَق إلى الكَتِف.
5. مصدر القرآن: دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 1417هـ/ 1997م، ص188 بتصرف يسير.

فللعرب ألفاظ لا يتَّضح معناها المقصود إلا من خلال السياق الواردة فيه.

فعن عائشة قالت: كان الناس يتحرَّون[1] بهداياهم يوم عائشة، قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة، فقلن: يا أم سلمة، والله إن الناس يتحرَّون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمُرِي رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيثما كان، أو حيثما دار، قالت: فذكرتْ ذلك أم سلمة للنبي ﷺ، قالت: فأعرض عني، فلما عاد إليَّ ذكرت له ذلك، فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له، فقال: "يا أم سلمة، لا تؤذيني في عائشة، فإنه ما أُنزل عليَّ الوحي وأنا في لِحاف امرأة منكن غيرَها"[2].

وهنا يتضح أن المقصود باللِّحاف: الغطاء أو السترة؛ لأن كل نساء النبي لهن سترة.

وإذا أسْقَطْنا هذا المعنى للحاف على حديث نزول الوحي عليه ﷺ في لحاف عائشة؛ عُلم أن المعنى: نزول الوحي عليه وهو نائم بجانبها في الفراش، أو بمعنى آخر في فراشها دونما جماع[3].

ونخلص من هذا إلى أن نزول الوحي على رسول الله ﷺ في لحاف السيدة عائشة دون سائر زوجاته ليس تفضيلًا منه ﷺ لها على سائر زوجاته اللاتي لم ينزل الوحي في لحاف إحداهن، ولكنه تكريم وتَشْريف من الموحِي ﷻ لها، وليس للنبي ﷺ دخل في هذا الأمر؛ لأن الوحي - من حيث زمانه ومكانه - رباني، ولا دخل لبشر فيه، فأين الظلم الواقع من الرسول ﷺ لسائر زوجاته في ذلك؟!

ثانيًا. كان النبي ﷺ أعدل الناس في بيته وبين زوجاته:

لا يُنكر منصف ما كان من عدله ﷺ بين زوجاته - رضي الله عنهنَّ جميعًا - فيما يملك (المأكل والمشرب والمبيت)، ولا ذنب له فيما لا يملك من (الميل القلبي)، فهو ملك لله، وفي ذلك يقول ﷺ: "اللهمَّ إن هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك"[4].

والعدل بوجه عام مطلوب في كل المجالات، وهو هنا أشدُّ طلبًا وأكثر أهمية، وذلك لشدة الحساسية بين الضرائر، وللآثار الوخيمة على الأسرة، والمجتمع حال عدم مراعاته، وهذا ما لم يغب عنه ﷺ.

لهذا نجد أن الله ﷻ جعله شرطًا لجواز الإقدام على التعدد، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣)﴾ (النساء)، فمجرَّد الخوف من عدم العدل مانعًا للتعدد.

يقول الضحَّاك وغيره في تفسير الآية السابقة: فإن خِفْتم ألا تعدلوا في الميل والمحبة والجماع والعِشرة بين الزوجات الأربع والثلاث والاثنين فواحدةً، أي: فتزوجوا واحدة، فمنع الله ﷻ من الزيادة التي تُؤدِّي إلى ترك العدل في القَسْم وحُسْن العِشْرة، وذلك دليل

---

١. يتحرَّون: يقصدون.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة رضي الله عنها (٣٥٦٤).

٣. رد افتراءات المنصِّرين حول الإسلام العظيم، مرجع سابق، ص٦٠، ٦١ بتصرف.

٤. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٥١٥٤)، والدارمي في سننه، كتاب النكاح، باب في القسمة بين النساء (٢١٣٦)، وصحح إسناده حسين سالم أسد في تعليقات سنن الدارمي.

على وجوب ذلك، والله أعلم[1].

وقد حذَّر النبي ﷺ من عدم العدل بين الزوجات فقال: "من كانت له امرأتان فلم يَعْدل بينهما، جاء يوم القيامة وأحد شِقَّيْهِ مائِل" [2]، ولا يُعْقل أن يُحذِّر النبي ﷺ أمَّته من عدم العدل بين الزوجات، ثم يظلم زوجاته، ويفضِّل عائشة على سائرهن!!

لقد كان النبي ﷺ أحرص الناس على مراعاة العدل بين زوجاته. فلم يَنْشغل بالدولة وقيادتها، والغزوات وكثرتها، عن ممارسة العدل في نِطاق أسرته الكريمة، وبين زوجاته أمهات المؤمنين، فقد كان يَقْسم بين نسائه فيعدل، ويقول: "اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك" [3]. ومعنى قوله: "لا تلمني فيما تملك ولا أملك": لا تلمني في الحب والمودة القلبية، كما قال أهل العلم.

والله ﷻ يقول في نبيه الكريم العادل: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ (الأحزاب: ٢١)، ونحن إذا تأملنا حياة النبي ﷺ الأُسريَّة فإننا نجدها حياة تتَّسم بالعدل والرحمة، فقد كان له ﷺ تسع زوجات، وكانت لكل واحدة منهن حجرتها الخاصة بها، فكان النبي إذا صلى العصر زار كل واحدة منهنَّ في حجرتها، واطلع على حالها، وقضى لها حوائجها إن كانت بحاجة لشيء، فإذا كان الليل آوى إلى من كانت نوبتها في المبيت.

وكان يجمع زوجاته كلهن في بيت صاحبة النوبة، فيجلس بينهن فيَأْنَسْن به ويَأْنَسُ بهن، حتى إذا كان المبيت عادت كل واحدة منهن إلى حجرتها وبات هو عند من كانت نوبتها.

وقد كان ﷺ يَقْسم بين نسائه في أمرين: المبيت والنفقة، فمن كانت نوبتها جلست بجانبه، وأمتعته واستمتعت، بنحو أخذ يده بين يديها، أو وضع رأسه في حجرها؛ فعن أنس قال: "كان للنبي ﷺ تِسْع نسوة، فكان إذا قَسَم بينهنَّ لا ينتهي إلى المرأة الأولى إلا في تسعٍ، فكنَّ يجتمعن كل ليلة في بيت التي يأتيها، فكان في بيت عائشة، فجاءت زينب، فمدَّ يده إليها، فقالت عائشة: هذه زينب، فكفَّ النبي ﷺ يده"[4].

وقد رُوي عن عائشة أنها قالت: "ما رأيت امرأة أحب إليَّ أن أكون في مِسْلاخها[5] من سودة بنت زمعة من امرأة فيها حِدَّة، قالت: فلما كبرت جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة، قالت: يا رسول الله، قد جعلت يومي منك لعائشة، فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة"[6].

ولعلَّ في هذا الخبر ـ الأخير ـ خير شاهد على عدْله ﷺ في القَسْم وتجرُّده من ميوله الشخصية، وعلى

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج٥، ص٢٠ بتصرف يسير.

٢. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء (١٩٦٩)، وصححه الألباني في المشكاة (٣٢٣٦).

٣. جيد: أخرجه الدارمي في سننه، كتاب النكاح، باب في القسمة بين النساء (٢٢٠٧)، وأبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء (٢١٣٦)، وقال عنه الألباني: حديث جيد (٣٢٣٥).

٤. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب القسم بين الزوجات وبيان أن السنة أن تكون لكل واحدة ليلة (٣٧٠١).

٥. المِسْلاخ: الجلد، والمعنى: أن تكون مثلها في هديها وطريقتها ما عدا الحِدَّة التي فيها.

٦. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب جواز هِبتها نوبتها لضرتها (٣٧٠٢).

الرغم من أنه ﷺ كان يحب عائشة ـ رضي الله عنها ـ، لكن حبه لعائشة ما كان ليدفعه ﷺ أن يمنحها ليلة سودة ـ على كبر سنها ـ إلا بعد أن تأذن صاحبة الحق لها بالتنازل عن ليلتها لعائشة، تمامًا بتمام كما كف النبي ﷺ عن زينب حين ذُكِّر بأنها ليلة عائشة، وأمام الموقفين لا يسعنا إلا أن نفسرهما بتجرده ﷺ وتحريه العدل في القسم بين زوجاته، ذلك العدل الذي ما كان لتشوبه محاباة من النبي لمن يحب وعلى حساب الأخريات؛ فجعل رسول الله القسم بين ثمانية من نسائه، وهن الباقيات عدا سودة، وكان يخص عائشة بليلتين، ليلتها وليلة سودة بنت زمعة حسب رغبة الأخيرة.

ودليل هذا وذاك ما كان من النبي ﷺ عندما ثقل به مرضه الأخير يستأذن نساءه لِيُمَرَّضَ في بيت عائشة، قالت عائشة: إن رسول الله بعث إلى النساء ـ تعني في مرضه ـ فاجتمعن، فقال: "إني لا أستطيع أن أدور بينكن، فإن رأيتنّ أن تأذنَّ لي فأكون في بيت عائشة فعلتُن"، فأَذِنَّ له[1].

ودعمًا لعدل النبي بين زوجاته، فقد رُوي عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: "كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في القسم في مكثه عندنا، وكان قَلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا جميعًا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس، حتى يبلغ التي هو يومها فيبيت عندها". ولـمَّا كانت العروس بحاجة إلى وقت لتألف زوجها، ولـمَّا كانت البكر تحتاج إلى وقت أطول من وقت الثَّيِّب لتحصل هذه الألفة ـ فإن النبي كان إذا تزوَّج خص البكر بسبع ليال، والثيب بثلاث، ثم يعود بعدها إلى القَسْم، وقد أقام النبي عند صفية ثلاثًا عندما تزوجها، ولما تزوج أم سلمة أقام عندها ثلاثًا، ولما أراد أن يَخْرج أخذت بثوبه، فقال لها: "إن شئت زدتك وحاسبتك به، للبكر سبع وللثيب ثلاث"[2].

ولـمَّا كانت الزوجة تُحبُّ أن تكون مع زوجها في كل أحيانه، في سرائه وفي ضرائه، فإن كان في سرور شاركته مسراته، وإن كان في ضر اطمأنت عليه أولًا بأول، فإن رسول الله كان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سَهْمُها خرج بها معه.

وكان رسول الله ﷺ يراعي الفروق الفردية بين زوجاته، فمن كانت منهن ذات حِدَّة في طبعها ـ كسودة بنت زمعة ـ صبر على حِدَّتها، ولم يتَّخذ هذه الحدة سلاحًا ضدها، ومن كانت منهن طفلة لم يكتمل عقلها ـ كالسيدة عائشة حين تزوجها ـ راعى فيها متطلبات الطفولة[3].

ومن مظاهر عَدْله ﷺ بين زوجاته أنه ﷺ: لم يَسْمح لواحدة منهن أن تذكر زوجة أخرى بسوء في حضوره، ولو كان ما قالته فيها حقًّا، فإذا ما حصل ذلك في حضوره ﷺ فإنه سرعان ما يذكر من محاسن الزوجة

---

١. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٥٨٨٣)، وأبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء (٢١٣٩)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٨٧٠).

٢. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء (٢١٣٧)، والحاكم في مستدركه، كتاب النكاح (٢٧٦٠)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب النكاح، باب ما يستدل به على أن النبي ﷺ في سوى ما ذكرنا ووصفنا (١٣٢١٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٨٦٨).

٣. دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ من خلال سيرته الشريفة، د. محمد رَوَّاس قلعه جي، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص١٧٧: ١٨٠ بتصرف يسير.

المَطْعون فيها بما يرفع من شأنها، ويُذكِّر الزوجة الطاعنة بما يُذْهِب غرورها؛ لتشعر كل زوجة من زوجاته ﷺ بالأمان عنده، وبأن لها من المكانة في قَلْبه ما لا يَسْمح لأحد من انتقاصها أمامه.

فقد حدث أنْ ذكر رسول الله ﷺ زوجته خديجة - رضي الله عنها - بحَضْرة عائشة، فقالت عائشة: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشِّدْق؟[1] قد أبدلك الله خيرًا منها، قال: "ما أبدلني الله خيرًا منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذّبني الناس، وواسَتْني بمالها إذْ حَرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء"[2][3].

وهذا الموقف يبين مدى حرص الرسول ﷺ على أن لجميع زوجاته مكانتهن، ويقف دليلًا ناصعًا على عدله ﷺ بينهن، وعدم تفضيله عائشة على إحداهن حتى بعد وفاتها، وهنا نتساءل: هل من المنطق أن يُنصف النبي السيدة خديجة بعد وفاتها من عائشة ثم هو يُؤثرها على غيرها من الأحياء ويظلمهن؟! والمنطق يقول: لو كان النبي ﷺ جائرًا حقًّا لما غضب من ذكر عائشة لإحدى زوجاته، لا سيما أنها ماتت ولم تعد بينهن، أينصف الموتى اللائي لا يضيرهن الانتقاص ثم هو يجور على غيرهن من الأحياء؟! هذا ما لا يقول به صاحب عقل منصف®.

1. حمراء الشِّدق: وقعت أسنانها فاحمرَّ جانب الفم مما أسفل الخدِّ.

2. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٤٩٠٨)، والطبراني في المعجم الكبير، باب ذكر أزواج رسول الله ﷺ منهن (٢٢)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تعليقات مسند أحمد.

3. دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ من خلال سيرته الشريفة، د. محمد رَوَّاس قلعه جي، مرجع سابق، ص١٨٦.

الخلاصة:

- إن الوحي أمرٌ إلهي لا ينزل على النبي ﷺ إلا بإذن الله تبارك وتعالى وتقديره، وليس للنبي ﷺ اختيار لموعد نزوله، أو مكانه، فأحيانًا كان ينزل عليه الوحي وهو يمشي، وأحيانًا ينزل وهو راكب، وأحيانًا كان ينزل عليه الوحي وهو في لحاف السيدة عائشة - رضي الله عنها -، وهذا تكريم من الله لها، وليس للنبي ﷺ أدنى تدخُّل فيه.
- كان النبي ﷺ أَعْدل الناس في بيته، وبين زوجاته، ولكن لا بد أن نشير إلى أن العدل المطلوب بين الزوجات هو العدل في المأكل، والمشرب، والمبيت، وليس الميل القلبي؛ لأن ذلك بيد الله ﷻ ولا يستطيع الإنسان أن يتحكَّم فيه.
- قد كان ﷺ يقسم بين نسائه فَيَعْدل، حتى في الكلمة والبَسْمة والنظرة، ولقد حذَّر النبي أمته من عدم العدل بين زوجاتهم، فهل يُعْقَلُ أن يحذِّر النبي من شيء ويأتيه؟!
- لقد كان النبي أسوة حسنة في العدل بين زوجاته، ولا يُعْقَل أن ينتصر للسيدة خديجة التي ماتت، ثم يجور على سائر زوجاته الأحياء!

® في "حسن معاملة النبي ﷺ لأزواجه وعدله بينهن" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة، والوجه الرابع، من الشبهة الرابعة عشرة، من هذا الجزء.

الشبهة الثالثة عشرة

اتهام زوجة النبي ﷺ السيدة عائشة بالوقوع في الفحشاء(*)

مضمون الشبهة:

يطعن بعض المفترين في طهارة زوجة النبي ﷺ السيدة عائشة ــ رضي الله عنها ــ معرِّضين بعفتها، زاعمين أنها انتهكت حرمة الزوجية وخانت النبي ﷺ مع الصحابي الجليل صفوان بن المعطَّل، ويستدلون على ذلك بأنها كانت ـ رضي الله عنها ـ زوجة رجل شيخ، ووجدت نفسها وحيدة في خلوة مع شاب، فهُما أقرب للوقوع في الفاحشة، كما يزعمون أن النبي ﷺ اتكأ على الوحي في ثماني عشرة آية من سورة النور لتبرئتها مما رُميت به، ويتَّخذ المغالطون من تأخر الوحي في هذا الشأن بعدًا آخر في التشكيك متسائلين لو كانت السيدة عائشة بريئةً؛ فلماذا لم يُبَرِّئها الوحي في الحال؟! ويرمون من وراء ذلك إلى الطعن في عفة زوجاته ﷺ وقذف إحداهن بما لا يليق في حق زوجة نبي.

وجوه إبطال الشبهة:

١) لقد كانت حادثة الإفك إحدى حلقات الابتلاء والإيذاء والمحن التي تعرَّض لها النبي ﷺ وأهل بيته، وقد كانت محنة شديدة عليه ﷺ، ولكنه تجاوزها بالصبر والحلم، والحكمة، والتثبُّت، حتى أظهر الله الحق وبرَّأ السيدة عائشة من فوق سبع سماوات.

٢) إن نشأة عائشة بنت أبي بكر ـ رضي الله عنها ـ وسيرتها، ومكانتها في الإسلام عامة، وقدرها عند رسول الله ﷺ خاصة، وكذلك سيرة صفوان بن المعطَّل وتقواه واجتهاده في طاعة النبي ﷺ؛ ينفي وقوعهما في الفاحشة التي يتورَّع عنها أي مسلمٍ، فما بالك بهؤلاء الصفوة الأبرار.

٣) الوحي الإلهي ليس شعورًا نفسيًّا ينبثق من كيان النبي ﷺ، كما أنه ليس خاضعًا لإرادته ﷺ أو أمنياته، ولو كان كذلك لكان من السهل عليه أن يُنهي هذه المشكلة ويقضي على هذه الفرية ساعة مولدها؛ ولكنه ﷺ لم يفعل؛ لأن هذا مما لا حول له به ولا قوة.

التفصيل:

أولا. حادثة الإفك إحدى حلقات الابتلاء والإيذاء والمحن التي تعرَّض لها النبي ﷺ وأهل بيته:

إن الابتلاء والاختبار من سنة الله ﷻ في خلقه، لذلك قال ﷻ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (الملك)، وقال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (العنكبوت).

إذن فالابتلاء سنة الله ﷻ في العقائد والدعوات، فلا بد من البلاء، ولا بد من الأذى في الأموال والأنفس، والأرواح والأجساد، أما أن يُفهَم مُناخ هذا الطريق على أنه رَوْح وريحان، فهو تصور غير صحيح.

يقول الأستاذ سيد قطب: إنها سنة الله في الدعوات الكبيرة، لا بد من بلاء، ولا بد من أذى في النفس والأموال، ولا بد من صبر ومقاومة واعتزام، إنه

(*) السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق. هل القرآن معصوم، عبد الله عبد الفادي، موقع إسلاميات. www.Islameyat.com

الطريق إلى الجنة، وقد حُفَّت[1] الجنة بالمكاره، بينما حُفت النار بالشهوات[2].

وعلى هذا يجب أن نوقن يقينًا كاملًا بأن هذه الدنيا إنما هي دار بلاء واختبار، وليست دار راحة واستقرار[3].

والمؤمن - في الإطار العام - أكثر الناس بلاءً، فقد سُئل النبي ﷺ عن أي الناس أشد بلاء، فقال ﷺ: "الأنبياء، ثم الأمثل[4] فالأمثل" [5]، وقال أيضًا: "ويُبتَلَى العبد على قدر دينه"[6]، وهكذا نجد النبي ﷺ من أكثر الناس بلاءً، فقد تعرَّض ﷺ لصنوف الأذى، وابتُلي بشتى أنواع الابتلاءات، وقد أصابه من أذى المشركين، ومن شر اليهود، ومن فساد المنافقين الشيء الكثير، فصبر واحتَسَبَ أمرَه عند الله ﷻ.

ولعل من أعظم صور الابتلاءات التي ابتُلي بها رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر وابنته عائشة - رضي الله عنهما - هو الطعن في عرض النبي ﷺ وفي شرف حبيبته الصدِّيقة بنت الصدِّيق حين رَمَوها بالإفك؛ فاتَّهموها بصفوان بن المعَطَّل السُّلَمِي، وذلك أنهم لما دنوا من المدينة بعد العودة من المريسيع آذن ﷺ ليلةً بالرحيل، وكانت السيدة عائشة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش، فلما قضت شأنها أقبلت إلى رَحْلها، فلمست صدرها فإذا عِقْدٌ لها من جِزْع ظَفَارِ[7] قد انقطع، فرجعت تلتمس عقدها، فحبسها ابتغاؤه، فأقبل الرَّهْط[8] الذين كانوا يَرْحلُونَها، فاحتملوا هَوْدَجها ظانِّين أنها فيه؛ لأن النساء كُنَّ إذ ذاك خفافًا لم يَغْشَهُنَّ[9] اللحم، فلم يستنكر القوم خِفَّةَ الهودج، وكانت عائشة جارية حديثة السن، فجاءت منزل الجيش بعد أن وجدت عقدها، وليس بالمنزل[10] داعٍ ولا مُجيب، فغلبتها عيناها فنامتْ، وكان الذي يسيرُ وراء الجيش يتفقَّد ضائعه صفوان بن المُعَطَّل، فأصبح عند منزلها فعرفها؛ لأنه كان رآها قبل الحجاب، فاسترجع[11]، فاستيقظت باسترجاعه وسترت وجهها بجلبابها، فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة، ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصل الجيش وهو نازل للراحة، فقامت قيامة أهل الإفك، وقالوا ما قالوا في عائشة وصفوان، والذي تَوَلَّى كِبَرَ الإفك عبد الله بن أُبي بن سلول.

ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهرًا، والناس يُفيضون[12] في قول الإفك، وهي لا تشعر بشيء،

---

1. حَفَّ: أحاط.
2. في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ج١، ص٥٣٩.
3. حديث الإفك دروس وعبر، د. عامر حسين السلامي، دار القمة، الإسكندرية، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٠٤ .
4. الأمثل: الأفضل.
5. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث فاطمة عمة أبي عبيدة وأخت حذيفة رضي الله عنها (٢٧١٢٤)، والنسائي في سننه الكبرى، كتاب الطب، باب أي الناس أشد بلاء (٧٤٨٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٤٣).
6. إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده، مسند العشرة المبشرين بالجنة، مسند سعد بن أبي وقاص ؓ (١٥٥٥)، والطيالسي في مسنده، أحاديث سعد بن أبي وقاص ؓ (٢١٥)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.
7. جِزْع ظَفار: نوع من الخَرَز منسوب إلى قرية ظَفار باليمن.
8. الرَّهْط: الجماعة أقل من عشرة أفراد.
9. لم يَغْشَهنَّ اللحم: لم يكثر عليهن.
10. المنزل: مكان نزول القوم.
11. استرجع: قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.
12. يُفيضون: يُكثرون.

وكانت تعرف في رسول الله رِقَّة إذا مرضت، فلم يُعطِها نصيبًا منها في هذا المرض، بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله: "كيف حالكم"؟ مما جعلها في ريب عظيم، فلما نَقِهَتْ[1] خرجت هي وأُم مِسطح بن أثاثة ـ أحد أهل الإفك ـ للتبرُّز خارج البيوت، فعثرت أُم مسطح في مِرْطها[2] فقالت: تعس مِسطح، فقالت عائشة: بئس ما قلتِ، أَتَسُبِّين رجلًا شهد بدرًا؟ فقالت: يا هَنْتاهُ[3]، أَوَلَم تسمعي ما قالوا؟ فسألتها عائشة عن ذلك، فأخبرتها الخبر، فازدادت مرضًا على مرضها، ولما جاءها ﷺ كعادته، استأذنته أن تُمَرَّض في بيت أبيها، فأذن لها، فسألتْ أمها عمّا يقول الناس، فقالت: يا بنيَّة، هوِّني عليك، فوالله، لقلَّما كانت امرأة قَطُّ وضيئة[4] عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثَرنَ[5] عليها، فقالت عائشة: سبحان الله، أوَقد تحدث الناس بهذا؟ وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يَرقَأ[6] لها دمع، ولا تكتحل بنوم[7].

وفي خلال ذلك كان ﷺ يستشير كبارَ أهل بيته فيما يفعل، فقال له أسامة لما يعلمه من براءة عائشة: أهلك أهلك، ولا نعلم عليهم إلا خيرًا، وقال علي بن أبي طالب: لم يُضيِّقِ الله عليك، والنساء سواها كثير، وسلِ الجاريةَ تَصْدُقْكَ، فدعا ﷺ بَريرة جارية عائشة، وقال لها: "هل رأيت من شيء يَرِيْبُكِ"؟ فقالت: والذي بعثك بالحق، ما رأيت عليها أمرًا قط أَغمِصه[8] غير أنها جارية حديثة السِّنِّ، تنام عن عجينها، فتأتي الدَّاجِن[9] فتأكله.

فقام ﷺ من يومه وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون وقال: "مَنْ يَعْذُرُني[10] من رجل قد بلغني أذاه في أهلي؟ والله، ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما يدخل على أهلي إلا معي". فقال سعد بن معاذ: أنا يا رسول الله أَعذِرُك منه، فإن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، فقام سعدُ بن عبادة الخزرجي وقال: كذبتَ لعَمْرُ الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رَهْطك ما أحببتَ أنه يُقتل، فقام أُسيد بن حُضير وقال لسعد بن عبادة: كذبتَ لعمر الله، لنقتلنَّه، فإنك منافق تجادلُ عن المنافقين. وكادت تكون فتنة بين الأوس والخزرج لولا أن رسول الله نزل من فوق المنبر وخَفَّضَهم حتى سكتوا، أما عائشة فبقيت ليلتين لا يَرْقَأُ لها دمعٌ، ولا تكْتَحِل بنوم. وبينما هي مع أبويها إذْ دخل النبي ﷺ فسلَّم ثم جلس فقال: "أما بعد، يا عائشة، إنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت أَلْـمَمتِ[11] بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف وتاب تاب الله عليه"، فتقلَّصَ[12] دمعُ عائشة، وقالت لأبويها: أجيبا

١. نَقِه من المرض: شُفي منه ولم ترجع له كامل صحته.
٢. المِرْط: كساء يُلتَحف به.
٣. يا هَنْتاه: يا هذه، أو يا غافلة.
٤. وَضِيئة: جميلة حسنة.
٥. أكثَرنَ عليها: أكثرن من ذكر معايبها.
٦. لا يَرقَأ: لا ينقطع.
٧. لا تكتحل بنوم: لا تنام.

٨. أَغمِصه: أعيبها به.
٩. الدَّاجن: الشاة التي تألف البيت ولا تخرج للمرعي.
١٠. من يَعذُرني: من يقوم بعُذري إن عاقبته على سوء ما فعل.
١١. أَلْـمَمتِ: أتيتِ من غير عادة أو سهوًا أو غفلة.
١٢. تقلَّص: تجمَّد.

رسول الله، فقالا: والله، ما ندري ما نقول، فقالت: إني والله لقد علمتُ أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقرَّ في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلتُ لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتُصَدِّقُنِّي، فوالله، لا أجدُ لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف حيث قال: فصبرٌ جميلٌ، والله المستعان على ما تصفون.

ثم تحوَّلتْ واضطجعت على فراشها، ولم يزاول رسول الله ﷺ مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصدّيقة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (١٢) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦) يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢)﴾ (النور)[1][2].

وهكذا يتبين لنا أن حادثة الإفك كانت حلقة فريدة من سلسلة الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين، وتلك هي طبيعة الشر الذي لا يصدر إلا من المنافقين وخبر الإفك صورة فريدة للأذى الذي اضطلع به هؤلاء المنافقون.

فكانت هذه القصة أبلغ من غيرها في إيذاء النبي ﷺ؛ لأن كل ما كان قد كابَدَه[3] قبل ذلك من المحن أمور كان يتوقعها، وقد وطَّن نفسه لقبولها وتَحمُّلِها، وليس التِقَاؤه بها في طريق الدعوة مفاجأة له، أما هذه فقد فوجئ بها؛ لأنها ليس مما اعتاده أو توقعه، إنها اليوم شيء آخر، إنها شائعة لا يدري أصحيحة هي أم باطلة، ولو صحت لكانت طعنة نجلاء في أخص ما يعتز به إنسان، أخص ما يتصف به: الشرف والكرامة من هنا كانت هذه الأذاة أبلغ في تأثيرها من كل ما عداها، لأنها جاءت لتُلْقي بشعوره النفساني في اضطراب مثير لا مناص منه.

ومع ذلك فلو أن الوحي سارع إلى كشف الحقيقة وفضح إفك المنافقين لكان في ذلك مخرج من هذا

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك (٣٩١٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٧١٩٦).

٢. نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ص١٠٩: ١١٢.

٣. كابد: تحمل وعانى.

الاضطراب وهذه الشكوك المثيرة، ولكن الوحي تلبَّث أكثر من شهر لا يعلِّق على ذلك، فكان ذلك مصدرًا آخر للقلق والشكوك.

ومع ذلك فإن محنة الإفك هذه، جاءت منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبي ﷺ وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يلتبس بها، إن معنى النبوة في حياته ﷺ كان من المحتمل أن يبقى مشوبًا، في وهم بعض المؤمنين به والكافرين على السواء، لَو لَمْ تأت حادثة الإفك هذه لتهُزَّ شخصية النبي ﷺ هزًّا قويًّا، يفصل إنسانيته العادية عن معنى النبوة الصافية فيه، ثم لتُجَلِّي معنى النبوة والوحي تجلية تامة أمام الأنظار والأفكار، حتى لا يبقى أي مجال للقياس بينه وبين أي معنى من المعاني النفسية أو الشعورية الأخرى.

لقد فاجأت هذه الشائعة سَمعَ النبي وهو في طور من إنسانيته العادية، يتصرف ويتأمل ويفكر كأي أحد من الناس ضمن حدود العصمة المعروفة للأنبياء، فاستقبلها كما يستقبل مثلَها أي بشر عادي من الناس، ليس له اطِّلاع على غيب مكنون ولا ضمير مجهول، ولا على قصد ملفق كاذب، فاضطرب كما يضطربون وشكَّ كما يشكُّون، وأخذ يقلِّب الرأي على وجوهه، ويستعين في ذلك بمشورة أُولي الرأي من أصحابه[1].

وهكذا فلم يكن حديث الإفك إلا قصة من قصص الابتلاء العديدة، بالنسبة للرسول ﷺ وكذلك بالنسبة لعائشة ـ رضي الله عنها ـ ومثلها لأبي بكر ﷺ وكذلك لصفوان ﷺ بل هو اختبار وابتلاء للمجتمع الإسلامي كله آنذاك.

فها هي عائشة ـ رضي الله عنها ـ محور القصة المأفوكة، يصيبها الهم والغم والحزن، وتمرض على مرضها؛ لأن المسألة في غاية الخطورة والصعوبة، إنها قصة تتعلق بأكرم ما تملكه المرأة، ألا وهو عرضها وشرفها، ويا لها من مسألة ابتلائية، تهُزُّ الأعصاب، وتؤرِّق الإنسان، وتقلقه، بل تهز كيانه كله هزًّا عنيفًا، إنه الابتلاء.. الاختبار.. التمحيص.

وقل مثل ذلك في العائلة الكريمة، عائلة أبي بكر ﷺ بأكملها؛ لأن المحنة أصابت الجميع، فها هو أبو بكر ﷺ يقف أمام الحدث مهمومًا مغلوبًا على أمره لا يدري ما يفعل، ولا ما يجيب، وكأنه يريد أن يقول: إنها محنة تجعل الحليم حيران، وفعلًا كان كذلك، فهو الحكيم الحليم ﷺ إلا أنه لما قالت له عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أجب عني رسول الله ﷺ، ما كان منه إلا أن قال: "والله، ما ندري ما نقول لرسول الله ﷺ" فهذا يعني أنه كان في حال من الضيق والشدة والحيرة، لكنه مُسلِّم أمره إلى الله ﷻ.

والرسول ﷺ هو الهدف من هذه الشائعة، إذ أرادوا بها النيل منه، ومن عرضه، وجرحه وإيلامه، ومحاولة إعاقته عن المهمة القائم بها، وظن أعداء الله ﷻ أنهم قد أصابوا رسول الله ﷺ في مقتله، وبأن الذي فعلوه من تجريح سمعةِ عائشة ـ رضي الله عنها ـ سيُقعِده عمَّا هو عليه من عمل.

وكانت محنة شديدة الوَطْأة على رسول الله ﷺ لكنه تجاوزها بالصبر والحِلم، والحكمة، والثبات، إلى أن

---

١. فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص٢٢٢ بتصرف يسير.

ظهرت براءة الصديقة - رضي الله عنها - وخذل الله ﷻ من تولَّى كِبْر هذه الجريمة[1]®.

ثانيًا. إن نشأة السيدة عائشة وكذلك سيرة صفوان بن المعطَّل وتقواه لينفيان وقوعهما - رضي الله عنهما - في هذه الفاحشة النكراء:

إن المرء لَيَعْجبُ أشدَّ العجب من هؤلاء الذين يقلبون الحقائق ويُشَوِّهون التاريخ بمزاعم لا تقوم إلا على الظن، وإن الظن لا يُغني من الحق شيئًا، وإن عجَبَ المرء ليزداد حينما يحاول هؤلاء أن يُشَوِّهوا سيرة الحَصَان الرزان أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - والمتأمل في سيرتها - رضي الله عنها - يجدها صفحة مشرِّفة منذ مولدها حتى توفاها الله، يجد حياتها - رضي الله عنها - ناصعة البياض، ولا عجب في ذلك فهي الصدِّيقة بنت الصدِّيق، وأحب الناس إلى رسول الله ﷺ.

ونحن إذا ألقينا الضوء على سيرتها العطرة - رضي الله عنها - تبيَّن لكل ذي عقل استحالة أن تقع في هذه الفاحشة النكراء التي رماها بها المنافقون قديمًا وحديثًا، ونسوق هنا شيئًا من سيرتها:

نسبها وأسرتها: تنتسب أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - إلى أسرة أصيلة عريقة هي أسرة أبي بكر الصديق ﷺ من قبيلة "تيم" العربية، وكانت لأسرة أبي بكر الصديق مكانة كبيرة قبل الإسلام، فهي من أكرم الأسر العربية وأعرقها، وبعد الإسلام تُعَدُّ أسرة أبي بكر الصديق من السابقين إليه، وقد ورثت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - الكثير من عناصر الفخار التي تميزت بها قبيلتها، كما أنها وُلِدت ونشأت في بيت عامر بالإسلام والإيمان، مما كان له الأثر الكبير والطيب عليها[2].

وأبوها أبو بكر الصديق ﷺ اسمه عبد الله بن أبي قحافة، وكان ﷺ أحب الرجال إلى النبي ﷺ وأعزهم عليه، وكان ﷺ أول من أسلم من الرجال، وأفضل الناس بعد رسول الله ﷺ.

وأمُّها هي أم رومان - رضي الله عنها - وقد أسلمت - رضي الله عنها - في مكة، وكانت من أوائل المسلمات، وبايعت النبي ﷺ وهاجرت مع أهل النبي ﷺ وآل أبي بكر.

هذه هي أسرتها، أما عن سيرتها - رضي الله عنها - فيمكننا أن نتحدث عنها بإيجاز شديد في النقاط التالية، كما ذكر كتاب "السيدة عائشة وتوثيقها للسنة":

مولدها: وُلِدت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - بمكة من أبوين مسلمين، يدل على ذلك قولها: "لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين"[3].

وذَكَرَت أنها لحقت بمكة سائس[4] الفيل شيخًا أعمى يستعطِي[5]، ولقد ولدت في السنة الرابعة للبعثة

---

١. حديث الإفك: دروس وعبر، د. عامر حسين السلامي، مرجع سابق، ص١٣٧، ١٣٨ بتصرف يسير.

® في **"بشرية النبي ﷺ وتعرضه للابتلاءات"** طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثانية والعشرين، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته).

٢. السيدة عائشة وتوثيقها للسنة، جيهان رفعت فوزي، مرجع سابق، ص١٢.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب هل يزور صاحبه كل يوم أو بكرة وعشيًّا (٥٧٢٩).

٤. السَّائس: القائد.

٥. يستعطي: يسأل الناس.

النبوية الشريفة، حيث خطبها النبي ﷺ وهي بنت ست سنين، بعد مرور سنتين ـ وقيل: ثلاث ـ على موت خديجة ـ رضي الله عنها ـ والتي تُوفِّيت قبل الهجرة بثلاث سنوات، وبَنَى بها بالمدينة، وهي بنت تسع في شوال، مُنْصَرَفَه من بدر في السنة الثانية من مَقدِمه.

وأقامت في صحبته ثمانية أعوام وخمسة أشهر، وتُوفِّي ﷺ وهي ابنة ثماني عشرة سنة.

نشأتها: نشأت أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ في بيت عامر بالإيمان لأبوين مسلمين؛ فوالدها أبو بكر الصديق ﷺ أول من أسلم من الرجال، وبإسلامه أسلمت زوجته أم رومان وابنتاه أسماء وعائشة ـ رضي الله عنهما ـ وبذلك تُعَدُّ عائشة من أوائل المسلمات.

وقد أرسلها أبوها إلى البادية، وعَهِد بها إلى من يقوم بتربيتها من عرب بني مخزوم، فنشأت على الفصاحة والبلاغة، والصفات العربية الأصيلة.

وكان للأسرة التي نشأت فيها عائشة ـ رضي الله عنها ـ مكانة كبيرة، وذلك لمكانة أبي بكر الصديق ﷺ قبل الإسلام وبعده، فقد كان قبل الإسلام من فضلاء قومه وساداتهم، وقد عُهد إليه بتسوية الدم وأداء المغارم والديات، وقد وصف ابن إسحاق هذه المكانة بقوله: "كان أبو بكر الصديق ﷺ رجلًا مؤلَّفًا لقومه، محببًا سهلًا وكان أنسب قريش[1] لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر".

وقال أيضًا: "كان أبو بكر رجلًا تاجرًا، ذا خلق، ومعروف، وكان رجال قومه يألفونه، ويأتونه لغير واحد من الأمر، لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته".

وبعد الإسلام تحمَّلت أسرة أبي بكر الكثير من المتاعب التي واجهت المسلمين في البداية، فها هو عائلها ينفق ماله في سبيل نشر الدعوة الإسلامية ومناصرة النبي ﷺ بكل ما يملك، وقصة هجرته مع النبي هي أكبر دليل على بذل أبي بكر لماله في سبيل الله.

فأم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ وُلدت في بيت عامر بالإسلام، فلم تعرف من أباطيل الشِّرك شيئًا، مما أكسبها فكرًا نقيًّا، وقلبًا طاهرًا مكَّنها من أن تكون عالمة ذات شأن في عصرها.

كما أنها نشأت في بيت ذي مكانة اجتماعية كبيرة قبل الإسلام وبعده، لمكانة أبي بكر الصديق، فنالت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ مكانة كبيرة عند رسول الله ﷺ وصارت أحب زوجاته إليه؛ لأنها ابنة أبي بكر ﷺ.

زواجها من النبي ﷺ: بدأت قصة زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ بعد وفاة السيدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ بسنتين تقريبًا، فقد حزن النبي ﷺ على خديجة حزنًا شديدًا، فبوفاتها فقد ﷺ العون والنصير، فأراد الله ﷻ أن يهوِّن عليه وأن يُعوِّضه عنها خيرًا، فأرسل الله تبارك وتعالى جبريل ﷺ إلى رسوله ﷺ يبشره بالزواج من عائشة ـ رضي الله عنها ـ ابنة صاحبه الوَفِي، لتُحَقِّق له الاستقرار النفسي ليتفرغ لشئون الدعوة الإسلامية.

وتروي أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ هذه الرؤيا قائلة: قال رسول الله ﷺ: "أُريتُكِ في المنامِ ثلاث ليال، جاءني بك الملكُ في سَرَقَةٍ[2] من حرير، فيقول هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك، فإذا أنت هي،

١. أنسب قريش: أعلمهم بنسبها.

٢. السَّرَقَة: القطعة البيضاء أو الجيدة.

فأقول: إن يَكُ من الله يُمْضِه" [1].

ولأن رؤيا الأنبياء حق ومن عند الله تأتي خولة بنت حكيم - امرأة عثمان بن مظعون - إلى النبي ﷺ لتعرض عليه أمر الزواج بعد وفاة خديجة - رضي الله عنها - بسنتين تقريبًا، وتعرض عليه كلًّا من عائشة وسودة، فوافق النبي ﷺ وطلب منها أن تخطبهما له. وكان النبي ﷺ إذا افتقدها قال: "واعروساه".

وقد أكسب هذا الحب عائشة - رضي الله عنها - الحَظْوة لدى النبي ﷺ، مما مكَّنها من الوقوف على كثير من أمور الدين، وخاصة تلك التي تتعلق بعلاقة الرجل بزوجته في الإطار الإسلامي، حتى إنها صارت المرجع الأول الذي يرجع إليه الصحابة في ذلك، قال الزهري: "لو جُمع لي علم عائشة وعلم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل".

فعَيْشُها في بيت خير خلق الله قد أضاف إلى مكانتها الاجتماعية التي نشأت عليها في بيت أبيها مكانة أسمى؛ لكونها زوجة لرسول الله ﷺ وأُمًّا للمؤمنين، وتَلَقِّيها العلم غضًّا طريًّا من المعلم الأول النبي ﷺ، فصارت عالمة بالقرآن والسنة المطهرة لدرجة أن كبار الصحابة كانوا يلجئون إليها لغزارة علمها وسعته.

وعلى الرغم من اختلاف مستوى المعيشة في بيت النبي عن الحياة الرغدة في بيت أبيها، إلا أنها أدركت واقع معيشتها الجديدة وقَبِلَتْها وصَبَرَتْ عليها، وعندما خيَّرها ﷺ بين الحياة معه والدار الآخرة، وبين الدنيا

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها (٣٦٨٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة (٦٤٣٦).

ومتاعها اختارت الله ورسوله دون أدنى تردد.

كل ذلك ترك أثره في نفس عائشة - رضي الله عنها - فجعلها جوادة كريمة زاهدة في الدنيا ومتاعها، حتى ليراها ابن أختها عروة بن الزبير ذات يوم وهي تتصدق بسبعين ألفًا، وإنها لتُرقِّع جيب درعها.

وبعث لها عبد الله بن الزبير بغِرارتين [2] مملوءتين بالمال فيهما مائة ألف، فدعت بطبق وجعلت تقسم المال في الناس، وكانت صائمة في هذا اليوم، وعندما حان وقت إفطارها لم تجد ما تفطر عليه؛ لأنها نسيت أن تستبقي لنفسها درهمًا واحدًا تشتري به طعامًا لها.

مكانتها عند رسول الله ﷺ: وهذه المكانة الاجتماعية التي تمتعت بها أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - أُضيفت إليها مكانة أكبر منها؛ لزواجها من النبي ﷺ وانتقالها إلى بيت النبوة ومهبط الوحي، وكانت حينئذ لا تزال صغيرة السن تحب اللعب بالعرائس مع صُوَيحِباتِها، فما كان منه ﷺ إلا أن أفسح لها المجال للعب، ولم يحرمها من هذه المتعة، بل إنه كان يفرح بلعبها ويضحك حتى تُرى نواجذه.

تقول في ذلك عائشة: "كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكانت لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله إذا دخل يَتقمعنَ [3] منه فيُسرِّبهنَّ" [4][5].

وفي رواية: "كنت ألعب بالبنات يومًا فربما دخل عليَّ

٢. الغِرارة: إناء من الخيش ونحوه.

٣. ينقمع: يختبئ مع حياء وهيبة.

٤. يُسرِّب: يرسل.

٥. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الانبساط إلى الناس (٥٧٧٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة (٦٤٤٠).

رسول الله ﷺ وعندي الجواري، فإذا دخل خَرَجْن، وإذا خرج دَخَلْن" [1].

وكان ﷺ دائمًا يحب أن يُدخِلَ الفرح والبهجة على قلبها، فيحملها على عاتقه ﷺ لتشاهد الحبشة وهم يلعبون بالحراب في صحن المسجد، ويشاركها في اللعب، وتقول: "سابقني النبي ﷺ فسبقته ما شاء حتى إذا أرهقني اللحم سابقني فسبقني، فقال: يا عائشة هذه بتلك" [2].

وحظيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ بحب النبي ﷺ فكانت أحب زوجاته إليه، وقد قال له عمرو بن العاص: يا رسول الله، أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: "عائشة"، قال: ومن الرجال؟ قال: "أبوها" [3].

وقد أثارت تلك المنزلة التي احتلتها عائشة ـ رضي الله عنها ـ غيرة زوجاته، فأرسلن ابنته فاطمة ـ رضي الله عنها ـ يطالبنه ﷺ بأن تكون لهن مكانة عائشة، فقال لفاطمة: "يا بنية ألا تحبين ما أحب؟" قالت: بلى، فرجعت إليهن فأخبرتهن. وقال ﷺ لأم سلمة: "لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني وأنا في لحاف امرأة إلا عائشة". وكان يقول ﷺ لهنَّ أيضًا: "إنها ابنة أبي بكر"[4][5].

فضائلها: فضائل أم المؤمنين عائشة كثيرة، ويكفيها فخرًا قول رسول الله ﷺ: "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"[6].

ومن هذه الفضائل على سبيل الإجمال:

- نزول براءتها من السماء في قصة حادث الإفك في ست عشرة آية متوالية.
- نزول جبريل عليه السلام بصورتها من السماء في خرقة من حرير إلى النبي ﷺ فقال له: هذه زوجتك، فيكشف عن وجهها رسول الله ﷺ ويقول: "إن يك هذا من عند الله يُمْضِه"[7].
- تزوجها رسول الله ﷺ بكرًا، ولم يتزوج بكرًا غيرها.
- كانت أول من خيَّرها رسول الله ﷺ بين الحياة الدنيا وزينتها وبين الله ورسوله، فاختارت الله ورسوله على الفور.
- كانت أحب أزواج النبي ﷺ إليه.
- اختياره ﷺ أن يُمرَّض في بيتها.
- اجتماع ريقه ﷺ وريقها في آخر أنفاسه.

---

١. صحيح: أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في اللعب بالبنات (٤٩٣٣)، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٤٩٣١).

٢. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٦٣٢٠)، وأبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في السبق على الرجل (٢٥٨٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٠).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلا" (٣٤٦٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣٢٨).

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الهبة وفضلها، باب من أهدى إلى صاحبه وتحرى بعض نسائه دون بعض (٢٤٤٢).

٥. السيدة عائشة وتوثيقها للسنة، جيهان رفعت فوزي، مرجع سابق، ص١٦: ٢٦.

٦. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة رضي الله عنها (٣٥٥٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة (٦٤٥٢).

٧. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ عائشة وقدومها المدينة وبنائه بها (٣٦٨٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة (٦٤٣٦).

- قُبِضَ رسول الله ﷺ بين سَحْرِها[1] ونَحْرِها[2].
- وفاته ﷺ في يومها.
- دفنه ﷺ في بيتها.
- لم ينزل الوحي على رسول الله ﷺ وهو في لحاف امرأة من نسائه غيرها.
- رؤيتها لجبريل عليه السلام في صورة دِحْيَة الكلبي وسلم عليها.
- كان أبوها أحب الرجال إليه ﷺ وأعزهم عليه.
- أن أباها أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ.
- لم ينكح النبي ﷺ امرأة أبواها مهاجران - بلا خلاف - غيرها.
- كان الناس يتصدَّقون في هداياهم لرسول الله ﷺ يوم عائشة لعلمهم بمسرته بذلك.
- نزلت بسببها آية التيمم.
- لم ينزل بها أمر إلا جعل الله لها منه مخرجًا وللمسلمين بركة.
- كفر قاذفها بصريح القرآن الكريم في الآيات التي نزلت ببراءتها.
- وجوب محبتها على كل أحد.
- أن الأكابر من الصحابة كانوا إذا أُشكل عليهم الأمر في الدين استفتوها فيجدون علمه عندها.
- لم تَرْوِعن النبي ﷺ امرأة أكثر منها.
- أنها كانت تغضب فيترضاها ﷺ، ولم يثبت هذا لغيرها.
- كان يتبع ﷺ رضاها، كلعبها باللعب وقيامه لها لتنظر إلى الحبشة يلعبون.
- كان ﷺ يُقبِّلها وهو صائم، وتقول عنه: كان أملككم لإربه.
- كان إذا افتقدها تسمعه يناديها بـ "واعروساه".
- كان الرسول يناجي ربه في حبها، ويقول: "اللهم هذا قَسْمي فيما أملك، فلا تَلُمْني فيما تملك ولا أملك"[3][4].

فهذه هي السيدة عائشة حبيبة رسول الله ﷺ وهذه سيرتها لا يشوبها أي كدر، وهذه حياتها، حياة مملوءة بالتقوى، والورع، والابتعاد عن مواطن الشبهات، وتلك مكانتها عند رسول الله ﷺ وهي مكانة لم تحتلها غيرها من نساء النبي ﷺ حاشا خديجة.

أما محبتها للنبي ﷺ ووفاؤها له، فلا يحتاج إلى شواهد، ويكفي في ذلك غيرتها - رضي الله عنها - الشديدة عليه حتى من زوجته خديجة التي توفيت، بمجرد أنه ﷺ كان يثني عليها خيرًا، فهل من المنطقي أن من تحب زوجها وتعجب به ذلك الإعجاب الشديد تُبْدِلُهُ بمن هو أقل منه منزلة، خاصة بعد أن نالت من زوجها كل هذا الحب، وهذا التقدير الذي ليس في إمكان أحد أن يعطيه لها؟!! قد يقول بعضهم: إنها افتتنت بشباب صفوان، ولكن هل هذا السبب من القوة بحيث يجعلها تتنازل عن عقيدتها الدينية،

---

1. السَّحْر: ما لصق بالحلقوم أعلى البطن.
2. النَّحْر: موضع القِلادة.
3. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٥١٥٤)، والدارمي في سننه، كتاب النكاح، باب في القسمة بين النساء (٢٢٠٧)، وصحح إسناده حسين سليم أسد في تعليقات سنن الدارمي.
4. السيدة عائشة وتوثيقها للسنة، جيهان رفعت فوزي، مرجع سابق، ص٣٤، ٣٥ بتصرف.

وطبيعتها الشريفة، وطبائعها العربية، ومكانة أسرتها، ومكانتها عند رسول الله ﷺ، وتَنَسَاق مع رغبة طارئة وهي العفيفة النقية الطاهرة؟

هل تهدَّم كل ذلك الكيان الضخم الذي امتلأت به نفسها من الإيمان والإسلام، وفي الرسول ﷺ من الشباب والحيوية والنضارة ما يوازي شباب الدنيا كلها، فما أكثر الشباب في سنهم وهم شيوخ في قلوبهم وعواطفهم وحيويتهم[1]؟

لا شك أن امرأة مثل عائشة ـ رضي الله عنها ـ لا يمكن أن تقع في مثل هذا الفعل الشنيع، كما أن زوجًا كالنبي ﷺ فيه صفات لا تستطيع أي زوجة إلا أن ترتبط به أشد الارتباط، وأن تُخْلِص له كل الإخلاص، فما بالنا إذا كانت هذه الزوجة بمواصفات عائشة بنت أبي بكر، الصدِّيقة بنت الصدِّيق.

هذا من جانب؛ ومن جانب آخر فإن سيرة صفوان بن المعطَّل خير شاهد على أنه يستحيل أن يرتكب مثل هذه الجريمة، مع أي مسلمة فما بالنا بزوج النبي ﷺ وابنة أبي بكر الصديق ﷺ.

"فهو صفوان بن المعطَّل ﷺ السلمي الذكواني ـ نسبة إلى ذكوان ـ بن ثعلبة بن بهثة سليم، وذكوان بطن من بني سليم، وكان صحابيًّا فاضلًا، أول مشاهِده عند الواقدي الخندق، وعند ابن الكلبي المريسيع، وهناك ما يدل على تقدم إسلامه، وأنه قُتل شهيدًا في سبيل الله تعالى، وقد ذكر ابن إسحاق أنه استشهد في غزاة أرمينيَّة في خلافة عمر ﷺ سنة تسع عشرة، وقيل: بل عاش إلى سنة أربع وخمسين فاستشهد بأرض الروم في خلافة معاوية ﷺ.

أما عن سبب تأخر صفوان بن المعطل عن الجيش، فقد ورد ما يفيد أن سبب ذلك أنه سأل النبي ﷺ أن يجعله على الساقة، فكان إذا رحل الناس، يتبعهم فمن سقط منه شيء أتاه به، مثل القدح والإداوة وما شاكل ذلك" [2].

وبعد حادثة الإفك تبدَّت بعض فضائل صفوان بن المعطل ويمكننا توضيحها كالآتي:

- **شهادة النبي ﷺ بما شهد له من قوله**: "ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي". فهذه الشهادة من النبي ﷺ لصفوان تُوزَنُ بكل ما طلعت عليه الشمس، وتسطَّر بصحائف من نور، وتُكتب بماء الذهب في حق هذا الصحابي الجليل ﷺ.
- **استرجاعه**: أي قوله لما رآها: "إنا لله وإنا إليه راجعون". قال ابن حجر: قوله: فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، أي: بقوله: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، وصرَّح بها ابن إسحاق في روايته، وكأنه شقَّ عليه ما جرى لعائشة، أو خشي أن يقع ما وقع، أو أنه اكتفى بالاسترجاع رفعًا بها صوته عن مخاطبتها بكلام آخر، صيانة لها عن المخاطبة في الجملة، وقد كان في هذا أمران:

الأول: هذا يدُلُّك على فطنة صفوان ﷺ وحسن أدبه، وهذا مثال المرء المسلم.

---

١. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق، ص٨٣ بتصرف يسير.

٢. حديث الإفك: دروس وعبر، د. عامر حسين السلامي، مرجع سابق، ص٣١٨.

الثاني: شعور المسلم بشعور غيره من المسلمين، وفي هذا قتل لروح الأنا، انطلاقًا إلى فسحة الإيثار والأخوة الإسلامية؛ لأنهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعَى له سائر الجسد بالسهر والحُمَّى.

- **عفته** ﷺ: وبرز في هذا الحديث من خلال قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ: "والله، إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول: سبحان الله، فوالذي نفسي بيده، ما كشفت عن كنف أنثى قط"[1]، أي: لم يزنِ بامرأة قط.

- **حُسنُ أدبه مع المرأة الأجنبية، وغَضُّ بصره:** قالت السيدة عائشة عنه: "والله ما كلمني كلمة"، وفي هذا: "حسن الأدب مع الأجنبيات لا سيما في الخلوة بهن عند الضرورة في البريِّة، أو غيرها، كما فعل صفوان من إبراكه الجملَ مِنْ غير كلام، ولا سؤال، وإنه ينبغي أن يمشي قُدَّامها لا بجنبها، ولا وراءها".

فائدة: قال ابن حجر: "وقد فهم كثير من الشرَّاح أنها أرادت بهذه العبارة نفي المكالمة ألبتة، فقالوا: استعمل معها الصمت، اكتفاء بقرائن الحال، مبالغة منه في الأدب، وإعظامًا لها وإجلالًا"[2].

ودليل ذلك ما رواه عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: "فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخَمَّرت[3] وجهي بجلبابي، ووالله، ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يدها فقمتُ إليها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش"[4].

وهذا الأدب من صفوان ﷺ إنما منبعه تلك التربية الربانية التي تلقاها من كتاب الله ﷻ ومن هدي النبي ﷺ. قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الإسراء)، وقال ﷻ: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ (غافر)، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ (الفجر)[5].

- خلق الإيثار: ومما يدلل على فضل صفوان ﷺ ذلك الخلق العظيم، خلق الإيثار. واستنبط النووي منه حكمًا فقال: "استحباب الإيثار بالركوب، ونحوه كما فعل صفوان".

وخلق الإيثار لا يتصف به إلا من كَمُل إيمانه؛ لأنه صار يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، بل ذهب إلى أبعد من هذا، إذ آثر أخاه بما تحبه نفسه، وتميل إليه.

لذلك مدح الله قومًا يتصفون بهذه الصفة فقال: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩)، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ (الإنسان).

- خُلُق التعاون، ومساعدة الآخرين: وهذا ما

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك (٣٩١٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٧١٩٨).

٢. فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ج٨، ص٣١٨.

٣. خَمَّر: أخفى.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك (٣٩١٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٧١٦٩).

٥. حديث الإفك: دروس وعبر، د. عامر حسين السلامي، مرجع سابق، ص٣١٩، ٣٢٠.

ظهر جليًّا من تصرف صفوان ﷺ مع عائشة ـ رضي الله عنها ـ إذ إنه أعانها وهي ملهوفة، وأغاثها وهي منقطعة، وأنقذها إذ هي ضائعة.

وهذا الأمر العظيم جدير أن يُجعل من ميزات وفضائل المرء إذا ما فعله؛ لأنه يعبِّر عن صلاحه، وعن حبه للآخرين؛ إذ إن مثل هذه الأمور من الواجبات الكفائية، التي إذا ما قام بها البعض، سقط الإثم عن الباقين، كما أن مثل هذه الأمور من حقوق الأخوَّة الإسلامية، قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ (المائدة)[1].

ومما سبق يتبين لنا أن سيرة الصحابي الجليل صفوان بن المعطل ﷺ سيرة نقية لا تستدعي الشك في أخلاقه، فلم يُعرف عنه سوء قط، وكان رجلًا مؤمنًا بالرسول ﷺ ودعوته وغيورًا على الإسلام، فجاهد وحضر كثيرًا من الغزوات ومات شهيدًا في الدفاع عن الإسلام ونشر دعوته.

فليس من المعقول ـ وهو بهذه الصفات والأخلاق ـ أن يتجرَّأ على زوج النبي ﷺ وبنت الصدِّيق، التي كان أبوها يحمل راية المهاجرين في غزوة بني المصطلق، التي حدثت فيها هذه الحادثة.

وما كانت نفسه لتسمح له بمجرد التفكير فيها بسوء، حتى ولو سمحت نفسه بذلك ـ وهو شيء لم يكن ـ فإن مهابة السيدة عائشة ومكانتها من الرسول ﷺ لَتحُولُ دون ذلك.

ثم إننا في النهاية نود أن نسأل هؤلاء الأذكياء الذين يرمون أم المؤمنين عائشة بالفاحشة مع صفوان بن المعطل، لو أرادت عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن تفعل أي شيء مع صفوان بن المعطل السلمي، هل كان يتم ذلك بجوار معسكر الرسول ﷺ، وجميع الصحابة موجودون، والجيش الإسلامي موجود، ويمكن أن يراهما بعض هؤلاء؟ ثم هل يمكن أن يحدث أي شيء بين عائشة وصفوان، ثم يدخل معها المدينة وسط النهار، والشمس ساطعة، والكل يراها وهي تركب على ظهر البعير، وصفوان يقود البعير ويسير على قدمه أمام كل الناس في المدينة حتى تدخل منزلها، وهو منزل الرسول ﷺ ثم بعد ذلك ينصرف صفوان بن المعطل إلى منزله؟ أم أن الأقرب للعقل أن لو كان حدث شيء ما بين عائشة وصفوان لكانت عائشة تدخل المدينة وحدها، وصفوان يدخل المدينة من مكان آخر وبعد مدة من دخول عائشة للمدينة، أمَّا أن يوصلها صفوان بنفسه إلى منزل الرسول ﷺ في وضح النهار أمام كل أهالي المدينة فذلك أكبر دليل على براءة السيدة عائشة[2].

ثالثًا. لم يكن الوحي الإلهي شعورًا ينبثق من كيان النبي ﷺ، خاضعًا لإرادته:

لما أرجف المنافقون بحديث الإفك في حق عائشة ـ رضي الله عنها ـ أبطأ الوحي، وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو ﷺ لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفُّظٍ واحتراس: "إني لا أعلم عنها إلا خيرًا"، ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحرِّي

---

1. المرجع السابق، ص٣١٨: ٣٢٧.

2. محمد والخناجر المسمومة الموجهة إليه، د. نبيل لوقا بباوي، مرجع سابق، ص٦٥ بتصرف.

والسؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله والكل يقول: ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: "يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله"[1].

فهذا كلامه بوحي ضميره، وهو كما نرى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصدِّيق المتثبِّت الذي لا يتبع الظن، ولا يقول ما ليس له به علم، على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلنًا براءتها، ومُصدِرًا الحكمَ المبرَمَ بشرفها، وطهارتها.

فماذا كان يمنعه ﷺ ـ لو أن أَمْرَ القرآن إليه ـ أن يُصْدِر هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه، ويذُبُّ بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي السماوي لتنقطع ألسنة المتخرِّصين، ولكنه ما كان لِيذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (47)﴾ (الحاقة)[2].

ولقد كانت السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ أول من تجلَّت لها الحقائق، حتى ذهبت في توحيدها وعبوديتها لله وحده مذهبًا أنساها ما سواه ومن سواه؛ فلذلك أجابت أمها حين طلبت إليها أن تقوم فتشكر النبي ﷺ قائلة: "لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي"[3].

هذا الكلام من السيدة عائشة قد يبدو وكأن فيه شيئًا من عدم اللياقة تجاه النبي ﷺ غير أن الظروف والحالة، هما اللذان أمليا عليها هذا الكلام، فهي إنما انساقت بوحي الحالة التي كونتها الحكمة الإلهية تثبيتًا لعقيدة المؤمنين وقطعًا لإفك المنافقين الملحدين، وإظهارًا لمعنى التوحيد والعبودية الشاملة لله وحده[4].

فبراءة عائشة ـ رضي الله عنها ـ أصبحت قرآنًا يُتلَى، يتحدى الإنس والجن إلى قيام الساعة، وهذا هو دأب أعداء الفضيلة، ليس مع نبينا فقط، بل ومع أنبيائهم، وكل من يدعو إلى فضيلة وينهى عن رذيلة سوف يناله منهم أذى كثير؛ وهذا ما أخبرنا به القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (186)﴾ (آل عمران).

فالأذى لا ينتهي، وسخافاتهم لا تتوقف، وقد شاء ربك أن يتكفَّل بالرد عليهم، فأنزل براءة عائشة في آيات قرآنية، ثم تحداهم بتلك الآيات، ولا يزال التحدي قائمًا، ومن الغريب أن القرآن الكريم اعتبر الطعن في أم المؤمنين عائشة خيرًا للمسلمين، وقد اتضح لنا ذلك عندما شاهدنا من خلف حِفْنَة المنافقين

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك (3910)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (7196).
2. النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط9، 1426هـ/ 2005م، ص53.
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث الإفك (3910)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (7196).
4. فقه السيرة، د. محمد سعيد البوطي، مرجع سابق، ص223، 224 بتصرف يسير.

طوابير لا تنتهي من المنصِّرين، فَلْتُحْسَم المسألة بكلمة ربك صدقًا وعدلًا، ولتكُن براءة أم المؤمنين في قرآن يُتلى يتحدى المفترين، ويتعبَّد به المسلم لله رب العالمين .

فقضية الافتراء الكبرى على أمّ المؤمنين قد حسمها الله ﷻ من فوق سبع سماوات[1].

وقد برَّأ الله أربعة بأربعة؛ برَّأ يوسف بلسان الشاهد: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ (يوسف: ٢٦)، وبرَّأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرَّأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حِجْرها، وهذا ما حكاه القرآن على لسان نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ (مريم)، وبرَّأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز هذه التبرئة بهذه المبالغات.

فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة النبي، وليتأمل كيف غضب الله له في حرمته، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابه[2].

وفي النهاية فإننا لا نملك إلا أن نعتذر لأم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ الحصان الرزان، الصدِّيقة بنت الصدِّيق حبيبة رسول الله، وزوجته في الدنيا والآخرة، عما قاله هؤلاء المنافقون وأذنابهم، في كل زمان ومكان، كما اعتذر لها حسان بن ثابت رضي الله عنه بهذه الأبيات ويمدحها بما هي أهله:

١. الرد على القس بوش في كتابه "محمد مؤسس الدين الإسلامي"، د. عبد الرحمن جيرة، مرجع سابق، ص٣١٠ وما بعدها.

٢. الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، بيروت، د. ت، ج٣، ص٥٧ بتصرف.

حَصَانٌ[3] رَزانٌ[4] ما تُزَنُّ[5] بِريبَة
وتُصبِح غَرْثَى[6] من لُحومِ الغَوافِلِ[7]

عَقِيلَةُ[8] حيٍّ من لُؤَيِّ بن غالبِ
كرامِ المساعي مجدُهم غيرُ زائلِ

مُهَذَّبةٌ قد طيَّبَ الله خِيمَها[9]
وطَهَّرَها من كلِّ سوءٍ وباطلِ

حَلِيلَةُ[10] خيرِ الخلقِ دينًا ومنصبًا
نبي الهُدى والمَكْرُماتِ الفواضلِ

رأيتُكِ ـ ولْيَغْفِرْ لكِ الله ـ حُرَّةً من
المحصناتِ غيرِ ذاتِ غوائلِ[11]

وإنَّ الذي قد قيل ليس بلائقٍ
بِكِ الدهرَ بل قولُ امرِئٍ مُتَناحلِ[12]

الخلاصة:

- إن حادث الإفك من أعظم المصائب التي أعدَّها المنافقون للرسول فكانت أبلغ من غيرها في إيذائه ﷺ؛ لأن كل ما كابده قبل ذلك من المحن كانت أمورًا يستعلي عليها، فقد وطَّن نفسه لقبولها وتحمُّلِها، وليس التقاؤه بها في طريق الدعوة مفاجأة له، أما هذه فقد فوجئ بها؛ لأنها ليست مما قد اعتاده أو توقعه.

٣. الحَصان: العفيفة.

٤. الرَّزان: العاقلة.

٥. تُزَنُّ: تُرمَى وتُتَّهم.

٦. غَرْثَى: جَوعَى، والمعنى: لا تغتاب أحد.

٧. الغَوافِل: جمع غافلة، أي: عن الشر والإثم.

٨. العَقِيلة: الكريمة.

٩. الخِيم: الأصل.

١٠. الحَلِيلة: الزوجة.

١١. الغَوائِل: المفاسد والشرور، جمع غائلة.

١٢. المتناحِل: المدَّعي.

• إن سيرة السيدة عائشة وصفوان بن المعطل تكذِّب ما يدَّعيه المغرضون؛ فالسيدة عائشة هي الصدِّيقة بنت الصدِّيق، وكانت ـ رضي الله عنها ـ أحب أزواج النبي ﷺ إليه، ومن خيار نساء الدنيا على الإطلاق، لما لها من مزايا عظيمة، وفضائل كثيرة، وإيمان راسخ، وزهد وأدب، وذكاء مفرط.

• أما صفوان بن المعطل رضي الله عنه فكان صحابيًّا فاضلًا، وكانت له فضائل ظاهرة، وقد شهد له رسول الله ﷺ في قوله: "ولقد ذكروا رجلًا ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي"، فسيرته لا تستدعي الشك، ولم يُذكر بسوء قط، بل إنه كان مؤمنًا بالرسول ﷺ وبدعوته، غيورًا على الإسلام، فجاهد وحضر كثيرًا من الغزوات ومات شهيدًا.

فاحترامه لزوج النبي ﷺ وبنت الصدِّيق التي كان أبوها يحمل راية المهاجرين في الغزوة نفسها كانت أعظم من أن تسمح له بالتفكير فيها.

• لم يستغل النبي ﷺ حادث الإفك لشحن القرآن الكريم بخصوصياته ـ كما يزعمون ـ؛ لأن القرآن كلام الله تبارك وتعالى، ولا يخضع لإرادة رسول الله ﷺ ولو كان الأمر كذلك لتقوَّل هذه الآيات منذ البداية، وَوَأد هذه الفتنة في مهدها، ولكنه الصادق الأمين الذي ما كان لِيَذَر الكذب على الناس، ثم يكذب على الله تبارك وتعالى، فَتَولَّى الله تبارك وتعالى الدفاع عن عِرْضِهِ الشريف في آيات تُتلى إلى يوم الدين، وبهذا يفسد قولهم وتبطل شبهتهم.



الشبهة الرابعة عشرة

الزعم أنه ﷺ خان أمهات المؤمنين في بيت السيدة حفصة(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض الطاعنين أنه ﷺ خان أمهات المؤمنين في بيت السيدة حفصة ـ رضي الله عنها ـ حين أصاب[1] مارية القبطية ـ وهي سُرِّيته ـ في بيت السيدة حفصة، وفي يومها، ويتوهمون أن في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ (التحريم: ١) ما يدل على زعمهم هذا. كما يستدلون على هذا بروايات منها: أن الرسول ﷺ عندما أصاب مارية القبطية "أم إبراهيم" في بيت حفصة، غضبت السيدة حفصة، وقالت: أي رسول الله في بيتي، وفي يومي وعلى فراشي؟! فقال ﷺ: "ألا ترضَين أن أحرِّمها عليَّ فلا أقربها". فقالت: "أي رسول الله! كيف يُحَرَّم عليك الحلال، فحلف بالله ألا يصيبها". ويتساءلون: أليس هذا الذي فعله محمد خيانةً لحفصة وباقي زوجاته ؟!

وجوه إبطال الشبهة:

١) لم يكن الرسول ﷺ بدعًا من الرسل في ظاهرة التسري، فقد كانت السيدة مارية القبطية سُرِّيته (ملك يمينه) كما كانت السيدة هاجر سُرِّية إبراهيم عليه السلام، وكان لسيدنا سليمان ـ كما يُروى ـ ثلاثمائة سُرِّية ونخلص من هذا إلى أن التسري كان شيئًا معروفًا لا ينكره أحد.

٢) إن قول السيدة حفصة ـ رضي الله عنها ـ: "في

(*) شبهات وردود حول الرسول الكريم. موقع ابن مريم.
www.ebnmaryam.com

١. أصاب: جَامَعَ.

يومي، وفي بيتي، وعلى فراشي" يدل على أن الاستنكار لم يكن من باب الخيانة؛ لأنها تعلم أنها حلال له؛ لذلك قالت: "كيف يحرِّم عليك الحلال؟!" وإنما كان ذلك من باب غيرة النساء، وهذه طبيعتهن.

٣) كان عتاب الله ﷻ لنبيه ﷺ في هذه الآية عتاب تكريم وإجلال له وتخفيف؛ لذلك بدأها المولى بقوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.

٤) لقد حرَّم الرسول ﷺ مارية على نفسه إرضاءً لزوجاته، وكان هذا من طبيعة خُلُقه الكريم، حتى يُذْهِبَ حفيظتهن، إلى أن خفَّف الله عنه بقوله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾، وهذا يدل على سمو أخلاق النبي ﷺ، وطيب عشرته لا خيانته لهن.

التفصيل:

أولا. مارية القبطية هي سُرِّيَّة النبي ﷺ وملك يمينه، ولم يكن النبي بدعًا في ذلك:

كانت مارية هدية المقوقس عظيم مصر لرسول الله ﷺ، أرسلها مع رسوله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة، فجاءت مع أختها سيرين وعبدٍ خَصِي، كما أهدى للنبي ﷺ ألف مثقال ذهبًا، وعشرين ثوبًا لينًا من نسيج مصر... وبلغ الركب المدينة المنورة، وفي نفس الشقيقتين ألم الفراق والغربة.

وأخذ النبي ﷺ مارية القبطية من الهدايا، ووهب أختها لشاعره حسان بن ثابت[1].

ذكر ابن سعد عن عائشة أنها قالت: "ما غِرت على امرأة إلا دون ما غِرتُ على مارية، وذلك أنها جَعْدةٌ[2] جميلة، فأعجب بها النبي ﷺ، وكان قد أنزلها أولًا بجوارنا، فكان عامة الليل والنهار عندها، ثم حوَّلها إلى العالية، وكان يختلف إليها هناك، فكان ذلك أشد علينا".

وكان النبي ﷺ يطأ مارية بملك اليمين، وضرب عليها مع ذلك الحجاب، فحملت منه، ووضعت إبراهيم في ذي الحجة سنة ثمان، وبعد موت النبي ﷺ، كان أبو بكر ينفق عليها، ثم بعده عمر، حتى تُوفِّيت في خلافته سنة خمس عشرة أو ست عشرة، وصلَّى عليها ودفنها بالبقيع[3].

ولبيان أنه لا بغاء في التسرِّي، نذكر أن التسري في اللغة: اتخاذ السُّرِّيَّة، يقال: تسرَّى الرجل جاريته، وتسرى بها واستسرها: إذا اتخذها سرية، وهي الأمة المملوكة يتخذها سيدها للجماع، وهي في الأصل منسوبة إلى السر بمعنى الجماع، وقيل: هي من السرِّ بمعنى الإخفاء؛ لأن الرجال كثيرًا ما كانوا يتخذون السراري سرًّا، ويخفونهن عن زوجاتهم الحرائر، وقيل: هي من السُّر بالضم بمعنى السرور؛ لأنها موضع سرور الرجل، ولأنه يجعلها في حالة تَسُرُّها من دون سائر جواريه[4].

والتسري جائز في الإسلام، بالكتاب والسنة والإجماع، إذا تمت شروطه، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ

---

١. الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، مرجع سابق، ص٢٧١ بتصرف.

٢. جَعْدَة: مستديرة الوجه مع قلة لحمه.

٣. موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مرجع سابق، ج٦، ص٢٢٤، ٢٢٥ بتصرف.

٤. الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويتية، مرجع سابق، ج١١، ص٢٩٤.

لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾ (المؤمنون)، وقد تسرَّى النبي ﷺ وكذلك الصحابة.

وليس معنى هذا أن الإسلام هو الذي ابتدع هذا النظام، فقد كان معروفًا في معظم الأمم السابقة، وعرفته الأديان قبل الإسلام، فقد ورد أن الخليل إبراهيم عليه السلام تسرَّى بهاجر التي وهبه إياها ملك مصر، فولدت له إسماعيل عليه السلام، وقيل: إنه كان لسليمان عليه السلام ثلاثمائة سرية، وقد عرف العرب الجاهليون التسري أيضًا.

ولكن الإسلام الذي يحمل لواءه سيد المرسلين محمد ﷺ قيَّد هذا الأمر، ووضع له شروطًا؛ ضمانًا لسلامة المجتمع، وهي كالآتي:

الشرط الأول: الملك؛ فلا يحل لرجل أن يطأ امرأة في غير زواج، إلا بأن يكون مالكًا لها، لقوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ (المؤمنون).

الشرط الثاني: أن تكون الجارية مسلمة أو كتابية إذا كان المتسرِّي مسلمًا.

الشرط الثالث: أن لا تكون ممن يُحرَّمْن مؤبدًا، أو مؤقتًا، وأن لا تكون زوجة غيره أو معتدَّته أو مُسْتَبْرَأته، ما عدا التحريم من حيث العدد[1].

ومن تلك الشروط نجد أن الرسول ﷺ لم يقع في الخطأ أو الخيانة، كما يزعم الطاعنون، بل إن مارية كانت ملك يمينه، فهي حلال له كسائر زوجاته، له أن يجامعها، وله حقوق الزوج عليها. ورغم أن مارية القبطية كانت سُرِّيَّة النبي ﷺ، فقد اتخذ مسلكًا شرعيًّا لإباحتها لنفسه، وذلك لِيُعِفَّها.

وقد أتاح الشرع الإسلامي الحنيف لمن لم يستطع أن يتزوج امرأة حرة لفقره، أن يتزوج أَمَةً من الإماء على صداق يسير، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ (النساء: ٢٥).

وبهذا يتحوَّل الحق من السيد للزوج؛ لأنه بمحض إرادته حَوَّلَ حَقَّهُ لغيره على صداقٍ يسيرٍ قد ناله.

وبناءً على ذلك فإن أمثال هؤلاء الإماء من المحصنات، قد حرَّمهن النص القرآني على كل أحد غير أزواجهن، قال تبارك وتعالى: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ (النساء: ٢٥).

أما أن يتمتع بهن السيد نفسه، فذلك على ثلاثة أوجه:

- أن يتمتع بها السيد على أنها ملك يمين، وهو قيد من قيود الزواج.
- أن يعتق السيد جاريته، ثم يتزوجها، ويعتبر العتق صداقها.
- أن يعتقها، ثم يتزوجها على صداق جديد.

وقد آثر النبي ﷺ الثاني والثالث من هذه الوجوه، وحث عليهما المسلمين في العديد من الأحاديث، يقول الرسول ﷺ: "أيما رجل كانت عنده وليدة - أي أمة - فعلَّمها فأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، ثم

١. المرجع السابق، ص٢٩٧، ٢٩٨ بتصرف.

أعتقها، وتزوجها فله أجران"[1].

ويقول النبي ﷺ عن النوع الثالث: "إذا أعتق الرجل أمته، ثم أمهرها مهرًا جديدًا، كان له أجران"[2].

ومن ثم فإن ظاهرة اتخاذ السراري. كانت معروفة في المجتمعات الإنسانية، ولا تُنكر ولا تعد مقارفتها خيانة للزوجات، وحاشاه ﷺ أن يفعل أمرًا مشبوهًا، أو يُخل بعهد الله وعصمته®.

ثانيًا. إن قول حفصة "في يومي وفي بيتي، وعلى فراشي" يدل على أن الاستنكار لم يكن للخيانة:

إن قول حفصة ـ رضي الله عنها ـ للنبي ﷺ: " في بيتي وفي يومي وعلى فراشي"[3]. لم يكن استنكارًا لخيانة، وإنما كان لمجامعته ﷺ مارية في بيتها وليلتها، وهذا من غيرة النساء، ولم تَخْلُ نساء النبي ﷺ من الغيرة، شأنهن في ذلك شأن جميع النساء.

وإن الحديث الذي دار بينها وبين الرسول ﷺ، عندما دخلت عليه ﷺ وعلى مارية القبطية ليؤكد هذه الغيرة. فقد روى الدارقطني عن ابن عباس عن عمر قال: دخل رسول الله بأم ولده مارية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها ـ وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها ـ فقالت له: تُدخلها بيتي! ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك. فقال لها: "لا تذكري هذا لعائشة، فهي عليَّ حرام إن قربتها"، قالت حفصة: "وكيف تحرَّم عليك وهي جاريتك" فحلف لها ألا يقربها[4][5].

وبقول حفصة يتأكد أن مارية كانت حلالًا للنبي ﷺ، ولم تكن تلك خيانة كما يزعم الطاعنون، وبهذا يبطل قولهم المزعوم.

ومما يدل أيضًا على أنه ﷺ لم يخن السيدة حفصة، ما ورد أنه ﷺ: "كفَّر عن يمينه وأصاب جاريته"، وهذا دليل على أنها كانت حلالًا له قبل الحادثة وبعدها، ويؤكده قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ (التحريم).

فامتناع الرسول ﷺ عن مارية كان بسبب اليمين التي تقدَّمَتْ منه، وهو قوله: "والله لا أقربها بعد اليوم".

فقيل له: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾؛ أي لِـمَ تمتنعُ منه بسبب يمين، يعني: أَقْدِمْ عليه وكَفِّر، وعلى هذا فهي يمين يكفِّرها؛ قاله أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، و السيدة عائشة رضي الله عنها والأوزاعي.

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: "إذا حرَّم الرجل

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب اتخاذ السراري ومن أعتق جاريته ثم تزوجها (٧٤٩٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس (٤٠٤).

٢. إسناده صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند الكوفيين، حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه (١٩٦٧٣)، والطيالسي في مسنده، أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه رضي الله عنهما (٥٠١)، وصحح إسناده شعيب الأرنؤوط في تعليقات مسند أحمد.

® في "سراري النبي ﷺ" طالع: الوجه الأول، من الشبهة الثامنة، من هذا الجزء.

٣. أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم (٢٣١٦)، والدارقطني في سننه، كتاب النكاح، كتاب الطلاق والخلع والإيلاء وغيره (١٢٢).

٤. أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، باب من اسمه إبراهيم (٢٣١٦)، والدارقطني في سننه، كتاب النكاح، كتاب الطلاق والخلع والإيلاء وغيره (١٢٢).

٥. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج ١٨، ص١٧٨، ١٧٩ بتصرف.

عليه امرأته، فإنما هي يمين يكفرها، وقال ابن عباس: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة"[1]. يعني أن النبي ﷺ كان حَرَّم جاريته، فقال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ (التحريم)، فكفَّر عن يمينه، وصيَّر الحرام يمينًا[2].

ثالثًا. إن هذه الآية التي استدلوا بها بمنزلة عتاب من الله ﷻ لنبيه ﷺ، وهو عتاب تكريم، وإجلال، وتسرية له ﷺ:

لقد بدأ الله عتابه لنبيه ﷺ بقوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾. يقول المفسرون: إن التحريم منه ﷺ كان امتناعًا عن العسل[3]، أو عن مارية، وهو امتناع أكَّده باليمين، مع اعتقاد حِلِّه؛ ولذا نزلت الآيات، وفيها الحث على التحلُّل من يمينه، والتكفير عنه، قال ﷻ: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ وهذا المقدار مباح، والمباحات جائز وقوعها من الأنبياء، وليس فيها قدح في عصمتهم.

وإنما قيل له ﷺ: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ رفقًا به، وشفقة عليه، وتنويهًا بقدره، بحيث لا يجب أن يُضَيِّق على نفسه في سبيل إرضاء أي شخص، فيكون معنى الآية على هذا - وقد صُدِّرت بندائه بوصف النبوة تشريفًا لمكانته، وتعظيمًا لمقامه - يا أيها النبي لم تمنع نفسك وتحرمها من الاستمتاع بما أحله الله لك، مما لك فيه رغبة، ومتعة وسرور، تبتغي بذلك مرضاة أزواجك، وهن أحق أن يَسْعَيْن في رضاك ليسعَدْن؟!

على أن القيد المتمثل في قول تعالى: ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ هو محط العتاب في الحقيقة، وليس مجرد منعه ﷺ نفسه من المتعة بالمباح محلًّا للعتاب؛ لأنه ﷺ كثيرًا ما منع نفسه من بعض المباحات، ولم يعاتبه الله تعالى على شيء من ذلك كله.

ومن ثم فإن في قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ مِنَّة وتعظيم من الله تعالى لرسوله ﷺ برفع الحرج عنه في الامتناع عن شيء ليُرضي أزواجه؛ إذ هُنَّ وسائر المؤمنين أحق أن يسعوا في مرضاته ليسعدن، قال ﷻ: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾ (طه).

فتأمل كيف أن النبي أُمِرَ بالصلاة ليرضى هو، لا ليكفِّر الله عنه سيئاته، ولا ليرضى عليه، وحينئذ فلا كُلفة عليه فيها؛ لأن فيها شهوده لربه الذي هو قرة عينه، كما قال ﷺ: "وجُعلت قرة عيني في الصلاة"[4]، فانظر إلى هذا الخطاب اللطيف المشعِر بأنه ﷺ حبيب الله ﷻ، وأفضل الخلق أجمعين، حيث قال له ربه:

1. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولو ينو الطلاق (٣٧٥٠).
2. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ج١٨، ص١٨٠، ١٨١.
3. لما ورد في شأن العسل من أن النبي ﷺ قال: "فلن أعود له وقد حلفت". {أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ (التحريم: ١) (٤٦٢٨)}، وهو امتناع أكده باليمين، مع اعتقاد حِلِّه.
4. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ (١٤٠٦٩)، والنسائي في سننه، كتاب عشرة النساء، باب حب النساء (٣٩٤٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٩١).

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾، ولم يقل: لعلِّي أرضى عنك، ونحو ذلك. فتأمل هذا الخطاب، وقارنه بخطاب موسى عليه السلام لربه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾﴾ (طه).

وهذه المسارعة في مرضاته ﷺ لاحظتها أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - لما أنزل الله عز وجل: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ۖ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ (الأحزاب: ٥١). قالت عائشة: قلت: "ما أرى ربك إلا يسارع في هواك" [1]. أي: ما أرى الله إلا مُوجدًا لما تريد بلا تأخير، منزِّلًا لما تحب وتختار وترضى، وإنما جاء التعبير بالهوى هنا بدافع الغيرة، وحاشاها - رضي الله عنها - أن تعني حقيقة اللفظ!

وبعد، أليس فيما سبق تأكيد لما في آية التحريم من مِنَّة وتكريم وتعظيم لرسول الله ﷺ، وشفقةٍ عليه، ورفقٍ به، بحيث لا يجب عليه أن يمتنع عن شيء مباح له من أجل مرضاة أزواجه، إذ هن وسائر الأمة كافة أحق أن يسعوا في مرضاته ﷺ ليسعدن في الدنيا والآخرة؟! وإذا افتُرض أن في الآية إنكارًا عليه، ودليلًا على أنه صدر منه ذنب - عصمه الله من ذلك - فقوله عز وجل في ختام الآية: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يدل على حصول الغفران، وبعد حصول الغفران يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه، بمعنى: أنه يمتنع أن يقال إن قوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ دليل على كون الرسول ﷺ مذنبًا، وإذا صح أن في الآية عتابًا، فهو وارد بأحسن ما يكون العتاب من تعظيم المولى عز وجل لنبيه ﷺ، حيث ناداه وخاطبه في هذا المقام بوصف النبوة في أكثر من موطن في القصة، بدأ أولها بقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ (التحريم: ٣)، ولكن أنَّى يكون العتاب؟ وأنى يصح افتراضه، مع ما ورد في القصة من قوله عز وجل: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم: ٤).

إن في الآية بيانًا لمن أذنب، ولمن يستحق العتاب والتأديب، من نسائه اللائي تظاهرن عليه ﷺ، وأفشين سرَّه، إنهن بذلك آذين رسول الله ﷺ، والتوبة من ذلك واجبة في حقهن؛ لأن قلوبهن قد مالت عن الحق، كما تدل عليه قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: "زاغت قلوبكما"، وعلى هذا فإن قوله عز وجل: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ليس جواب الشرط، وإنما هو دليله وتعليله.

والمعنى على هذا: إن تتوبا إلى الله، وترجعا عن مغاضبة رسول الله ﷺ، وإيذائه بالتظاهر عليه، وإفشاء سره، فالتوبة حق وواجب عليكما؛ لأن قلوبكما قد زاغت ومالت عن الحق في مغاضبة رسول الله ﷺ وإيذائه.

ويمكن أن تُحمل الآية على فهم آخر، يأتي من حمل قوله عز وجل: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ على معنى: أنها مالت إلى الحق، وهو ما وجب من مجانبة ما يسخط رسول الله، وندمت على ما كان منها، من مغاضبته ﷺ وإيذائه.

والمعنى على هذا: إن تتوبا إلى الله، وترجعا عن مغاضبة النبي ﷺ، وتندما على ما كان منكما، فقد مالت قلوبكما إلى الحق، ومصالحة النبي ﷺ ومرضاته، وأن ما كان منكما من مغاضبة، وإيذاء لم يكن صادرًا عن قلوبكما، وإنما هو فورة غضب، ونار غيرة.

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب هل للمرأة أن تهب نفسها لأحد (٤٨٢٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب جواز هبتها نوبتها لضرتها (٣٧٠٤).

ويؤكد هذا قول الله تعالى: ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ ﴾ (التحريم: ٤)، أي: إن استمررتما على المغاضبة، والإيذاء، وتعاونتما عليه ﷺ، فإن الله ناصره بقوته القاهرة، وخواص ملائكته، وعامتهم، وصالح المؤمنين، وهذا كالمقابل لقوله: ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا ﴾.

ثم تلطَّف الله تعالى بنبيه ﷺ إظهارًا لحفاوته به، وإعلاء لمقامه، بما زاد في تأديب الزوجات الطاهرات، متمشيًا مع أسلوب الزجر والتهديد، فقال: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٍ مُّؤۡمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارًا (٥) ﴾ (التحريم)؛ أي: جامعات للكمال في إسعاده ﷺ حسًّا ومعنى، فلا يعصين له أمرًا، ولا يخالفن له نهيًا، ويعملن على إسعاده، وإدخال السرور عليه، بما يفرغ قلبه من حمل أثقال الزوجية إلى القيام بواجبه الأعظم، وهو تبليغ رسالته، وتعليم أمته، وإعطاؤها الأسوة الحسنة به، لتكون كما أرادها الله تعالى خير أمة أخرجت للناس.

وكل ما سبق تأكيد على أن قوله ﷻ: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ ليس إنكارًا عليه، ولا عتابًا له على ذنب، بل تكريم له وتعظيم على نحو ما سبق في قوله ﷻ: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾ (التوبة: ٤٣)، ونحو ما يقول الإنسان منا لعزيز عليه ضيَّق على نفسه في شيء: والله حرام عليك فعل كذا، والمراد: إظهار مكانته، وفضله، وشرفه، إذ كيف يفعل هذا الأمر، الذي فيه مشقة عليه، مع عظم مكانته، والمراد: "حرام عليك ظلم نفسك"، وليس المراد تأثيم المخاطب المعظَّم بنحو هذه العبارة، وغاية ما يمكن أن يُدَّعى في قوله ﷻ: ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ أن تكون دالة على أنه ﷺ ترك الأولى، والأفضل بالنسبة لمقامه العظيم، وتَرْكُ الأَوْلَى في المباح ليس بذنب في حقه[1].

وهكذا نجد أن الدليل الذي يستدل به الطاعنون ما هو إلا ردٌّ عليهم وتفنيد لشبهتهم، إذ كيف يدافع الله ﷻ عن حقوق نبيه، ويعظمه وهو خائن®؟!

رابعًا. الرسول ﷺ حرَّمَ مارية القبطية إرضاءً لزوجاته، وإذهابًا لحفيظتهن، وما ذلك إلا لسمو أخلاقه ﷺ:

لقد كان امتناع الرسول ﷺ مما أحله الله له إرضاء لأزواجه، كان لما عهد فيه من الحنو على زوجاته، والتلطف في معاملتهن، وتحمل ما يشقُّ على نفسه في سبيل راحتهن، ويدل على ذلك:

ما جاء عن ابن عباس عن عمر - رضي الله عنهما - قال: "والله إن كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل، وقسم لهن ما قسم، قال: فبينا أنا في أمر أتأمره، إذ قالت امرأتي: لو صنعت كذا وكذا، قال: فقلت لها: مالك ولما هاهنا ؟! فيما تكلُّفك في أمر أريده؟! فقالت لي: عجبًا لك يا ابن الخطاب، ما تريد أن تُراجَعَ أنت، وإن ابنتك لتراجِعُ رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان. فقام عمر فأخذ رداءَهُ مكانَهُ، حتى دخل

---

١. عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مرجع سابق، ص١٩٧: ٢٠١ بتصرف.

® في **"حقيقة العتاب الوارد في القرآن النبي ﷺ"** طالع: الشبهة الثانية عشرة، من الجزء الثالث (عقيدة النبي ﷺ وعصمته ومعجزاته). والوجه الثاني، من الشبهة الرابعة والعشرين، من الجزء الخامس (نبوة النبي ﷺ وعلاقته بأهل الكتاب). وفي **"تحريم النبي ﷺ العسل في قصة المغافير"** طالع: الشبهة العشرين، من الجزء السادس (تشريعات النبي ﷺ وسياسته وجهاده).

على حفصة فقال لها، يا بنية إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان؟ فقالت حفصة: والله، إنا لنراجعه، فقلت: تعلمين أني أحذرك عقوبة الله وغضب رسوله"[1].

فامتناع الرسول ﷺ عمَّا يحبه، وتعرضه لما يشق عليه، من أجل إرضاء زوجاته، كان أمرًا معهودًا منه ﷺ، إلا أن الأولى بالنسبة للشيء الذي امتنع منه هنا عدم الامتناع منه، فلما ترك الأولى وامتنع منه عوتب عليه نظرًا لسمو مقامه[2].

فالرسول ﷺ أبت شهامته أن تُعامل مارية معاملة الجواري، وكان حبه لها معاملته لها وفق شريعته، التي تفوق أفضل وأعدل قوانين قومها السائدة آنذاك، فلم تُستغل في الخدمة لزوجاته، بل أصبحت أمًّا لولده إبراهيم، وأصبح لها في قلب المسلمين مكانة عظيمة، ولو كان توَّاقًا للنساء ما التفت إلى جارية وأمامه من الحرائر من العرب والروم ما يغنيه عن كل ذلك، فكيف يُصوِّر هؤلاء أفعاله على أنها خيانة؟

فالناس في الإسلام سواسية، وإنما يتفاضلون بأعمالهم، ولا فرق في الإسلام بين حرة وجارية، ولا بين حرة بيضاء وأخرى سمراء، بل إن الإسلام ليعطي لمن يتزوج الأمة بعد أن يعتقها أجرين؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أدب الرجل أمته فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها كان له أجران"[3].

والرسول ﷺ إنسان بما تحمله الكلمة من معانٍ، لم يحب امرأة لأنها شريفة النسب، ولم يكره امرأة لأنها وضيعة، ولم يتزوج امرأة لأنها مليحة، ولم يعرض عن امرأة لأنها قبيحة، بل تزوج بعد خديجة أرملة مُسِنَّة ليست ذات منصب، ولا هي كذلك ذات جمال، بل عجوز مسنة حاجتها إلى الرعاية أشد من حاجتها إلى الزواج، وكاد أهل مكة لا يصدقون بزواجه ﷺ من أم المؤمنين سودة ـ رضي الله عنها ـ لكبر سنها.

لقد ضرب ﷺ لنا المثل في جوانب الحياة الأُسَريَّة كافة؛ فاكتملت في شخصه ﷺ كل صور القدوة، فقد تزوج الثيِّب والبكر، والأرملة والمطلقة، والحُرَّة والأَمَة المُعتَقَة، والصغيرة والكبيرة، فتأمل كيف عاملهن ﷺ.

إنه ليعطينا القدوة زوجًا وأبًا، قولًا وعملًا، ولم يزل يوصينا ويرشدنا: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي"[4][5]®.

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الطلاق (٤٦٢٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن (٣٧٦٥)، واللفظ للبخاري.
2. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٧٢ بتصرف.
3. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العتق، باب فضل من أدب جاريته وعلمها (٢٤٠٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ثواب العبد وأجره إذا نصح لسيده وأحسن عبادة الله (٤٤١٢)، واللفظ للبخاري.
4. صحيح: أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء (١٩٧٧)، والترمذي في سننه، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ (٣٨٩٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٥).
5. الرد على القس بوش في كتابه "محمد مؤسس الدين الإسلامي"، د. عبد الرحمن جيرة، مرجع سابق، ص٢١٣، ٢١٤ بتصرف.

® في **"حسن معاملة النبي ﷺ لأزواجه وعدله بينهن"** طالع: الوجه الثاني، من الشبهة التاسعة، والوجه الثاني، من الشبهة الثانية عشرة، من هذا الجزء.

الخلاصة:

- لم يرتكب الرسول ﷺ طيلة حياته معصية، ولم يُقْبِل على شيء يخالف به أمرًا من أوامر الله ﷻ، وذلك لأنه معصوم من قِبَل الله تعالى، وأما ما يدعيه هؤلاء المدَّعون، فلا وجه له من الصحة؛ إذ لو تدبروا الأمر، لعرفوا أن مارية سُرِّيَة النبي ﷺ "ملك يمينه"، وهي حلال له.

- لم يكن النبي ﷺ بِدعًا من سابقيه في تسرِّيه، بل كان التسري معروفًا في الأديان السابقة؛ فقد كانت هاجر سُرِّيَة إبراهيم ﵇، وأم ولده إسماعيل ﵇، وكان لداود ثلاثمائة سرية كما ورد في التوراة، وقد عرف الجاهليون التسري أيضًا، وقد نص القرآن والسنة المطهرة، على جواز التسري، هذا فضلًا عن أن التسري كانت له فوائد للمجتمع المسلم، إذ فيه وجاء ووقاية من أمراض الفساد والغواية والرذيلة.

- إن قول حفصة: "في بيتي وفي يومي وعلى فراشي" يدل على أن الاستنكار لم يكن لخيانته ﷺ لها والعياذ بالله، بل كان غيرة منها؛ لذا غضبت، وقالت ذلك، وقد حرم الرسول مارية عليه إرضاء لزوجاته، إلى أن خفف الله عنه قائلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾(التحريم: ١). فلو كان النبي ﷺ خائنًا لما خاطبه الله مناديًا إياه بهذا النداء الدال على التعظيم والتكريم، ولما قالت له حفصة - رضي الله عنها -: وكيف تحرِّم عليك وهي جاريتك؟!

- كان خطاب الله لنبيه في أول سورة التحريم؛ إنما هو عتاب وراءه إجلال وتنزيه، وتوقير، وتخفيف، وليس توبيخًا أو استنكارًا. ولو كان فيه رائحة من ذلك لما دافعَ الله عن نبيه في هذه الآيات ذلك الدفاع.

- إن الرسول ﷺ رغم تحريمه مارية القبطية، إرضاء لزوجاته، إلا أنه كفر عن يمينه ولم يفرق في يوم من الأيام بينها وبينهن، بل كلهن سواء عنده.

الشبهة الخامسة عشرة

الزعم أن اثنتين من زوجات النبي ﷺ تجسستا عليه لصالح الحكومة الثلاثية(*)

مضمون الشبهة:

يزعم بعض المُغرِضين أن اثنتين من زوجات النبي ﷺ هما عائشة وحفصة كوَّنتا حزبًا لصالح الحكومة الثلاثية المتمثِّلة في أبي بكر وعمر وأبي عبيدة، ويستدلون على ذلك بأن أبا بكر كان يُعدُّ لهذه المهمة التي أوكلها لابنته عائشة بدليل حرصه على زواجها منه ﷺ؛ إذ فسخ خطبتها من جبير بن مطعم، وزوَّجها للرسول ﷺ؛ لتسهِّل مهمته في تحقيق مطامعه السياسية، وكذلك - في زعمهم - كان زواج حفصة من رسول الله ﷺ. كما أن عائشة وحفصة تجاهلتا ما بينهما من تباغض وغيرة؛ لتحقيق هذه المصلحة المشتركة. وقد اتخذت عائشة من عاطفيته ﷺ وكِبَر سنِّه ورقَّة قلبه وسيلة ليصبح أداة طيِّعة في يدها لمصالح والدها السياسية، وأنها تجسست على النبي ﷺ حين كان يتحدث مع عثمان بن عفان، كما أنها أفضت إلى أبيها

(*) السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق.

بعزمه ﷺ على فتح مكة.

وجوه إبطال الشبهة:

١) الثابت تاريخيًّا أن أبا بكر رضي الله عنه لم يفسخ خطبة جبير بن مطعم، ولكن أم جبير هي التي قامت بفسخها؛ خوفًا على ابنها من دخول الإسلام. أما زواج النبي ﷺ من عائشة فقد كان عن حب واقتناع من الطرفين، وكذلك زواجه من حفصة ابنة الفاروق عمر الذي جاء تلقائيًّا دون ترتيب، وليس من أجل تحقيق مصلحة سياسية كما يُدَّعى.

٢) كانت عائشة صغيرة السن لا حول لها على التآمر السياسي والتحالف، فليس صحيحًا أنها سعت بمعونة حفصة - رضي الله عنها - إلى تهيئة أمر التحزُّب لما سُمِّي بالحكومة الثلاثية، أو أنها سعت إلى تحبيب النبي ﷺ في والدها رضي الله عنه، وقد كان الصحابة - بما فيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة - زاهدين في أمر الخلافة.

٣) أما ما نُسب إلى عائشة - رضي الله عنها - من التجسس على النبي ﷺ أو إفشاء أسراره، فهو زور لا حقيقة له؛ فالحادثة الأولى تسمَّعت فيها عائشة - بدافع الغيرة - إلى حديث النبي مع عثمان، ظنًّا منها أنه حديث يخص النساء. أما الحادثة الثانية فلم تخبر فيها أباها بوجهة النبي ﷺ بل أخبرته فقط باستعداده للسفر.

التفصيل:

أولا. زواج النبي ﷺ بعائشة وحفصة كان زواجًا طبيعيًا صادرًا عن قبول ورضا متبادَلين، ولا شبهة فيه لأية أغراض سياسية أو مصالح أخرى:

ليس صحيحًا ما يدعيه هؤلاء من أن أبا بكر رضي الله عنه قد فسخ خطبة جبير بن مطعم لابنته ليزوجها للنبي ﷺ تمهيدًا لاستيلائه على الخلافة ولكن أم جبير أرادت أن تستوثق من أن أبا بكر لن يُدخل ابنها في الإسلام، فلما لم تجد من أبي بكر رضا من استمرار ابنها على دينه رغبت هي وزوجها في فسخ هذه الخطبة، ولقد كان لأبي بكر - حقًّا - رغبة في أن يشرف بمصاهرة النبي ﷺ، ولكن الأمر سار طبيعيًّا تمامًا.

وشبيه بهذا ما حدث في زواج النبي ﷺ بحفصة؛ إذ لما عرضها عمر على صاحبيه أبي بكر وعثمان، فسكت أبو بكر عند عرضها عليه، ومن بعده عثمان، فقال النبي ﷺ لعمر حين شكا إليه عدم قبول عثمان: "حفصة يتزوجها خير من عثمان، وعثمان يتزوج خيرًا من حفصة"[1]، ثم خطبها لنفسه[2].

والدليل على أن زواج النبي ﷺ من عائشة وحفصة لم يكن من ترتيب أبي بكر أو عمر بن الخطاب - ما رُوي من أحاديث تروي قصة زواج كل منهما:

- **زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة:**

وعن أبي سلمة ويحيى قالا: لما هلكت خديجة جاءت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون. قالت: يا رسول الله، ألا تزوج؟ قال: "من"؟ قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا، قال: "فمن البكر"؟ قالت: ابنة أحب خلق الله عز وجل إليك، عائشة بنت أبي بكر، قال: "ومن الثيب"؟ قالت: سودة ابنة زمعة، قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول، قال: "فاذكريهما عليَّ"،

١. إسناده صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند أبي بكر الصديق رضي الله عنه (٦)، وصحح إسناده حسين سليم أسد في تعليقات مسند أبي يعلى.

٢. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق، ص١١٨ بتصرف يسير.

فدخلت بيت أبي بكر فقالت: يا أم رومان، ماذا أدخل الله ﷻ عليكم من الخير والبركة؟ قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قالت: انتظري أبا بكر حتى يأتي، فجاء أبو بكر فقالت: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قال: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة، قال: وهل تصلح له؟ إنما هي ابنة أخيه، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فذكرت له ذلك، قال: "ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام، وابنتك تصلح لي"، فرجعت فذكرت ذلك له، قال: انتظري، وخرج، قالت أم رومان: إن مطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه، فوالله، ما وعد وعدًا قط فأخلفه لأبي بكر، فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي وعنده امرأته أم الفتى، فقالت: يا بن أبي قحافة، لعلك مصبٍ صاحبنا مدخله في دينك الذي أنت عليه أن تزوج إليك، قال أبو بكر لمطعم بن عدي: أقول هذه تقول إنها تقول ذلك، فخرج من عنده وقد أذهبالله ﷻ ما كان في نفسه من عِدَتِه التي وعده، فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله ﷺ، فدعته فزوَّجها إياه وعائشة يومئذ بنت ست سنين[1].

ومعنى ذلك أن مطعم بن عدي وزوجته أم جبير كانا يخشيان دخول ابنهما دين أبي بكر الصديق ـ وهو الإسلام ـ عند زواجه من ابنته عائشة، فقام أبو بكر الصديق من مجلسهما وهو في حِلٍّ من وعده لمطعم بن عدي، وعند ذلك عزم أبو بكر على زواج ابنته عائشة من رسول الله ﷺ[2].

فكيف يتهمون أبا بكر بأنه فسخ خطبة جبير بن مطعم ليزوج ابنته ـ عائشة ـ الرسول ﷺ؟ وهو الذي لم يزوِّج عائشة النبي ﷺ إلا بعد أن تأكد أن المطعم بن عدي وزوجته لا يريدان زواج ابنهما من عائشة، وعليه فقد كان حريصًا على وعده لهما، وهذا ما أكدته زوجته أم رومان لخولة بنت حكيم حين قالت عنه: والله ما أخلف وعدًا.

وجدير بالذكر أن ننوِّه إلى أن زواج النبي ﷺ بعائشة كان بعد أن رآها في المنام مرتين؛ ولأن رؤيا الأنبياء حق، ومن عند الله، جاءت خولة بنت حكيم بدون ترتيب تَعْرِض عليه الزواج من عائشة؛ فرضي النبي ﷺ وطلب منها أن تخطبها له[3]، وهكذا كان زواجالنبي ﷺ من السيدة عائشة أمرًا طبيعيًّا، لم يتدخل فيه أبو بكر بأي ترتيب، بل كان أمرًا من الله قضاه.

- **زواج النبي ﷺ من السيدة حفصة:**

وكذلك كان زواجه ﷺ من السيدة حفصة؛ فقد ورد في السيرة النبوية لابن هشام، وفي البخاري عن عمر أنه حزن على ترمُّلِ ابنته حفصة، واشتدت شفقته عليها وعلى شبابها، ففكر عمر بن الخطاب في أن يجد لها مخرجًا من هذه الأزمة التي حلَّت بها، وهي استشهاد زوجها في معركة أُحد بعد إصابته، فتوجه عمر بن الخطاب إلى صديقه أبي بكر الصديق، وعرض عليه أن يتزوج ابنته،

1. إسناده حسن: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٥٨١٠)، والطبراني في المعجم الكبير، كتاب ذكر أزواج رسول الله ﷺ (٥٧)، وحسن إسناده الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

2. زوجات الرسول، د. نبيل لوقا بباوي، مرجع سابق، ص٨٢.
3. انظر: السيدة عائشة وتوثيقها للسنة، جيهان رفعت فوزي، مرجع سابق، ص١٩.

ولكن أبا بكر الصديق سكت، لم يرفض ولم يقبل، فحز ذلك في نفس عمر، ثم توجه إلى صديقه الثاني عثمان بن عفان، وعرض عليه الزواج من ابنته حفصة، وكان جواب عثمان بن عفان: "ما أريد أن أتزوج اليوم"، فزاد ذلك من حزن عمر بن الخطاب بعد أن خيَّب رجاءه صديقاه، أبو بكر وعثمان، فتوجه إلى الرسول ﷺ يشكو أبا بكر وعثمان، فقال له النبي ﷺ: "يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة"[1].

وفعلًا حدث ما ذكره الرسول ﷺ؛ فقد تزوج الرسول ﷺ حفصة بنت عمر، وهو خير من عثمان بن عفان، وتزوج عثمان بن عفان من هي خير من حفصة بنت عمر؛ فقد تزوج أم كلثوم ابنة الرسول ﷺ من خديجة بنت خويلد، ولقد كان أبو بكر وعمر أقرب الناس إلى الرسول ﷺ محبة ومودة، وكانا بمنزلة وزيرين يستشيرهما في كل شيء خاص بالدعوة الإسلامية؛ ولذلك أراد الرسول ﷺ إكرام وزيريه، ومكافأتهما فتزوج من ابنتيهما: عائشة بنت أبي بكر ، وحفصة بنت عمر ، فأكرمهما النبي ﷺ بهذا الزواج على رحلة الكفاح معه ليزيد من أواصر القرابة بينهما[2].

فإذا كان الرسول ﷺ هو الذي طلب الزواج بكل من عائشة وحفصة إكرامًا لأبويهما، وتكريمًا لهما؛

١. إسناده صحيح: أخرجه أبو يعلى في مسنده، مسند أبي بكر الصديق (٦)، وصحح إسناده حسين سليم أسد في تعليقات مسند أبي يعلى.

٢. انظر: تراجم سيدات بيت النبوة، د. عائشة عبد الرحمن، مرجع سابق، ص٢٤٨. زوجات الرسول، د. نبيل لوقا بباوي، مرجع سابق، ص١٠٢.

فأين هذا التدبير الذي يتهمون به كلًّا من أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ؟! وهما اللذان لم يدبرا قليلًا ولا كثيرًا لزواج النبي ﷺ من ابنتيهما، بل كان هذا أمرًا طبيعيًّا، حدث تلقائيًّا دون تدبير من أحد الجانبين.

ثم إنه لو سعى أحد إلى مصاهرة النبي ﷺ سعيًا دءوبًا حثيثًا، لما كان ذلك منكرًا ولا مستغربًا، لما في مصاهرته ﷺ من الشرف واتصال الأسباب. لكن ما ذكرناه من تلقائية هاتين الزيجتين هو الحقيقة المجردة الثابتة.

أما مصطلح "الحكومة الثلاثية" فهو مصطلح فاسد مغرض، لا معنى له في الإسلام، وإنما أطلقه مستشرق لا يفقه أبعاد هذا المصطلح، إذ لا يوجد لهذا المصطلح أصل في الإسلام.

وبهذا يُعرف مدى الحكمة من زواج النبي ﷺ من ابنتي صاحبيه، وأنه نوع من التكريم لهما، ولا يليق إلصاق التهم بالصديق أبي بكر الذي نزل الوحي بتزكيته غير مرة في كتاب الله، وتواتر النقل على شدة لصوقه بالنبي ﷺ، وحضوره جميع مجالسه وتصديقه له، ولَقَبُه خير شاهد على ذلك، كما يتضح فساد القول بأن أبا بكر كان يحتاج إلى المؤامرة والخديعة لنيل خلافة المسلمين؛ حيث إن علو قدره، وشرفه، ولصوقه بالنبي ﷺ وما نزل في حقه، يرقى به إلى خلافة رسول الله دونما حاجة إلى مكر أو خديعة. وكذا كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهم أجمعين ®.

® في **"الحكم الخاصة من تعدد زوجات النبي ﷺ"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثامنة، من هذا الجزء. وفي "الحكم والمقاصد من زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة" طالع: الوجه الثاني، من الشبهة الحادية عشرة، من هذا الجزء.

ثانيًا. كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ صغيرة السن لا قُدْرة لها على التآمر السياسي:

لقد كان زواج السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ بالنبي ﷺ وهي صغيرة السن غير ذات تجربة، فأنَّى لها بالقدرة على حَبْك المؤامرات السياسية التي هي من عمل أصحاب الأنياب الزرقاء[1]، فقد كان سنها حين تزوجها رسول الله ﷺ تسع سنوات؛ فقد جاء عن السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ: "أن النبي ﷺ تزوجها وهي بنت ست سنين، وبنى بها وهي بنت تسع سنين"[2].

فهل يمكن لمن في تلك السن أن تعي أمور السياسة وحبك المؤامرات؟! وقد كان النبي ﷺ يدرك أنها لا تزال صغيرة السن، فما كان منه ﷺ إلا أن أفسح لها المجال لِلَّعب، ولم يحرمها هذه المتعة.

فهل يمكن وصفها بعد هذه البراءة بأنها كانت تدبِّر لتولي أبيها الخلافة؟!

وأما ما يزعمه هؤلاء من أن مهمة عائشة كانت تحبيب أبي بكر الصديق إلى رسول الله ﷺ، وأنها في حبها لزوجها ﷺ إنما أرادت تحقيق غايات أبيها، وكان آخر ما أسفرت عنه جهودها إمامة أبي بكر للمصلين ـ فمردود؛ لأن حب النبي ﷺ لأبي بكر كان معروفًا قبل هذا الزواج؛ فقد اصطفاه خليلًا ورفيقًا في هجرته حتى نزل بذلك القرآن: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠)، وقال ﷺ: "لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي"[3]، وهذه الأخوة كانت معروفة قبل الزواج، حتى إن خولة بنت حكيم حين ذهبت تخطب عائشة من أم رومان قالت: كيف والنبي أخو أبيها أبي بكر[4]؟!

وقد كان أبو بكر الصديق من أحب الرجال إلى النبي ﷺ وأعزهم عليه، وكان رضي الله عنه أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وقد سئل بعد ذلك الإمام مالك عن خلافة الصديق، فقال: "وهل في ذلك شورى"؟

وقد ورد أن النبي ﷺ أراد أن يكتب الخلافة لأبي بكر؛ فعن عائشة أنها قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن أبي بكر: "ائتني بكتف أو لوح حتى أكتب لأبي بكر كتابًا لا يُختَلَف عليه"، فلما ذهب عبد الرحمن ليقوم قال ﷺ: "يأبى الله والمؤمنون أن يُختَلَف عليك يا أبا بكر"[5][6]. وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: "عائشة"، فقلت: من الرجال، قال: "أبوها"، قال:

١. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق، ص١١٩ بتصرف.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب تزويج الأب ابنته من الإمام (٤٨٤١)، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب تزويج الأب البكر الصغيرة (٣٥٤٥).

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلا" (٣٤٥٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣٢٢).

٤. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق، ص١١٩.

٥. صحيح: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٤٢٤٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٩٠).

٦. انظر: السيدة عائشة وتوثيقها للسنة، جيهان رفعت فوزي، مرجع سابق، ص١٣.

قلت: ثم من؟ قال: "عمر بن الخطاب.." فعدَّ رجالًا[1].

وقد رُوي عن عائشة أنها لم تكن ترغب في إمامة أبي بكر ـ عكس ما زعم هؤلاء ـ فقد رُوي أن رسول الله قال في مرض موته: "مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس"، فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق الصوت لا يستطيع الصلاة، فكرَّر النبي ﷺ أمره ثلاث مرات، وفي رواية أخرى: أن عائشة اقترحت اسم عمر، وطلبت من حفصة أن تقترح هي ـ أيضًا ـ عمر، ففعلت حفصة استجابة لقول عائشة التي لم تقل إلا حقًّا معروفًا، فقال الرسول: "لأنتنَّ صواحب يوسف"[2]. وأخيرًا صلَّى أبو بكر بالناس، فأين أثر عائشة وسيطرتها على الرسول ﷺ كما يزعمون؟

وهذه الروايات تتفق في معناها، ويتضح منها أنه لا صحة لادعاء هؤلاء، فلو أن عائشة ـ رضي الله عنها ـ كانت تعمل لإمامة أبيها في الصلاة لما طلبت أن يصلي غيره بالناس؛ ولو أنها كانت متفقة معه ـ كما يزعمون ـ لكانت هي البادئة في ذكر اسم أبي بكر. وقد فهمت من إمامة أبي بكر في الصلاة إلى أنها ترمز إلى استخلاف النبي ﷺ له، فكيف إذن يُوَفَّق بين قولهم: إن عائشة تعمل على تولية أبيها خلافة الرسول ﷺ في إمامة المسلمين، وبيَّن الواقع رغبتها في تحويل ذلك عنه؟! وقد قالت في هذا: "والله ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ"[3]، فأين إذن المؤامرة المدبَّرة من الاتفاق الثلاثي المزعوم ؟! وأين خضوع الرسول لرغبات عائشة واستسلامه لها؟! وهو الذي كان على وشك طلاقها ـ مع سائر زوجاته ـ لطلبهن زيادة النفقة، وهو طلب عادل في حقيقته، غير أن الرسول رأى أنه يتنافى مع رسالته، كما أنه لم يطُلْ مرض الرسول ﷺ إلا خمسة عشر يومًا في بيت عائشة، والناس تتلهف لسماع أخباره بين زائر وسائل، ولا يعقل أن تستطيع عائشة في هذا الزمن القصير أن تدبِّر المؤامرة بالاتفاق مع أبيها لدعم مركزه، ولا سيما أن بيت عائشة لم يكن إلا غرفة واحدة، فيها المريض، وفيها الزوَّار أو الزوجات.

فلم يكن أي من الوقت أو المكان مناسبًا للنشاط الذي زعمه هؤلاء، والثابت أن عائشة لم تتدخل في السياسة في عهد النبي ﷺ ولا أبيها ولا عمر، ولا بدء عهد عثمان، فلما اضطربت الأمور وشكا الناس إلى أمهم عائشة تدخلت في الأمر[4]، فخرجت إلى البصرة مع طلحة، والزبير، فيما عُرف بموقعة الجمل، ولما حدثت واقعة الجمل، وراح ضحيتها نحو عشرة آلاف مقاتل من الفريقين ندمت.

وكانت عائشة إذا قرأت الآية: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ (الأحزاب: ٣٣) بكت حتى تبلَّ خمارها، وكانت كلما ذُكِر

---

١. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلا" (٦٤٦٢)، ومسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣٢٨).

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالسنة، باب ما يكره من التعمق والتنازع في العلم والغلو في الدين والبدع (٦٨٧٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما (٩٦٨).

٣. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما (٩٦٧).

٤. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق، ص١١٩، ١٢٠ بتصرف.

يومُ الجمل تبكي حتى كان يظن من رآها أنها لا تسكت، وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي تدخلت فيها عائشة -رضي الله عنها - في مسائل السياسة، وقد دفعها إلى ذلك أنها كانت تريد أن تُنصف الناس، وقالت: إنما أخرج للإصلاح بين الناس، وأرجو فيه الأجر إن شاء الله، وقد نَدِمَت كثيرًا على تدخُّلِها، وكانت تتمنى أن تُدفن بجوار رسول الله ﷺ في حجرتها، ولكن قبل وفاتها قالت: "إني أحدثت بعد رسول الله ﷺ فادفنوني مع أزواج النبي"[1]؛ تعني خروجها مخالفة الآية:﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾[2]، فقد ندمت كثيرًا على هذه المرة الوحيدة التي تدخلت فيها، فهل بعد ذلك يتهمونها بأنها دبرت المؤامرت لِتُولِّي أباها الخلافة؟

الإجماع على خلافة أبي بكر وعمر وزهدهما فيها:

قد أجمع المسلمون على صحة خلافة أبي بكر ومن بعده عمر؛ قال أبو بكر الباقلاني في معرض ذكره للإجماع على خلافة الصديق، وكان ﷺ مفروض الطاعة لإجماع المسلمين على طاعته وإمامته.

وقد وُلِّي عمر الخلافة باتفاق أهل الحل والعقد وإرادتهم، فهم الذين فوَّضوا لأبي بكر انتخاب الخليفة، وجعلوه نائبًا عنهم في ذلك، فشاور ثم عيَّن الخليفة، ثم عرض هذا التعيين على الناس فأقروه وأمضوه ووافقوا عليه، وأصحاب الحل والعقد في الأمة هم النواب الطبيعيون عن هذه الأمة[3].

وما كان لأبي بكر وعمر أن يحرصا على الخلافة، وقد تربَّيا في المدرسة المحمدية، وتنشَّقا من نسيم هذا العصر ولبسا لباس روح الزهد في أمر الخلافة والمسئولية، وإن تصرفهما في اجتماع السقيفة لخير دليل على ذلك، فبعد أن أتمَّ أبو بكر حديثه في السقيفة قدّم عمر وأبا عبيدة للخلافة، ولكن عمر كره ذلك وقال فيما بعد: "فلم أكره مما قال غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي، لا يقرِّبني ذلك من إثم، أحب إليَّ من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر"[4].

ولقد ظهر زهد أبي بكر في الإمارة في خطبته التي اعتذر فيها عن قبول الخلافة؛ حيث قال: "والله ما كنت حريصًا على الإمارة يومًا ولا ليلة قط، ولا كنت فيها راغبًا، ولا سألتها الله ﷻ في سر أو علانية، ولكني أشفقت من الفتنة، وما لي في الإمارة من راحة، ولكن قُلِّدْتُ أمرًا عظيمًا ما لي به من طاقة ولا يد إلا بتقوية الله ﷻ، ولوددت أن أقوى الناس عليها مكاني"[5].

ولم يكن أبو بكر وحده الزاهد في أمر الخلافة

١. صحيح: أخرجه ابن راهويه في مسنده (٢/ ٤٣)، والحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، باب تسمية أزواج رسول الله ﷺ في الجاهلية والإسلام (٦٧١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٧٤).

٢. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق، ص١٢١ بتصرف.

٣. فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، د. علي الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م، ص١٠٥.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت (٦٣٢٨).

٥. صحيح: أخرجه الحاكم في مستدركه، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، باب أبو بكر الصديق بن أبي قحافة رضي الله عنهما (٤٤٢٢)، والبيهقي في سننه الكبرى، كتاب قتال أهل البغي، باب ما جاء في تنبيه الإمام على من يره أهلا للخلافة بعده (١٦٣٦٤)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في التلخيص.

والمسئولية بل إنها روح العصر[1].

ويتجلّى لنا هذا الزهد أيضًا في موقف عمر عندما علم بنيَّة أبي بكر في استخلافه، حين دخل عليه عمر في أيام مرضه فعرَّفه أبو بكر بما عزم فأبى أن يقبل، فتهدده أبو بكر بالسيف، فما كان أمام عمر إلا أن يقبل[2].

وإذا علمنا أن هذا هو حال هؤلاء الصفوة بشأن الخلافة وعلمنا من جهة ثانية إجماع الأمة على صحة خلافة أبي بكر وعمر؛ جاز لنا أن نتساءل مستنكرين: أين تلك المؤامرات المزعومة؟! ثم أين نصيب أبي عبيدة من الخلافة لو كان ثمة مخططًا ثلاثيًّا كما يزعمون؟

ثالثًا. ما نُسب إلى عائشة ـ رضي الله عنها ـ من تجسّس على النبي ﷺ، أو إفشاء الأسرار، إنما هو اتهام مزوَّر لا نصيب له من الصحة:

وقد استشكل القوم بحادثتين؛ أما **الأولى منها** فقد استمعت فيها عائشة للنبي ﷺ وهو يتحدث مع عثمان ؓ ظنًّا منها أن عثمان جاء في أمر يخُصُّ النساء، فحملها على ذلك غيرتها على النبي ﷺ وحبها له، وفي هذا الحادث نزعة غيرة واضحة من حديثها نفسه، وما هذه إلا تصرفات طبيعية لامرأة شابة تغار على زوجها، وهذا بعيد كل البعد عن الأهداف السياسية والتآمر لمصلحة أبيها كما يزعمون.

وأما الثانية فكانت عندما سألها أبو بكر الصديق عن سفر النبي ﷺ وقد أنكرت السيدة عائشة معرفتها بتوجه النبي ﷺ، سواء علمت أم لم تعلم، وهذا فيه الدليل الكافي على دَحْض قول هؤلاء.

ضعف الحديث الأول:

وقد وردت الحادثة الأولى عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: "ما استمعت على رسول الله ﷺ إلا مرة؛ فإن عثمان جاء في نَحْر الظَّهيرة[3]، فظننت أنه جاءه في أمر النساء، فحملتني الغيرة على أن أصغيت إليه، فسمعته ﷺ يقول: "إن الله ﷻ ملبسك قميصًا تريدك أمتي على خلعه؛ فلا تخلعه". فلما رأيت عثمان يبذل لهم ـ أي الثوار ـ ما سألوه إلا خلعه علمت أنه من عهد رسول الله ﷺ الذي عهده إليه"[4]، وفي هذه الحادثة دافع غيرة واضح من حديثها نفسه، وهي غيرة محمودة من زوجة محبة مخلصة. هذا إذا افترضنا صحة هذا الحديث، فما بالنا إذا علمنا أن هذا الحديث الذي يستندون إليه في دعواهم تلك ضعيف، ولا يصح أن يكون دليلًا تقوم به حجة.

وأما الحادثة الثانية فقد جاء تفصيلها في كتب السنة على الوجه الآتي:

دخل أبو بكر الصديق ؓ على عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهي تُغربِل حِنطَة[5] ـ وقد أمرها النبي ﷺ بأن تخفي ذلك ـ فقال لها أبو بكر: يا بنية، لِمَ تصنعين هذا الطعام؟ فسكتت، فقال: أيريد رسول الله أن يغزو؟ فصمتت، فقال: لعله يريد بني الأصفر؟ ـ أي الروم ـ

١. الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق: شخصيته وعصره، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص١٤١، ١٤٢ بتصرف.

٢. انظر: عمر بن الخطاب، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ص١٠٣.

٣. نَحْر الظهيرة: وقت القائلة وشدة الحر.

٤. ضعيف: أخرجه أحمد في مسنده، باقي مسند الأنصار، حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٢٤٨٨١)، وضعفه الأرنؤوط في تعليقه على المسند.

٥. الحِنْطة: القمح.

فصمتت، فقال: لعله يريد أهل نجد؟ فصمتت، قال: لعله يريد قريشًا؟ فصمتت، فدخل رسول الله ﷺ فقال له الصديق: يا رسول الله، أتريد أن تخرج مخرجًا؟ قال: "نعم"، قال: لعلك تريد بني الأصفر؟ قال: "لا"، قال: أتريد أهل نجد؟ قال: "لا"، قال: فلعلك تريد قريشًا؟ قال: "نعم"، قال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، أليس بينك وبينهم مدة؟ قال: "ألم يبلغك ما صنعوا ببني كعب"[1]؟

وهنا سلم أبو بكر للنبي ﷺ وجهز نفسه ليكون مع القائد في هذه المهمة الكبرى.

ومن هذه الرواية يثبت أن السيدة عائشة كانت أمينة على أسرار رسول الله ﷺ فكتمتها حتى عن أبيها، فلم تخبره بإرادة الرسول ﷺ السفر لفتح مكة، وصمتت ولم تجب عن أسئلة أبيها، وهكذا كان وفاؤها لزوجها ﷺ، لم يُعرَف أنها أفشت له سرًّا طيلة حياتها، فأي وفاء أكثر من هذا ؟! فقد عرف أبو بكر بأمر فتح مكة من رسول الله ﷺ لا من عائشة، وهذا دليل على دحض قول المفترين في هذه الحادثة، فقد افتروا عليها كذبًا.

أما الرواية التي استند إليها هؤلاء في زعمهم والتي جاء فيها "إذ دخل عليها أبوها، فوجدها تدبر جهاز الرسول ﷺ، فقال: يا بنية، أمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوا؟ قالت: نعم، فتجهَّز، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: لا والله ما أدري".

هذه الرواية لم تذكر في أي من كتب السنة المطهرة، وإنما أوردها ابن هشام في سيرته، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فليس فيها ما يُفهم منه التجسس، إذ كان لا بد للرسول ﷺ من أن يخبر أهله عن تجهُّزه للسفر وقد أخبرهم فعلًا بذلك لما حان الوقت، أما جوابها بأنه مسافر فذلك ما لا يحتاج إلى كبير عناء لمعرفته، إذ كانت كل الظروف التي رآها أبو بكر في منزل الرسول ﷺ تُوحِي بأنه يريد السفر، ولو أنها أخبرت أباها بالجهة المقصودة لكان ذلك ما يؤيد رأي هؤلاء.

أما وقد أنكرت معرفتها سواء علمت أم لم تعلم، ففيه الدليل الكافي على دحض قولهم[2]، وقد أكدت كتب السيرة أن النبي ﷺ أخفى مقصده لفتح مكة إلا عن بعض خاصته كالصديق رضي الله عنه.

هذا وإن فضائل أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ كثيرة، كلها تؤكد أنها بعيدة كل البعد عما يدعونه، أو يفترونه عليها، ويكفيها فخرًا قوله رسول الله ﷺ: "فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام"[3].

فهل يُظن بمن تُختص بمثل هذا التكريم أن تتصف بالجاسوسية، والتآمر ضد رسول الله ﷺ؟! وكيف ذلك وقد كان رسول الله هو أحب خلق الله إليها، وقد كانت أحب خلق الله إليه؟! وذلك كما جاء في حديثه إلى عمرو بن العاص الذي سأله فيه: أي الناس أحب إليك؟

---

١. أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب نقض قريش ما عاهدوا عليه رسول الله ﷺ، حديث: "ثم إن بني نفاثة من بني الدئل أغاروا على بني كعب" (١٧٥٨).

٢. السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مرجع سابق، ص١٢٢ بتصرف يسير.

٣. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل عائشة (٣٥٥٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب في فضل عائشة (٦٤٥٢).

فقال: "عائشة" [1]، وكانت تبادله الشعور نفسه، وما غيرتها عليه ﷺ إلا مظهر من مظاهر هذا الحب فهل إذا غارت المرأة على زوجها توصم بأنها جاسوسة عليه متآمرة ضده؟ أم توصف بأنها شديدة الحب والإخلاص له؟!

الخلاصة:

- الثابت أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لم يفسخ خطبة جبير بن مطعم لعائشة، وإنما فسختها أم جبير حين خافت على ابنها أن يدخل الإسلام، فقامت بفسخ الخطبة.
- زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة - رضي الله عنها - كان عن رضى واقتناع بين الطرفين، وكذلك كان زواجه ﷺ من حفصة بنت الفاروق تلقائيًّا دون تدبير سابق، وليس من أجل تحقيق مصلحة سياسية لما يسميه بعض المغرضين: الحكومة الثلاثية، وهو مصطلح فاسد دخيل على التاريخ الإسلامي.
- إننا لو صحَّ لدينا أن أحدًا سعى إلى مصاهرة النبي ﷺ سعيًا حثيثًا دءوبًا، لما كان ذلك منكرًا ولا مستغربًا، لما في مصاهرته ﷺ من الشرف واتصال الأسباب الكريمة، لكن ما ذكرناه من تلقائية هاتين الزيجتين هو الحقيقة المجردة.
- كانت السيدة عائشة - رضي الله عنها - إبان زواجها بالنبي ﷺ جارية حديثة السن غير ذات تجربة، ولا قدرة لها على التآمر السياسي وإقامة الأحلاف ونحو ذلك، فليس صحيحًا أنها سعت بمعونة السيدةحفصة - رضي الله عنها - إلى تهيئة أمر الخلافة لأبيها أبي بكر الصديق.
- أجمعت الأمة على صحة خلافة أبي بكر وعمر وأحقية كل منهما بالخلافة، وقد كانا - رضي الله عنهما - زاهدَيْن فيها معرضَيْن عنها شأنهما في هذا شأن كل الصحابة؛ وهذا وحده كافٍ لنفي أية شبهة لتآمرهما أو احتيالهما لتولِّيها.
- ما نسب إلى عائشة - رضي الله عنها - من تجسُّس على النبي ﷺ، لم يكن كذلك، بل كان غيرة منها عليه وحبًّا دفعها إلى متابعة حديثه مع عثمان رضي الله عنه ظنًّا منها أنه حديث يخص النساء، هذا بالإضافة إلى أن العلماء ضعَّفوا الحديث سندًا، وبخصوص ما نسب إليها من إفشاء سِر النبي ﷺ حين عزم على فتح مكة فهو غير ثابت، وإنما الذي ثبت أنها لم تخبر أباها بسر النبي ﷺ حين استعلم عن جهة النبي ﷺ في غزوته التي يُعدُّ لها.
- إن لأم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها - من التكريم والمكانة ما ينفي عن الأذهان احتمال عصيانها للنبي ﷺ أو خيانتها له وإفشائها سِره، وقد ضربت المثل - هي وجميع أمهات المؤمنين - في الحب والوفاء والإخلاص للنبي ﷺ.

---

1. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ: "لو كنت متخذًا خليلا" (٣٤٦٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر الصديق (٦٣٢٨).

الشبهة السادسة عشرة

استنكار زواجه ﷺ من السيدة زينب مطلّقة ابنه زيد(*)

مضمون الشبهة

يستنكر بعض المغالطين زواج النبي ﷺ من ابنة عمته السيدة زينب بنت جحش؛ متهمين النبي ﷺ بأنه اشتهى زوجة ابنه[1] (زيد بن حارثة)، وأنه أحل لنفسه تطليقها منه ليتزوجها هو؛ استجابةً لغريزته وميله الشديد للنساء.

وجها إبطال الشبهة:

١) لم يكن زواج النبي ﷺ من السيدة زينب بدافع شهواني، ولا استجابةً لغريزة؛ وإنما كان لحكمةٍ تشريعية أرادها الله ﷻ وهي إبطال حكم التبني الذي كان معروفًا آنذاك وكان من عادات الجاهلية، ولو كان الأمر يتعلق بالشهوة وحب النساء كما يزعمون؛ لتزوَّجها ﷺ وهي بِكْر، ولما انتظر حتى تصير ثيِّبًا، ثم يتزوجها.

٢) النبي ﷺ لم يأمر زيدًا بتطليق زينب، وإنما طلَّقها زيد بمحض اختياره وإرادته بعد أن قضى منها وطره، ولم يَعُد له بها حاجة أو رغبة، وكان زواج النبي ﷺ منها بأمر من الله ﷻ لحكمة تشريعية سامية.

التفصيل:

أولا. لم يكن زواج النبي ﷺ من زينب لشهوة عنده، وإنما كان بأمر الله، ولحكمةٍ تشريعية أرادها الله ﷻ:

فلقد أراد الله تعالى إبطال عادة من عادات الجاهلية وتقليدًا من تقاليدهم الموروثة، ألا وهو تحريم زوجة الدَّعِيِّ المتبنَّى كتحريم زوجة الابن من الصُّلب تمامًا، ولما كان هذا التحريم عقيدة لديهم يقدسونها كل التقديس ويثورون على من خالَفَها، قَدَّر الله الحكيم العليم تغيير هذه العادة بأن جعل بدء التغيير على يد من أرسله الله تعالى أسوة للناس وإمامًا، سيدنا محمد ﷺ، فَقَدَّرَ أن يكون زيد بن حارثة عبدًا له، وهبته له زوجته خديجة - رضي الله عنها -، ثم منَّ الله عليه فأسلم، وأعتقه ﷺ فصار مولى له بعد أن تبناه، وصار يُسمَّى "زيد بن محمد"، على ما كان معروفًا في العرب، وأعلن تبنيه بجوار الكعبة، وعلم الكل ذلك، وصار في نظر العرب أن كل زوجة يتزوجها زيد تُحَرَّم بعد فراقها إياه على أبيه رسول الله ﷺ بالتبني، فخطب ﷺ زينب بنت جحش بنت عمته لمولاه زيد بن حارثة المذكور، فأبت، وأبى أخوها "عبد الله بن جحش" فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا (٣٦)﴾ (الأحزاب).

فلما نزلت الآية قال عبد الله: رضينا يا رسول الله، فأَنْكِحْها إياه، وأصدقها عشرة دنانير وستين درهمًا، وخِمارًا ومِلْحفة، ودِرعًا، وخمسين مُدًّا[2] من طعام، وعشرة أمداد من تمر.

ولما كان رضا زينب وأخيها مجرد طاعة لله ورسوله، ونتيجة لحث من النبي ﷺ لها على التزوج لما يدبره الله من تنفيذ شرعه في عباده، عاشت زينب مع زيد مُسَلِّمة لأمر ربها، إلا أنها استمرت تشعر في نفسها أن زيدًا

(*) موقع أثينا.
www.Geacities.Comathens/cyprus

١. لم يكن زيد ابنًا للنبي ﷺ حقيقة، وإنما تبنّاه وهو غلام، وكانت العرب تعد الابن بالتبنِّي كالابن من الصلب.

٢. المُدُّ: نوع قديم من المكاييل.

ليس كفئًا لها، باعتبارها هاشمية قرشية، وباعتباره كان عبدًا ثم أُعتق، فصارت تَشْمَخُ عليه بأنفها، وتفخر بنسبها، فاشتكى مرارًا إلى رسول الله ﷺ، والرسول يعلم يقينًا أن أمر الله نافذ، ولا بد أن تُطلّق زينب لينكحها هو بأمر الله بعد انتهاء العدة، ليبدأ بإبطال تحريم زوجة الدَّعِي المتبنَّى، ولكنه مع علمه هذا كان يخفيه في نفسه، فالأعداء كلهم متربصون يستغلون أية ثغرة ينفذون منها إلى التشنيع عليه، وخاصة في مثل هذا الأمر المقدَّس لديهم، وكان يحاول تبرير موقفه أمام الناس بنصح زيد وتوصيته أن يتَّقي الله في زوجته التقيَّة، ويمسكها على نفسه.

واستمر زيد يشكو حتى غلب أمر الله على أمر الناس، وسمح لزيد بطلاقها، ثم تزوجها النبي ﷺ بعد انتهاء المدة ليمزِّق حجاب تلك العادة، ويكسر ذلك الباب الذي كان مغلقًا دون مخالفتها، فقال الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ أي: أنعم الله عليه بالإسلام، وأنعم عليه النبي بالعتق ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾: زينب ﴿ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ هو حكم الله بأن زيدًا سيطلقها حتمًا وتتزوجُها أنت لتنفيذ شرع الله: ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ أن يُعيِّروك بمخالفة تقاليد الجاهلية ﴿ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾ أي: عاشرها مدة وانتهت حاجته منها: ﴿ زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ (الأحزاب).

وهكذا تبيَّن أن المسألة تكليف من الله، ولم تكن شهوة للنبي ﷺ، بل تحمل في سبيل هذا التكليف ما تحمَّل، وعانى ما عانى، ولو كان ﷺ أسير شهوة أو جمال لتزوجها عندما كانت بِكْرًا دون أدنى مُشْكلة؛ لأنها بنت عمته[1]، وقد تربَّت تحت نظره، وشملها بعنايته ما يشمل البنت مع والدها لأول الأمر حتى أنه اختارها لمولاه زيد، مع إبائها وإباء أخيها وعدَّ إباءها هذا عصيانًا، ولا زالت كذلك حتى نزل فيها قرآن، فكأنها أُرْغمت على هذا الزواج على ما ألهمه الله من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك.

ولو كان للجمال سلطان على قلبه ﷺ لكان أقوى عليه سلطان جمال البكر في رُوائه[2]، ونضرة جِدَّته، وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب، ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة، ولكنه لم يرغبها لنفسه بل رغبها لمولاه، فكيف يمتد نظره إليها، ويصيب قلبه سهم حبها، بعد أن صارت زوجة لعبد من عبيده أنعم عليه بالعتق والحرية؟ والغالب المألوف في عُرْف البشر ألا تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب، خصوصًا إذا كان عشيره منذ صغره، بل المألوف زهاده إلى أن يبلغ حدًّا منه يجول فيه نظر الشهوة.

فكيف يُظَنُّ أو يُتوهم أن النبي الذي يقول الله له: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (طه١٣١) يخالف مألوف العادة، ثم يخالف أمر الله في ذلك؟ أم كيف يخطر بالبال أن من عصم الله قلبه من كل دنيئة، يغلب عليه سلطان شهوة في بنت

---

١. هذه دعوتنا، عبد اللطيف مشتهري، مكتبة الاعتصام، مصر، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٢٩٨: ٣٠٠.

٢. الرُّواء: حسن المنظر وبهاؤه.

عمته، بعد أن زوَّجها بنفسه لعبد من عبيده[1]®؟

ثانيًا. تطليق زيد بن حارثة لزينب كان بمحض اختياره وإرادته لكن زواج النبي ﷺ منها كان بأمر من الله تبارك وتعالى:

ليس صحيحًا ما يدعيه هؤلاء من أن النبي ﷺ كان حريصًا على أن يطلق زيد زوجه زينب بنت جحش كي يتزوجها هو؛ وإنما الحق الذي لا يُماري فيه أحد أن النبي ﷺ كان حريصًا كل الحرص على استمرار زواج زيد بزينب، فكان ﷺ كثيرًا ما ينصح زيدًا كلما استشاره في طلاقها بأن يتقي الله ويمسك عليه زوجه فلا يطلقها، ولكن شاءت حكمة الله ﷻ ألا يتوافق زيد وزينب في زواجهما، وأصبحت حياة الزوجين لا تُطاق، وصمَّم زيد على فراق زوجه زينب، وكان قبل ذلك يشتكي إلى النبي ﷺ من عدم استطاعته البقاء معها، ورسول الله ﷺ يأمره بإمساك زوجه مع تقوى الله في شأنها، حتى أذن الله بالطلاق، فطلقها زيد وانفصمت العلاقة بينهما بعد أن قضى زيد وطره، وبعد أن مكث معها ما يقرب من سنة، قال ابن كثير: فمَكَثَتْ عنده قريبًا من سنة أو فوقها ثم وقع بينهما (يعني الخلاف) فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول له: "أمسك عليك زوجك واتق الله"[2].

لم يبقَ لزيد إذن رغبة في إبقاء العلاقة الزوجية معها؛ لأنه كريم النفس، لا يريد أن يبني سعادته وراحته على شقاء الآخرين وتعاستهم والإضرار بهم، ولهذا صمَّم على الفراق وعدم الإضرار بها؛ لأنها كانت تعيش في قلق واضطراب، وانتهى زواج زيد بن حارثه ﷺ بزينب بنت جحش - رضي الله عنها - على هذا الوضع دون أي تدخل خارجي بينهما، ووقع ذلك الطلاق بمحض اختياره وإرادته، على الرغم من أن رسول الله ﷺ كان ينهاه عن ذلك، ويأمره بتقوى الله تبارك وتعالى وإمساك زوجته[3].

ومن ثم فإن الزعم بأن الدافع من زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش شهوانيته ما هو إلا افتراء لا يقوم على أي دليل ملموس من النبي محمد ﷺ الذي لم تعرف البشرية ولن تعرف رجلًا في عفته ﷺ.

كان طلاق زيد لزينب إذن بإرادته واختياره، وليس بأمر من النبي ﷺ كما يزعم الزاعمون، فقد قضى زيد من زينب وطره، ولم يعد له بها حاجة.

ولعل مما يؤكد أن زيدًا لم يكن مجبرًا في تطليقه زينب أن النبي ﷺ قد اختاره ليَذكُر عليه زينب[4]، فقد رُوي أنه لما انقضت عِدَّة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: "اذهب فاذكرها عليَّ"، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري، فقلت: يا زينب، أبشري، أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئًا حتى أؤامر[5] ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول

---

١. محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ج٧، ص٦٦٩، ٦٧٠ بتصرف.

® في **"الحكم الخاصة من تعدد زوجات النبي ﷺ"** طالع: الوجه الرابع، من الشبهة الثامنة، من هذا الجزء.

٢. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (هود: ٧)، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ (التوبة) (٦٩٨٤).

٣. السيرة النبوية، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٣٦.

٤. يَذكُر عليه زينب: يخطبها له.

٥. أؤامر ربي: أستخيره.

الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن[1].

ولعل اختيار رسول الله ﷺ لزيد مقصود لذاته، ليقطع بذلك ألسنة المتقولين وما قد يزعمونه من أن طلاقها وقع بغير اختيار من زيد، وأنه قد بقي في نفسه من الرغبة فيها شيء، وفي هذا يقول ابن حجر: "هذا من أبلغ ما وقع في ذلك وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب؛ لئلا يظُنَّ أحد أن ذلك وقع قهرًا بغير رضاه، وفيه أيضًا اختبار ما كان عنده منها، هل بقي منه شيء أم لا"[2]؟

هذا عن تطليق زيد لزينب أما عن زواج النبي ﷺ بها، فليس صحيحًا أن النبي ﷺ كان متيَّمًا بحبها راغبًا في الزواج منها، فلو كان الأمر كذلك لتزوجها وهي بكر مشتهاة - كما أسلفنا -، ولكن الله ﷻ هو الذي أمره أن يتزوجها، وهو ما حكاه القرآن في قوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الأحزاب) إن زيدًا قضى حاجته من زينب، ولم يبق عنده أدنى رغبة فيها، بل صارت رغبته العُظمى في مفارقتها ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾: لما انقضت عِدَّتها جعلناها زوجة لك ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٧) أي: لا يكون على المؤمنين حرج أوضيق أو مشقة في الزواج من أزواج أدعيائهم الذين تبنوهم بعدما ﴿قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ إذا طلق هؤلاء الأدعياء أزواجهم، وانقضت عدة هؤلاء الأزواج، فلا حرج من آباء هؤلاء الأدعياء أن يتزوجوا بنسائهم، ولهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: وكان ما يريده الله تعالى حاصلًا لا محالة[3].

وعليه فالذي تولَّى تزويج زينب للنبي ﷺ هو الله ﷻ؛ أي أنه أوحَى إليه أن يدخل بها بلا مهر ولا عَقْد ولا شهود؛ ولهذا كانت زينب - رضي الله عنها - تفخر على أزواج النبي ﷺ بهذا؛ فعن أنس بن مالك أن زينب بنت جحش كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول: "زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات"[4].

وعلى هذا فإن زواج النبي ﷺ من زينب كان بأمر من الله تعالى لحكمة تشريعية وهي إبطال تحريم زوجات الأدعياء على آبائهم الذين تبنوهم، وقد شاء الله أن يختار نبيه لهدم هذه العادة الموروثة من عادات الجاهلية؛ "لأنه لا يستطيع أحد أن ينهي تقاليد الأجيال الموروثة إلا الرسول ﷺ نفسه، بقوة عزيمته، وبحكم موقعه في التشريع والقدرة، حتى يكون أدعى لقبول الناس له، وكان ما قضاه الله من قضاء كائنًا لا محالة؛ قضاؤه في زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ ما مضى

١. أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس (٣٥٧٥).

٢. فتح الباري، ابن حجر، مرجع سابق، ج٨، ص٣٨٥. السيرة النبوية، د. علي محمد الصلابي، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤٠، ٣٤١ بتصرف.

٣. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج١١، ص٧٥.

٤. أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (هود:٧)، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ (التوبة) (٦٩٨٤).

كائن: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ وما يقضي به الله إنما يكون لحكم سامية، لا كما يزعم هؤلاء الطاعنون من أن الدافع من زواج رسول الله ﷺ من زينب هو الافتتان بها، والإعجاب بجمالها"[1].

الخلاصة:

- لم يكن زواج النبي ﷺ من السيدة زينب بنت جحش بدافع من الشهوة العارمة كما يزعمون، وإنما كان بأمر الله تعالى؛ لحكمة تشريعية أرادها الخالق ﷻ، وهي إبطال حكم التبني، وهي من عادات الجاهلية، وقد اختار الله نبيه ﷺ لإبطالها، ولمَ لا وهو إمام المسلمين وقدوتهم؟ ولو كان الأمر أمر شهوة كما يزعمون، لتزوجها وهي بكر مشتهاة، ولم يتركها حتى تصير ثيبًا عند مولاه ثم يتزوجها بعد ذلك.
- لا يصح شيء مما ادعاه المفترون من أن النبي ﷺ أحلَّ لنفسه تطليق زينب من زيد بن حارثة لينكحها هو، فمن الثابت أن زيدًا قد طلَّق زينب بمَحْض إرادته واختياره، فقد كان مصمِّمًا على فراقها على الرغم من أن النبي ﷺ كان يأمره بإمساكها وتقوى الله فيها كلما شكى له راغبًا في الطلاق بعدما وقع بينهما الخلاف، أما زواج النبي ﷺ منها فقد كان بأمر من الله ﷻ؛ لتحقيق الحكمة التشريعية سالفة الذكر.
- زوج النبي ﷺ زيدًا بزينب بمحض رضا النبي وتزوجها هو بعد طلاقها من زيد بأمر الله، ولكن زيدًا تزوجها مكرهة وطلَّقها مختارًا، بل إنه هو الذي خطبها بنفسه للنبي ﷺ؛ ليعلم هؤلاء أنه لا سبيل للتشكيك في هذا الزواج وليستيقن الجميع أن ليس لزيد بها حاجة!!

[1]. عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مرجع سابق، ص٤٦٦.

المصادر والمراجع

- الأدلة على صدق النبوة المحمدية، هدى عبد الكريم مرعي، دار الفرقان، الأردن، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- أُسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير الجزري، دار الفكر، بيروت، د. ت.
- الإسلام في القرن العشرين: حاضره ومستقبله، عباس محمود العقاد، نهضة مصر، القاهرة، د. ت.
- الإسلام في قفص الاتهام، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر، دمشق، ط٥، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد، د. عبد العظيم المطعني، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- الانشراح ورفع الضيق بسيرة أبي بكر الصديق: شخصيته وعصره، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.
- بلاد العرب، ديفيد جورج هوجارث، ترجمة: صبري محمد حسن، دار الأهرام، مصر، د. ت.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، دار سحنون، تونس، د. ت.
- تراجم سيدات بيت النبوة، د. عائشة عبد الرحمن، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، أخبار اليوم، مصر، ط١، ١٩٩١م.
- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢، د. ت.
- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، د. محمد سيد طنطاوي، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- تلقي النبي ﷺ ألفاظ القرآن الكريم، عبد السلام مقبل المجيدي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- تنزيه سيد الأنبياء عن مطاعن السفهاء، د. ياسر عبد القوي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٦م.
- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- الجامع لأوصاف الرسول ﷺ، ابن العاقولي، المكتب الثقافي، القاهرة، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- حديث الإفك: دروس وعبر، د. عامر حسين السلامي، دار القمة، الإسكندرية، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، د. محمود حمدي زقزوق، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٤، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- حوارات مع أوربيين غير مسلمين، عبد الله أحمد فادي الأهدل، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٩٠م.
- خاتم النبيين ﷺ، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.
- الخصائص الكبرى، الإمام السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ من خلال سيرته الشريفة، د. محمد رَوَّاس قلعه جي، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- دلائل النبوة، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، علَّق عليه: د. عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- دلائل النبوة ومعجزات الرسول، د. عبد الحليم محمود، دار الإنسان، القاهرة، ط٢، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار المؤيد، الرياض، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- رد افتراءات المنصِّرين حول الإسلام العظيم، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة.
- رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء الكتاب والسنة، د. عماد السيد الشربيني، مطابع دار الصحيفة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الرد على القس بوش في كتابه "محمد مؤسس الدين الإسلامي"، د. عبد الرحمن جيرة، دار المحدثين، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود، د. طه حبيشي، طبعة خاصة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- الرسالة والرسل في العقيدة الإسلامية، د. محمد سيد أحمد المسير، مكتبة الصفا، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
- الرسول ﷺ، د. عبد الحليم محمود، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٤م.
- الرسول ﷺ، د. عبد الرحمن سالم، دار الفكر العربي، مصر، ١٤٢١هـ.
- الرسول ﷺ في عيون غربية منصفة، الحسيني الحسيني معدّي، دار الكتاب العربي، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م.
- ركائز الإيمان، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- الروض الأنف، السهيلي، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- زوجات الرسول بين الحقيقة والافتراء، د. نبيل لوقا بباوي، دار البباوي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.
- السلسلة الضعيفة والموضوعة، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.
- السنة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- السيدة عائشة وتوثيقها للسنة، جيهان رفعت فوزي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- السيرة النبوية، ابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٣م.
- السيرة النبوية، ابن هشام، تحقيق: الشيخ محمد بيومي، دار المحرم للتراث، مصر، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- السيرة النبوية: دراسة تحليلية، محمد عبد القادر أبو فارس، دار الفرقان، الأردن، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.
- السيرة النبوية: دروس وعبر، د. مصطفى السباعي، دار الوراق، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

- السيرة النبوية، د. علي محمد الصلابي، دار الفجر للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، د. محمد محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق، ط٨، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- شمائل المصطفى ﷺ، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، د. ت.
- عصمة الأنبياء والرد على الشبهات الموجهة إليهم، د. محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، مصر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- عظمة الرسول ﷺ، محمد بيومي، دار مكة المكرمة، مصر، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، د. علي محمد الصلابي، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.
- فقه السيرة، الشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م.
- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، مكتبة الدعوة الإسلامية، القاهرة، ط٧، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- الفكر الاستشراقي: تاريخه وتقويمه، د. محمد الدسوقي، دار الوفاء، مصر، ط١، ١٩٩٥م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.
- قوانين النبوة، موفق الجوجو، دار المكتبي، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- الكشاف، الزمخشري، الدار العالمية، بيروت، د. ت.
- محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الحديث، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد بن علوي المالكي الحسيني، دار الشروق، جدة، ط٣، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- محمد ﷺ خير البشر وأمته خير الأمم، عمر أحمد محمد، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.
- محمد رسول الله ﷺ، محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق، د. ت.
- محمد رسول الله ﷺ، محمد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- محمد رسول الله ﷺ في الكتب المقدسة، سامي عامري، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.
- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن، إبراهيم خليل أحمد، دار المنار، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

- محمد في حياته الخاصة، نظمي لوقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٤م.
- محمد في مكة، مونتجمري وات، ترجمة: عبد الرحمن الشيخ، حسين عيسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠٠٢م.
- محمد ﷺ المثل الكامل، محمد أحمد جاد المولى، مكتبة دار المحبة، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- محمد مؤسس الدين الإسلامي ومؤسس إمبراطورية المسلمين، جورج بوش، ترجمة: د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دار المريخ، الرياض، ط٢، ٢٠٠٤م.
- محمد والأنبياء في المصادر اليهودية والمسيحية، السيد سلامة غنمي، مطابع الوليد، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- محمد والخناجر المسمومة الموجهة إليه، نبيل لوقا، دار البباوي، القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
- المستشرقون والإسلام، محمد قطب، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- مصدر القرآن: دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- مفاتيح الغيب، الرازي، المطبعة البهية المصرية، القاهرة، ١٣٠١هـ.
- مقدمات النبوة وإعداد الرسول ﷺ مع معجزاته وخصائصه، يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- مناقشات وردود، محمد فريد وجدي، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- موجز دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة مستشرقين، مركز الشارقة للإبداع الفكري، الإمارات العربية المتحدة، ١٤١٨هـ/ ١٩٨٨م.
- موسوعة الأسرة تحت رعاية الإسلام، الشيخ عطية صقر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية الكويتية، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن الكريم، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط٩، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- نبوة محمد في الفكر الاستشراقي المعاصر، د. لخضر شايب، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني، دار الصابوني، القاهرة، د. ت.
- نقد كتاب "حياة محمد"، عبد الله بن علي القصيمي، المطبعة الرحمانية، مصر، ط١، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م.
- نهاية الإيجاز في سيرة ساكن الحجاز، رفاعة رافع الطهطاوي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.
- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، الشيخ محمد الخضري، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
- الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامي، د. محمد ياسين مظهر صديقي، ترجمة: د. سمير عبد الحميد، رابطة

الجامعات الإسلامية، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- هدي السيرة النبوية في التغيير الاجتماعي، حنان اللحام، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١م.
- هذه دعوتنا، عبد اللطيف مشتهري، مكتبة الاعتصام، مصر، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
- وإنك لعلى خلق عظيم، صفي الرحمن المباركفوري، شركة كندة للإعلام والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.
- وقفات تربوية مع السيرة النبوية، أحمد فريد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
- وُلد الهدى، د. طه حبيشي، مكتب الزهراء، مصر، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

موسوعة

بيان الإسلام

الرد على الافتراءات والشبهات

القسم الثاني: الرسول

المجلد الأول

ج ١

شبهات حول حياة النبي ﷺ الخاصة

إعداد

نخبة من كبار العلماء



العنوان:

موسوعة بيان الإسلام
الرد على الافتراءات والشبهات
القسم الثاني: الرســول
المجلد الأول (ج١، ج٢)

إعداد:

نخبــة مــن كبــار العلمــاء

إشراف عام:

داليــا محمــد إبراهيــم

الترقيم الدولي: 977-14-4432-8
رقم الإيداع: 2011/17884
الطبعة الأولى: يناير 2012



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com